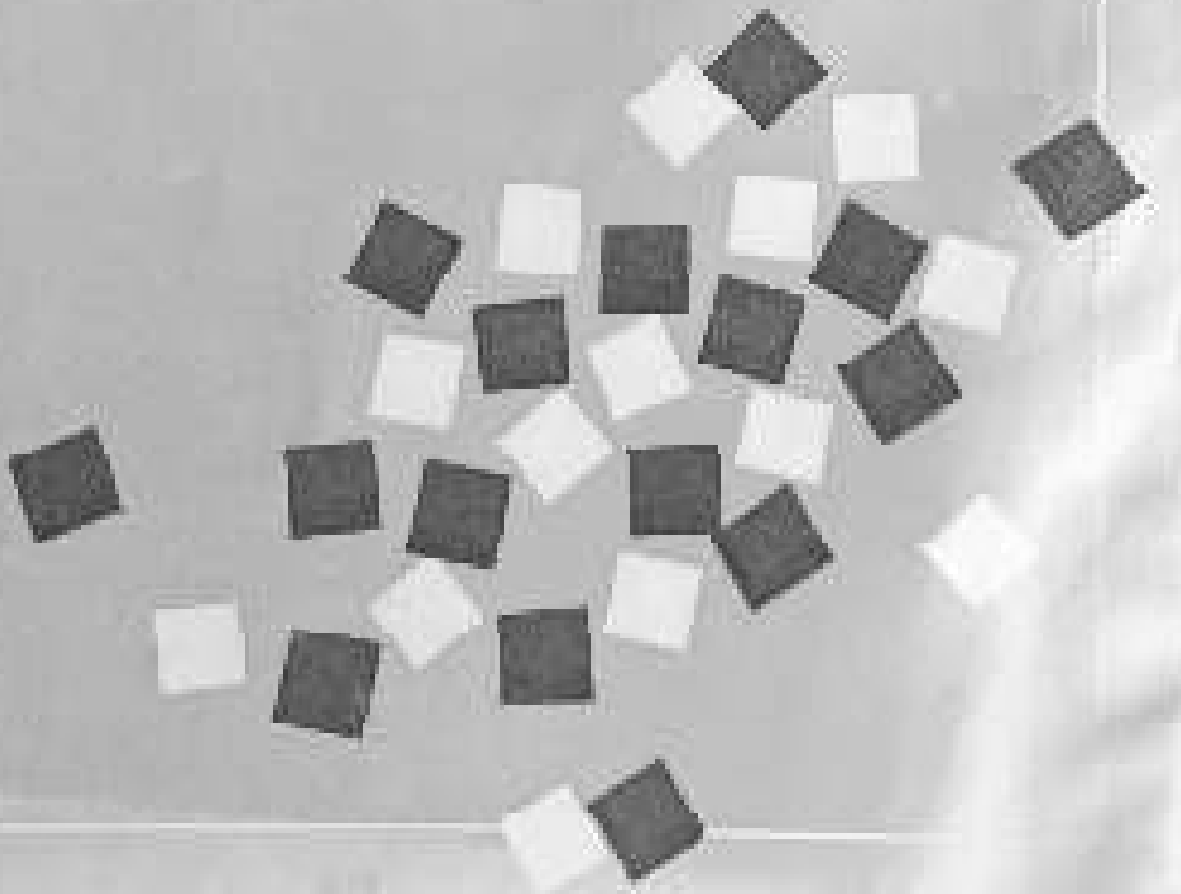


مجلة
كلية الآداب



العدد الثاني

١٣٨٨ هـ
١٩٦٨ م

مجلة كلية الآداب

تصدر سنويا

وتعنى بالبحوث الأكاديمية في مختلف

فروع الدراسات الإنسانية

تكون المراسلات والاشتراكات باسم

أمين مكتبة الآداب

الجامعة الليبية - بنغازي

المقالات تعبر عن آراء أصحابها فقط

ويحق للمجلة أو لإدارتها نشر هذه البحوث

المبيع لحساب مكتبة الآداب - الجامعة

الليبية - بنغازي - ولا يجوز النقل إلا بإذن

مكتوب من إدارة المجلة

ثمن النسخة ٨٠ دينارا ليبيا

مجلـــة
كلية الآداب

الجامعة الليبية



مجلة
كلية الآداب

رئيس التحرير
الدكتور مختار مصطفى بوراوي

مدير التحرير
الدكتور عبد الرحمن بدوي

العدد الثاني

١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م

فهرس المجلة

ص

تقديم : الدكتور مختار مصطفى بوريو ٧

مقالات باللغة العربية

١ — د. ابراهيم تدمري : «ليبيكيديس» ٩

٢ — د. حسان عباس : «مدن الواحات في العصر الكبرى» ... ٦٥

٣ — د. عبد الرحمن بلوي : «الفلسفة الغربية في المصادر العربية» ٩٩

٤ — عبد الله كنون : «الشيخ أحمد زروق ، حياته ومصادره» ... ١٢٩

٥ — عثمان الكعاك : «اللغة الليبية والترجمة والنشر» ١٦٥

٦ — د. نوري جعفر : «آراء في تفسير طبيعة الأصالة عند الفنانين والعلماء» ١٩٣

٧ — د. عبد الرحمن بلوي : «نقد الكتب ٢٣٥

٨ — أخبار علمية : المؤتمر التاريخي : ليبيا عبر العصور — مشروع تعاون علمي بين جامعة ليبية وجامعة أجنبية — لمحة عن المشروع المشترك لدراسة الفقد في العلم — مواسم المحاضرات العامة في كلية الآداب — ملخص بحث تحليلات لغوية وعلاقتها بالاستغلال الزراعي في سهل الجفارة ٢٤٩

مقالات بغير اللغة العربية

ص

١ ــ د. جيرلد بلاك : «الزكاة التجارى لعصرنا : شكله ووظيفته» ... ...

تقديم

يسر كلية الآداب أن تقدم إلى السادة الباحثين والمهتمين بالعلوم الإنسانية المجلد الثاني من «مجلة كلية الآداب» ، ورغم أن الفترة الزمنية طويلة ما بين المجلد الأول والثاني فإنني أؤكد أن هذا الانقطاع ناجم عن أسباب خارجة عن إرادة الكلية .

وإننا نؤمن بأن الجامعة ليست مجرد مكان لإلقاء المحاضرات وإنما هي مؤسسة لإسهام في الأبحاث والدراسات الأكاديمية خاصة وأنه في عالم قربت وسائل المواصلات بين أجزائه وأصبح وحدة واحدة بالإضافة إلى التقدم التكنولوجي الهائل الذي يشهده عالمنا اليوم .

وليبيا اليوم تشهد تطوراً وتنوعاً اجتماعياً واقتصادياً ، حثيثاً يلازمه تقدم في المجال العلمي الأمر الذي دعم بالكلية إلى الإسهام في هذا الميدان بفتح مجال البحوث العلمية ومحاولة إبراز أعمال العلماء الذين وجهوا اهتماماً خاصاً إلى ليبيا ، وذلك بإفساح المجال لهم للإدلاء في مجلة تصدر في ليبيا وفي متناول يد كل من له شغف بهذا الموضوع .

وتقدر هيئة الكلية في العمل في عدة أبحاث مشتركة بين المدرسين

الوطني والدولي تعالج موضوعات من مظاهر بيئة من البيئة الليبية حتى يمكن أن تبين التنمية الاجتماعية والاقتصادية على أسس علمية سليمة.

لذلك أرجو أن تكون هذه المجلة ملتقى للمهتمين بالشؤون البيئية خاصة والإسلامية عامة .

والمجلة تصدر سنوية «موقتاً» ، ونرجو أن يكون في الوسع اصدار أكثر من عدد في العام .

كما أرجو أن تكون هذه البداية حجر الزاوية في مجال البحوث العلمية في العلوم الإنسانية وأن تسهم في نهضة ليبيا الثقافية التي أرجو دعائمها رامي النهضة العلمية مولانا الملك المعظم حفظه الله .

وكلنا أمل في أن ينتظم صدورها حتى تقوم بدورها في البحث العلمي .

والله ولي التوفيق .

دكتور مختار مصطفى بورو

عميد الكلية

ثوكيديدس

للدكتور ابراهيم نصحي
الأستاذ بكلية الآداب بالجامعة الليبية

لم يكن الاغريق أول من سجلوا أحداث الماضي وان كانوا هم الذين خلقوا التاريخ بالمعنى الذي يفهمه المحدثون ، ولم يكن توكيديدس (Thukydides) أول المؤرخين الاغريق وان كان أول من عبروا تاريخهم المعاصر على الاطلاق . ومدلول كلمة historia الاغريقية كان أصلا البحث في ظواهر الطبيعة . وبين أن هكاتيوس (Hecataeus) الملطي (نسبة إلى مدينة ملطية أو ميليتوس الأيونية على ساحل الأناضول) كان أول من نقل البحث من ميادين الطبيعة بوجه عام إلى ميدان واحد بعينه وهو العالم المأهول : آدابه ومكانه . وكان عمل هكاتيوس — في أواخر القرن السادس وأوائل الخامس قبل الميلاد — مرحلة هامة في القضاء على ما كان مألوفاً عند الاغريق من رواية أحداث الماضي بكل ما تتضمنه من قصص وأساطير وتناقض واضطراب ، وفي نشأة التاريخ الذي يجمع المعلومات الضرورية من أجل العالم ويرويها بعد

عنها وتحريفها قدر المستطاع [1] .

وقد خط هذه الخطوة هيرودوتوس ، وهو الذي اقتفى أثر هكتايوس في تناول الأقاليم والشعوب بالدراسة باعتبار أنها جميعاً تؤلف وحدة واحدة ، غير أن هيرودوتوس وجه جل اهتمامه إلى دراسة الشعوب . ويستهل هيرودوتوس «تاريخه» — وهو يقع في تسعة كتب — بقوله إنه يهدف إلى كتابة تاريخ الصراع بين الآغريق والفرس . وقد مهد لمقدمة هذا الصراع منذ بداية الثورة الأيونية في عام ٥٠٠ — ٤٩٩ ق. م. حتى فشل غزوة اجزركس في عام ٤٨٠ — ٤٧٩ ق. م. باستعراض منشأ الصراع بين الشرق والغرب ووصف قيام الامبراطورية الفارسية وكذلك قيام أكبر دولتين آغريقيتين : أثينا واسبرطة . ومن اليسير على من يتصفح «تاريخ» هيرودوتوس أن يتبين :

أولاً — ان ما كتبه هيرودوتوس بوصفه تاريخاً للصراع بين الآغريق والفرس عبارة في واقع الأمر عن تاريخ الشرق الأدنى .

ثانياً — انه يتخلل هذا التاريخ استطرادات كثيرة قد تطول أحياناً وقد تقصر أحياناً أخرى ، وهي تدور حول وصف البلاد وأهليها .

ثالثاً — انه يتضمن الكثير من المعلومات أو المعتقدات عن الوقائع التاريخية أو الجغرافية التي من الخطأ بوجه عام قبول غير ما كانت معروفة لدى الآغريق عندئذ .

---

(1) راجع :

Powell J., Early Ionian Historians, Ch. 3 (Oxf., pp. 104-5); Chry. M. and Jonathan Life, and Thought in the Greek and Roman World, (n.) p. 396; Rose, H.J. Handbook of Greek Literature, 1956, pp. 284-5; Shotwell, J.T., The Story That Was Greece, 1950, p. 109.

رابعاً ... إن هذا التاريخ يتناول عدداً كبيراً من الموضوعات الشائقة ، ويستمد مادته من مصادر متعددة : وبذلك فهو يجمع بين المعلومات المحققة والمعتقدات الشعبية والروايات المتواترة وأدلة الشهود العيان .

ولا جدال في أن هيرودوتس بذل جهداً في تمحيص ما تناهى إليه من المعلومات ، بدليل أنه كثيراً ما عقبها في تاريخه بقوله « قال لي الذين ذكروا ذلك ولكني لا أصدقه » . وحيثما كان يدقق عليه تبين وجه الحقيقة نجده يقول « ما كنت لا أدري ما قد تكون الحقيقة ، فإني أروي القصة على نحو ما رويت لي » . بيد أنه كان لا يرى مبرراً لهذه الدقة ما يفصل له جملة من التيارات التي كانت تصدر عن مواكب الوحي المعروفة حتى لو كان فحواها يتم بجلاء عن زيفها . ولما كان جزل العبارة غزيراً على الوصف ، فإنه كان أقل قدرة على التفرقة بين الخير والشر من المعلومات في أحيان كثيرة ، وعلى التمثيل الدقيق وعلى فهم كنه الأحداث البشرية وأبعادها في أكثر الأحيان .

ولقد أوجبت سمعة هيرودوتس أن يلبث نتيجة لما طرأ في اللغات الأوروبية الحديثة من تطور على مدلول الكلمات المأخوذة عن الأغريقية على كلمة myrhos . فهذه الكلمة معناها في الأغريقية قصة قد تكون حقيقية وقد لا تكون ؛ أما كلمة myth في اللغات الأوروبية الحديثة فمعناها أسطورة ، وكلمة أسطورة تعني ضمناً قصة غير حقيقية . ولما كان « تاريخ » هيرودوتس يتضمن قصصاً كثيرة ، لقد وصف هذا التاريخ بأنه عشر بالأساطير ، ووصف هيرودوتس بأنه مازح أو كاذب ؛ أو رؤية ثرثار تغلبه الأمل في أن يمتع قراءه أو سامعيه بالمبهرة فصلها التي حصل بها أولئك الذين استمد منهم معلوماته . بيد أنه من الإنصاف لهيرودوتس أن نسجل أن البحث الحديث قد أثبت أن

القيمة التاريخية للمعلومات ، تاريخاً لغلط ، لا من كتاب إلى كتاب فحسب بل من فقرة إلى فقرة وجملة إلى جملة بل من سطر إلى سطر ، ولذلك فان الحكم على هذا التاريخ يكون ضرباً من المجازفة غير المقبولة علمياً .

ولعله من أخطر ما يؤخذ على هيرودوتوس ميله إلى تفسير الأحداث بعاملين رئيسيين ، أحدهما العواطف والرغبات الشخصية وبوجه خاص دور المرأة ، والآخر الارادة الإلهية ، أو بكلا العاملين معاً حتى ليبدو على حد قول البعض وكأنه قد جعل شعاره : ابحث عن المرأة ولا تغفل الله (Cherchez la femme et n'oubliez pas le dieu) غير أنه تجب الإشارة هنا إلى أن كثرة الأبحاث هيرودوتوس إلى تفسير الأحداث بعاملي الآلهة في تقرير مصائر البشر يعكس بجلاء النظرة الاغريقية إلى حياة الناس ، فقد كانوا يعتبرون مصائر الأفراد والجماعات مجالاً لتحقيق العدل الإلهي . والإرادة الإلهية في نظرهم دائبة العمل سواء للانتقام من أولئك قدراً وليراً من الحظ السعيد والرفاهية البالغة فتلكهم الغرور والصلف ، أم لتحقيق العدالة الأبدية بمعاقبة المسيئين على ما ارتكبوا من شرور وآثام . وان هذه المعتقدات التي طالما في كل العصور لتحتل مكاناً بارزاً في تاريخ هيرودوتوس بمثل المكان الذي تحتله في التراجيديا الاغريقية . وقصة كل من كرويسوس وبوليقراطس وقمبيز وإكسيلاوس الثالث ومتوقد شرارة حل نحو ما أوردها هيرودوتوس خير مثل على ذلك .

ومن الواضح أن هيرودوتوس اتخذ من كتابة التاريخ حل هذا السر وسيلة لبث قواعد الأخلاق الفاضلة ، ولذلك فانه يجوز اتهام هيرودوتوس بتحريف الحقائق حتماً ليخرج منها بمغزى خلقي ويجعلها مشوقة والعمل أثراً في النفس . وبطبيعة الحال ليس هذا الضرب من التأليف تاريخاً ،

فالمؤرخ يجب أن يتحرى الدقة قبل كل شيء ، وأن يتجنب التحيز بالتعصب ، وإذا كان له أن يفسرها كما يشاء له . بيد أنه إذا كان « تاريخ » هيرودوت يتضمن الكثير مما لا يمكن اعتباره تاريخاً جديراً ، فإنه ليس معنى ذلك أنه يمكن اعتبار كل هذا التاريخ غير جدي ، بل يجب أن نحكم على كل نصه بل كل عبارة فيه وفقاً لقيمتها الذاتية (١) .

وجملة القول إن هيرودوتوس كان كاتباً موهوباً ، واسع الأفق ، ذكي الفؤاد ، طلي الروح ، شغوفاً بتسجيل الطريف والغريب ، بارعاً في الوصف ، قديراً على صياغة ما يسمعه من القصص بأسلوب عذب فياض يستأثر بانتباه السامع ويستعوذ عليه ويترع منه الإعجاب انتزاعاً ، لكن هيرودوتوس لم يزد قارئه كاتباً عن العناية بل دقة التفاصيل وتواريخ الأحداث وتحليل الأخبار ونقدها والتفرقة بين الحقائق والأساطير . وبرغم ذلك كله فإنه خليق بمكان مأمون في تاريخ الإنسان والحضارة : فهو كما يسميه شيشرون « أبو التاريخ » (٢) ، لأنه أول من عالج التاريخ لا بوصفه مجموعة حكايات شائقة عن الآلهة والبشر وإنما بوصفه موضوع بحث علمي ، ولأنه هو الذي خلق فلسفة التاريخ ، وإن كانت فلسفته بدائية ترجع أسبابه للأحداث لبساطة بين أواسط الناس في عصره .

* * *

(١) راجع

Godley, A. D., Herodotus. Loeb Class. Lib. 1946-7, Introd; Myres, J. L., Herodotus, Father of History, 1955, pp. 3-10; Meyer, Herodotus und Thukydides, C.A.H. vol. V, 1962, pp. 458 ff. (Bibl. pp. 604-11); Bonnard, A., Greek civilization, trans. by A. [illegible] 1960, pp. 150 ff.; Finley, M.I., The Greek Historians, pp. 1-31; Wagner, R., Order and History, II, 1957, pp. 21 ff., and G. Grote, History, Vol. IV.

(٢) Cicero, De legibus, I, 5, 5.

وحين كان هيرودوتوس العجوز يصقل «تاريخه» ، كان العالم الإغريقي يستقبل عصراً جديداً من المسرح يخلب لبّ المرء ويؤخذ فيه روح ذلك العصر الذي اختبر فيه الفكر إلى حد أن كل مواطن أثيني كان يستطيع القراءة والكتابة ، وبلغت فيه الثقافة مستوى لم يعرفه العالم القديم من قبل . والواقع أن فجوة واسعة كانت تفصل هيرودوتوس عن الجيل الذي يلتف حول بريكلس — في فجوة أحدثها الثقافة التي نشرها أعلام السفسطائيين . ويرغم أن الأعيد التكسجوراس وبروتاجوراس كانوا يقيمون تماماً واسعاً في معاصريهم وأعمالهم ، فإنه كان يجمعهم مبدأ مشترك يقول بأن التفكير يجب أن يكون جلياً واضحاً وأن قوة العقل هي أسمى القوى وأعظمها أثراً . ومن ثم فإنه إذا لم تكن تفصل إلا سنوات قلائل بين اليوم الذي انتهى فيه هيرودوتوس من تصنيف «تاريخه» واليوم الذي بدأ فيه توكيديدس كتابة «تاريخه» ، فإن هناك فارقاً هائلاً وبوناً شاسعاً بين طبيعة المؤرخين سواء في طريقة التفكير وفي طريقة كتابة التاريخ [1] . فلا شك أن المؤرخ الأثيني توكيديدس كان من بين آباء «الجيل الجديد» الذين تأثروا إلى حد كبير بالأفكار الجديدة من أعلام عصرهم .

وقد وصلت إلينا من العصور القديمة ثلاثة تواريخ لحياة توكيديدس[2] ويتوقف النظر على القول أن هذه التواريخ تتضارب مع بعضها بعضاً حول تفاصيل حياة مؤرخنا ، فهي لا تنتهي عادة إلا حيثما تعتمد على ما أورده توكيديدس من إشارات عابرة عن شخصه في مؤلفه . ويمكن الحصول على معلومات إضافية عن حياة توكيديدس من مقالات متفرقة

1 Harris, G., History of Greek Literature, p. 376.

2 يعول أحد هذه التواريخ إلى أن توكيديدس قد كان ابن [illegible] ، وأن أمه [illegible] . ويفيد أن توكيديدس كان يبلغ من العمر [illegible] وأن تاريخ [illegible] وأن [illegible] توكيديدس كان يبلغ من العمر [illegible] وأن [illegible] سنة .

في كتب عدد من الكتاب القدماء المتأخرين مثل ديونيسيوس الهليكرناسي [1] وبلوتارخ [2] وبوسانياس [3] . ومع ذلك فانه ليست لدينا حقائق يمكن الوثوق بها عن حياة توكيديدس بالاً القليل الذي نستمده من مؤلفه حيث يقول انه ان اولورس (Olorus) [4] ، وانه بدأ في جمع المادة اللازمة لذلك عند بداية الحرب البلوبونيزية [5] ، وانه عاش طوال الحرب متتبعاً هواها بعناية شديدة ليتسنى له الحصول على معلومات دقيقة وكان لديه من المال ما مكنه من تكوين آراء ناضجة [6] ، وانه مرض بالطاعون [7] (وهو الذي اجتاح اثينا في عام ٤٣٠ ق. م.) ، وانه كان أحد القائدين الذين انتخبهم الأثينيون لقيادة حملة في ثراقيا [8] — حيث كان لديه نفوذ يسمح باستغلال بعض مناجم الذهب هناك [9] — لكنه فشل في انقاذ مدينة أمفيبوليس من الوقوع في قبضة القائد الأسبرطي برسيداس [10] ، فقرر الأثينيون نفي توكيديدس (في عام ٤٢٤ ق. م.) وبقي في المنفى عشرين عاماً وبذلك أتيحت له فرصة الوقوف على كافة أسرار الفريقين المتحاربين [11] .

أما بالنسبة لمعلوماتنا عن توكيديدس فانها تعتمد إلى حد كبير على الاستنباط ؛ وإذا كان بعضها يكاد أن يكون مؤكداً فان الأمر ليس كذلك في بعض الأحيان الأخر . ويبين ما كتبه مركيلينوس [12] أمراً يبدو مختلقاً وهو أن قرار نفي توكيديدس كان بناء على اقتراح كليون وكان عدائه في أوج عظمته وقوته بوصفه من أنصاب الساسة الأثينيين . ويحمل كذلك أن التهمة التي وجهت اليه كانت الخيانة على نحو ما يذكر

---

(1) Dion. Hal. De Thucyd. Historia Judicium; Ep. Second Letter to Ammaeus (Ep. Amm.).

(2) Plut., Cimonem, IV.

(3) Pausan. I, 1, 23.

(4) IV, 104, 4

(5) I, 1, 1

(6) V, 26, 1.

(7) II, 48, 3.

(8) IV, 104, 4

(9) IV, 105, 1

(10) IV, 106.

(11) V, 26, 5.

(12) § 45

مركيوس [1] والفقيه الذي كتب تاريخ حياة توكيديدس ولا نعرف اسمه [2] ، وهو ما يبدو أنه تم عنه عبارة ديونوفانس في رواية «الرابير» [3] . ولم يوفق أحد مرة عند أحد من الباحثين المحدثين إلى إخلاص توكيديدس لوطنه ، لكنه ما أصر ما كانت التهم بكل جرأة في أثينا ولا سيما تلك التي يرويها الوطنيون ! والواقع أن فشل توكيديدس في انقاذ أمفيبوليس حتم أن يحصل تبعة الأثينيون أنفسهم لأنهم بدلاً من أخذ ترضيات كانوا يتداولون عن ثرائها أمام تحركات قائد في مثل براعة بروسيداس — وكان أشهر القواد الأسبرطيين — شغلوا بشؤون حماة غير موثقة عند يونيا [4] . ولما كان توكيديدس يشرك أن مواطنيه سيركبون رؤوسهم تحاشيهم كلما أصابهم هزة ويتولون تقديمهم بالعناد دون تحري الأسباب الحقيقية ، عاد آثار عام فيرة لوطنه . وعندما قرر الأثينيون عن توكيديدس لم يزد على إثبات هذا القرار في تاريخه دون أن يتوقف عنده ليدفع عن نفسه أو مؤاخذة المسؤولين عما حدث . ويبدو أنه لا مصدر هذا القرار ضمن توكيديدس جانباً كبيراً من وقته في التنقل من مكان إلى آخر سعياً وراء جمع المعلومات عن سير الحرب . ومعرفته الوثيقة بالأماكن التي يصفها في أثناء الحديث عن حملة سيتلية تدعو بأن عليه استيرة كتب عن الأماكن التي زارها [5] . وبعدئذ باوسانياس بأن قرار استعداد توكيديدس من المنفى كان بتدخل الأخير الذي تشم به الوطنيون الأثينيون لوفيوس [6] ، ويرجح أن كان ابن توكيديدس رسل توكيديدس في عهده حملة ثراثيا (عام ٤٢٤) [7] .

---

(1) ; 39 (2) 2.2 (3) Anon. Vita 84

(4) Kiess, Hist. of Greece, trans. p. 220; Vaucher, op. cit., p. 348

(5) Shuckl. History of History, Oct. Cr. Trans. p. 186; Rich, Handbook of Greek Literature, 1848 p. 384.

(6) Paus. I, 23.5

(7) Livius, Cor. Thucydides, Loeb Cl. Lib. vol. I, 1919, p. 7.

وقد كان اسم والد توكيديدس قاتل اسم أمير تراقي كان يدعى أيضاً اولوروس ، وكانت هجسيبولي (Hegesipyle) ابنة هذا الأمير قد تزوجت الزعيم الأثيني المشهور ميلتيادس والد الزعيم الأثيني كيمون ، وعلى هذا يلوح بأن شهرة توكيديدس كانت توجد في إحدى نواحي أثينا بالقرب من مقبرتي ملتين الزعيمين [1] . وإذا صح ما يرويه مركيلوس من أن والدة توكيديدس كانت تدعى هجسيبولي على والدة كيمون ، ومن أن أسرة توكيديدس كان لها مناجم ذهب [2] بمكان هرلي (Scapte Hyle) بتراقيا [3] — ويؤكد ذلك ما يرويه مؤرخنا من أنه يتوجع عن استغلال بعض مناجم الذهب في تراقيا — فانه لا يبعد أن والد توكيديدس كان أحد أقارب صهر الأمير التراقي اولوروس وأن توكيديدس كان من ذوي قربى كيمون وإن كان أصغر من هذا الزعيم بجيل من جيل [4] . وإذا كنا لا نستبين من عبارات بلوتارخ البهمة [5] على ورث توكيديدس لمناجم تراقية : فان مركيلوس يقول صراحة بأنها كانت ملكاً لزوجته [6] .

وتضارب مصادرنا حول تاريخ ميلاد توكيديدس ، ذلك أن مركيلوس يقول إنه عندما توفي توكيديدس كان قد نيف على الخمسين من عمره [7] . وهذا لا يتفق مع ما أورده اولوس جليوس [8] (Aulus Gellius) نقلاً عن سيدة تدعى بمفيلا عاشت في عصر نيرون (٥٤ — ٦٨ م) وشغفت بالقراءة والبحث ودونت ثمار قراءتها فجمعت قدراً كبيراً من المعلومات ونشرتها (Symmikta historika hypomnemata) وقد نقل اولوس جليوس عن بامفيلا أنه عند بداية الحرب البلوبونيزية

(1) Plut., Cim., IV.
(2) Diod., XII, 70.
(3) Diod., Cim., IV. (5) Marcell., 19 (6) Marcell., 24.
(4) A. Gell., Noctes Atticae, XV, 23.

كان انوح الوبيني هلازقوس يبلغ الخامسة والستين من عمره، وهيرونوس الخامسة والخمسين وثوكيديدس الأربعين . ومعنى ذلك أن يكون ثوكيديدس قد تجاوز الثلاثين عند وفاته . ولا يساعد على ترجيح أحد هذين المقدارين على الآخر ما يرويه ثوكيديدس نفسه من أنه بدأ في جمع مادة تاريخه منذ بداية الحرب ، وكان له من السن ما يمكنه من تكوين آراء ناضجة . وإذا ذهبنا نرى بعض الباحثين أن ثوكيديدس ولد حوالي عام ٤٦٠ ق. م. على حين أن البعض الآخر يرد أنه ولد حوالي عام ٤٧٠ . والواقع أنه من العسير أن نجد معلومات كافية تفصل أحد هذين الرأيين على الآخر .

وتوحي لنا بعض القرائن أن ثوكيديدس توفي فجأة ، ويبدو أن بوادر ذلك الانتهاء المفاجئ قد ظهرت على نحو ما ستتبينه فيما بعد ، ولا يُعرف على وجه اليقين إذا كان ثوكيديدس قد صرعه المرض أو أن يد القدر قد عاجلته بالقتل . فقد أن يلوح عند بلوتارخ في مكان ما[1] ، بينما يقول بوسانياس أنه قتل في أثناء الرحلة إلى أيليا[2] ، على حين أن مركيلينوس يقول إنه توفي عقب عودته من المنفى وفي أثينا[3] حيث دفن[4] . ولعل هذا هو الأرجح بدليل قولنا إنه بدأ أعماله بعد المنفى بعد عام ٤٠٤ ق. م. وسواء ألقى ثوكيديدس ربه قتيلاً أم موتاً طبيعياً ، وسواء أجابت تلك في تراقيا أم في أثينا أم في الطريق إليها ، فإن قوله «إني قضيت من وقتي خمسة عشر عاماً بعد ما ولت الإمارة لي ثوكيديدس»[5] يدل على أنه عمّر في ما بعد انتهاء مدة نفيه . وكل ما يمكن الذهاب إليه دون شطط

---

(1) I, 23 (2) V, 26, 5

(3) Phil. Obs., IV (4) Plut. I, 23, 3 (5) Marcel. 30.

(6) M. Cary, Thucydides, 3rd ed., Introd. p. XXXII.

(7) V, 26, 5.

في هذا الصدد هو أن توكيديدس توفي حوالي عام ٤٠٠ ق. م.[1].

ولا نعرف شيئاً عن توكيديدس في حياته إلا القصة الطريفة التي رددها كثير من الكتاب القدماء[2]، ومحورها أن توكيديدس عندما كان لا يزال صبياً وسمع هيرودوتوس وهو يتلو على الناس جزءاً من تاريخه في أولمبيا أثار ما سمع إلى حد أنه بكى لفرط تأثره، وعندئذ قال هيرودوتوس غاضباً والد توكيديدس: «أولوروس أن عقل ابنك يناسج حب المعرفة». بيد أن لوكيانوس لا يشير إلى ذلك وهو يصف ما كان لقراءة هيرودوتوس في أولمبيا من أثر قوي في الناس[3]. وعلى كل حال فإنه إذا كان توكيديدس لم يستمع إلى هيرودوتوس في أولمبيا، فلابد من أن يكون قد عرفه فيما بعد في أثينا. وأما فترة شباب توكيديدس وصدر رجولته فقد كانت معاصرة للوقت الذي كانت فيه أثينا وفيرة الغنى في عطاء الرجال من أمثال بريكلس وبروتاجوراس وسوفوكليس وبوريبيدس وفيدياس وأريستوفانس، والخطيب أنتيفون، والفنانين فيدياس وبوليجنوتوس وكيمون وكاليكراتس. ولا جدال في أن الحياة في مدينة تزخر بكل هؤلاء الأعلام، والاقتراب من أثار على هذه القرائح الوقادة: هي ما يفسر نضوج عبقرية توكيديدس وازدهارها. وإزاء وجود بعض وجوه الشبه بين أسلوب توكيديدس وأسلوب أنتيفون قيل إن توكيديدس تلمذ على هذا الخطيب الشهير، وهو الذي أشاد مؤرخنا في تاريخه بقدرته الخطابية، كما قيل أيضاً أن توكيديدس درس الفلسفة على أنكساجوراس[4].

ولا أدل على مكانة توكيديدس عند القدماء من قول لوكيانوس إن

---

(1) Cf. Christ-Schmidt, Gesch. gr. Literatur, I, pp. 481-2 and n. 3; Croiset, op. cit., p. 34.

(2) Suidas s.v. Thukydides; Photius, Bibl., 83; Marcel., 54.

(3) Lucian, Herod., 1. (4) Marcel., 22; Plut., Oral., 833 F.

ديونيسيوس هل لهذا يأتي تاريخ ثوكيديدس ثانياً مرتبة ؟ ، فلا عجب أن قد حاول تقليده والنقل عنه كثيرون من المؤرخين المتأخرين مثل ديودور كاسيوس وفليستوس وبلوتارخوس وديودوكوبيوس وأكيتوس بكوبنيوالوس. وأما عجاب الحلفين بثوكيديدس فإنه لا حد له وحسبنا أن مكيافلي كان يجعله أعظم المؤرخين على الإطلاق ، وأن جوته صرح مرات عديدة بأنه لم يقل بأنه قرأ وأعاد النظر في مؤلفاته ثمانية أو تسعة أعوام على الأقل في أثناء حياته كلها ؟ .

* * *

والآن سنتناول أولاً في إيجاز الموضوعات التي تناولها ثوكيديدس في تاريخه ، قبل أن ننتقل إلى الحديث عن طريقته في التأليف ومنهجه في البحث والمصادر التي استمد منها معلوماته ، وأخيراً صفاته وميزاته ثم نرجئ ذلك جميعاً بعض حين .

وثوكيديدس في مستهل تاريخه لحرب البلوبونيز يذكر أن الحرب الفعلية التي اشتركت فيها أثينا وحلفاؤها من ناحية ، وأسبرطة وأغلب أهل البلوبونيز (شبه جزيرة المورة) وحلفاؤهم من ناحية أخرى ، وبين ثم كان عهد الحرب ثلاثة أقسام كل قسم الأغريقي تقريباً ، بل إن الفرس أنفسهم فيها إسهاماً كبيراً له أثره في سيرها بعد أن مضت سبعة وعشرين عاماً ومنذ عام ٤٣١ حتى عام ٤٠٤ ق. م.). وقد استهل مؤرخنا مؤلفه بقوله وإن ثوكيديدس الأثيني كتب تاريخ الحرب التي اشتبك فيها البلوبونيزيون مع الأثينيين ، وإنه بدأ عمله حين بدأت الحرب مباشرة لاعتقاده أن هذه الحرب ستكون أعظم من أي حرب سابقة

---

(1) Marcus, Abbr. Thucyd., xxx.

(2) Smith, op. cit., pp. XV, XVI.

واعتقد بأن الفريقين كانا في أوج قوتيهما الحربية ولا يقل الاخرين أن يقفوا عاجزين عن الصراع دون الانضمام إلى جانب أو آخر ؛ ذلك أنه لم يسبق لأية حركة ، كما أثارت عواطف الاغريق إلى هذا الحد ، بل إنه قد شاركهم في ذلك كثير من الأجانب . ويمكن القول بأن آثار هذه الحرب قد امتدت إلى العالم أجمع . وبسبب انقضاء الزمن لا يمكن الجزم بطابع الأحداث التي سبقت هذه الحرب سواء مباشرة أو بأمد بعيد ، لكنه استناداً إلى الأدلة التي في وسعي الوثوق بها بعد الامعان في فحصها يبدو لي أن الفترة القادمة لم تكن حافلة بالحوادث في حروبها أو في أية ناحية أخرى من نواحيها . »[1]

وبعد أن يقدم توكيديدس لتاريخ الحرب البلوبونيزية بمقدمة موجزة لتاريخ بلاد الاغريق منذ عصر منوس ملك كريت حتى الحروب الفارسية[2] ، يتخذ منهجاً ليتفق منهج المؤرخين السابقين ، ومن بينهم بطبيعة الحال هيرودوتس ، دون أن يذكر اسم واحد من أولئك المؤرخين ، وهم الذين يلحظ عليهم أنهم لا يفرقون بين الحق والباطل ويميلون كثيراً إلى تصديق الروايات المتداولة سواء عن أوطانهم أو عن الأوطان الأخرى دون تمحيصها أو الاعتماد على أدلة . الأدلة الملكة للوصول إلى نتائج يستريح لها العقل . ومرد ذلك إن أنهم يستهدفون تسلية القارئ بأكثر ما تفيده ، كما هو شأن كل من يتحرى الحقيقة تحرياً دقيقاً ليدون قصة صادقة فلا تضرب السمعين ولكنها ترضي اليقين من صورة صحيحة لأحداث وقعت في الماضي وستتكرر في المستقبل ؛ وتكون هذه القصة تراثاً خالداً يفيد منه الناس جيلاً بعد جيل : لا قصة طريفة تسمع ثم تنسى[3] . وكأنه قد تمثل بقول هيرودوتس : « أما الذي فيذهب

---

(1) 1. 1.

(2) 1. 2 — 19.

(3) 1. 22 — 23.

جنده ولم يدع الماء فيمكث في الأرض . »

ويعد أن يعرض توكيديدس على هذا النحو منهجه في البحث وتحريه من تحري الحقيقة ، يتناول أسباب الحرب ويفرق بين سببها الخفي وبين المنازعات التي أفضت إليها مباشرة [1] ، ثم يسطره أن وصف هو غرضه فيما أنتى إليه فقد من إشاعة الجزع بين خصومها [2] . ويمضي في تحليل آثار ذلك في كتابه الأول وهو الذي ينتهي عند تعليل العلاقات الدبلوماسية بين الفريقين [3] .

ويتناول كتب الثاني والثالث والرابع وجزء من الخامس قصة الحرب في مرحلتها الأولى : وهي التي امتدت حتى سنة ٤٢١ والتي تنتهي بصلح نيكياس (Nicias) في عام ٤٢١ ق. م. وموال هذه المرحلة كانت خطة اسبرطة : وهي أقوى دولة البرية برية ، مقصورة على غزو أتيكا وقت المحصول في كل عام والمقام بإزائها لإرغام الأثينيين على الاستسلام في سنة برية واحدة ؛ وعادة يدور الشتاء بين وقائع الأسبوع الأثينية . وأما خطة أثينا ، وهي أقوى دولة البحرية بحرية ، فإنها كانت تقضي بتجنب الاشتباك براً مع الأسبرطيين والاقتناع بأي عصيان سبي وحاولوا دون موقعة برية حتى يجد للسيطرة على طرق التجارة البرية وتخريب شواطئ البلوبونيز .

وفي بداية الكتاب الخامس يصف توكيديدس الفترة التي أعقبت صلح نيكياس وما سادها من قلق واضطراب وما قام به الفريقان في خلالها تمهيداً للاستئناف القتال . وفي الكتاب السادس والسابع يروي مؤرخنا قصة الحملة الكبرى التي أنفذها الأثينيون إلى صقلية في عام ٤١٥ ق. م.

---

[1] I, 23 — 66.
[2] I, 20-22.
[3] I, 118 — 146.

اعتقاداً منهم أن أسبرطة لا تظهر في بلاد الإغريق وأن النصر الحاسم لا يحرز إلا بالسيطرة المطلقة على البحار . ومن أجل هذا كان يجب دمج المدن الإغريقية في بيلوبونيز وصقلية في الإمبراطورية الأثينية . وبذلك تتفق في وجوه البيلوبونيزيين كافة الأسواق ويحرمون المورد الرئيسي الذي كانوا يحصلون منه على الفضة . وتوكيديدس يعطينا صورة حية لهيئة أسطولة أثينا وما بُني عليها من آمال كبار وما صاحبها من ملابسات البهجة وعدم الكفاية وخيبة الرجاء . ثم أتى إلى هزيمتها هزيمة منكرة في قلب وفي البحر على السواء في عام ٤١٣ ق. م. وإلى بدء الفلس والاضطراب في نفوس الأثينيين .

وفي الكتاب الثامن — وهو بوجه الإجمال أخير من تاريخ الحرب البلوبونيزية — يشرح توكيديدس الآثار التي ترتبت على هزيمة أثينا في صقلية وأحدثت الثورة التي نشبت في أثينا في عام ٤١١ ق. م. وجزءاً من حرب دكليا . ولم يتمكن القدر ليتم تاريخ الحرب منذ عام ٤١١ حتى نهايتها في عام ٤٠٤ ق. م. ، بل ليتم الجملة الأخيرة في الكتاب الثامن ، فلا صحب أنه قيل إن توكيديدس توفي والقلم في يده[1] . وهذا يفسر السبب في أن مستوى الكتاب الثامن دون مستوى الكتب السبعة الأولى . لأن الأجل لم يمهله ليراجع حتى يراجع الكتاب الثامن ويصقله .

ومنذ العصور القديمة ثار الجدل حول مؤلف الكتاب الثامن . وقد قال توكيديدس الرد على ذلك بالفقرة التالية : ويزعم البعض أن الكتاب الثامن مزيف وليس من تأليف توكيديدس ، ويذهب البعض إلى أنه من تأليف ابنته عن حين يقول البعض الآخر إنه من تأليف الجزئيين

---

[1] Stobaeus, op. cit., p. 186.

(Xenophon) [1] . وردًا على هذه المزاعم نقول إنه من الواضح أن ليس من تأليف ابنه لأنه ليس في مقدور المرأة أن ترقى بأي حال إلى المستوى الفني الرفيع . ولو أنها كانت موهوبة إلى هذا الحد لما كفت بإخفاء شخصيتها ولما اكتفت بتأليف الكتاب الثامن وتركت مؤلفات أخرى كثيرة تكشف عن جنسها . ويدحض الأسلوب دليلاً ناطقاً مفروغاً على أن الكتاب الثامن ليس من تأليف أجزفون فالأول شاسع بين الأسلوب الوسيط والأسلوب الرفيع . وهو ليس كذلك من عمل تيوبومبوس (Theopompus) كما يزعم البعض ، لأنه فيما يبدو ولاسيما في رأي الراسخين في العلم أنه من تأليف توكيديدس نفسه لكنه لم يُراجع ويُنقح إذ أنه عبارة عن مسودة وبه أجزاء كثيرة مجملة وكان يمكن تسبيك والإضافة إليه ، ولذلك يمكن القول بأن المرض وكذلك لأنه فيما يبدو كتب وهو مريض . وعادة عندما يعتور الجسم وهن تضعف كذلك القدرة على التفكير » [2] .

ويسود الرأي اليوم بأن الكتاب الثامن من تأليف توكيديدس لأن هذا الكتاب يتسم بكل الخصائص التي تتسم بها الكتب الستة الأولى بما في ذلك عدم استخدام الخطب لتصوير الأحداث أو الآراء أو المشاعر

---

[1] كان إكزينوفون مؤرخاً أيضاً ، وله في ذلك الأسبوع القرن الخامس وحتى إلى عام ٣٥٤ ق.م. وكتب فيما كتب تاريخ الأغريق (Hellenica) مستهلاً حيث توقف توكيديدس أو بالرقم من ذلك فإن تاريخه لا يرقى إلى مستوى تاريخ توكيديدس أو هيرودوت . ويتناول أولها القطر الأخير من الحرب البلوبونيزية وحتى وفاة ساحبه تقلب توكيديدس بينما تركز الأجزاء الأخرى على الوصف والتحليل . أما الجزء الثاني فقد يكون نتاجاً مختلفاً عن النوع المعروف عن صاحبه .

[2] ... تاريخ توكيديدس في سيسيليا ... عام ... في ... في دراسة قام أنشأها إيفور ط في ... بإنجلترا ... ومن بين مؤلفاته تاريخ الأغريق (Hellenic History) ... تاريخ توكيديدس منذ عام ٤١١ حتى موقعة كنيدوس في عام ٣٩٤ ق.م. وقد لا يرقى إلى مستوى .

[3] Burch, op. cit., IV, pp. xxvii-

على نحو ما سنتبينه فيما بعد ، بيد أن القدر لم يمهل توكيديدس لكي يجمع الكتاب الثامن ويدخل عليه من التعديلات والتحسينات ما يضعه في مستوى الكتب الأخرى [1] .

ويبدو أن جميع ما كتبه توكيديدس عن الحرب البلوبونيزية إلى نهاية كتب على نحو ما نعرفه اليوم كان من عمل علماء الاسكندرية في العصر الهيليني . أما في الأصل فإن الكتاب كان يتألف من خمسة أجزاء وهي : (أ) المقدمة وهي التي أصبحت تؤلف الكتاب الأول ؛ (ب) الجزء الذي يتناول السنوات العشر الأولى من الحرب وهو ما يتكون منه الكتاب الثاني والثالث والرابع وكذلك الخامس حتى نهاية الفصل الخامس والعشرين ؛ (جـ) الجزء الذي يعالج الفترة منذ عقد صلح نيقياس حتى حملة صقلية ، وهذا يؤلف باقي الكتاب الخامس ؛ (د) وصف حملة صقلية ، وهو ما يتكون منه الكتابان السادس والسابع ؛ (هـ) وصف نتائج هزيمة أثينا في صقلية وأحداث ثورة ٤١١ في أثينا وجزء من حرب دكيليه ، وهو ما يتكون منه الكتاب الثامن .

وقد اختلفت آراء الباحثين حول الطريقة التي نهجها توكيديدس في تأليف تاريخه [2] . ولعل أدنى هذه الآراء إلى الصحة هو أن توكيديدس أخذ منذ بداية الحرب يجمع معلومات وافية ويسجل ما يعن له من آراء ثم انتهز فرصة الهدوء النسبي الذي أعقب صلح نيقياس في عام ٤٢١ ليكتب المسودة الأولى لتاريخ الحرب في عشرها الأولى . وعندما استأنفت الحرب بحملة صقلية عاود توكيديدس فرجته في التأليف من حيث جمع المادة وتدوين الآراء في أثناء القتال ، واستمر على ذلك إلى

---

(1) Smith, op. cit. pp. 167-8.

(2) Rosillo, Thucydide et Thucydidienne A.Colin, Paris, 1967, P. 11 ff.

إن وضعت الحرب أوزارها ثم راجع ما كتبه عن الفترة الأولى من الحرب ؛ فقد فاته الكثير من أموره المتأخرة في المشكلة التي درسها . وسنشير إلى ذلك فيما بعد كلما عرضت مناسبة . وحسبنا هنا للتدليل على هذه الإضافات في أثناء المراجعة ذكر بعض الأمثلة التي تنم عن الاهتمام بعد هزيمة أثينا في النهاية . ويتضح ذلك بجلاء مثلاً في الفصل الخامس والستين من الكتاب الثاني حيث يشيد بزعامة بريكلس وبأسد نظره وسكينة سياسته لتحقيق النصر في الحرب ، بالتزام خطة دفاعية مع العناية بشؤون الأسطول وتجنب السعي وراء بسط سيطرة أثينا في أثناء الحرب أو الاهتمام على أي عمل يكون من شأنه تعريض كيان الدولة للمخاطر ، بيد أنه عندما تقفي بريكلس نحبه عرب الأثينيون بكل ذلك عرض الحائط تحت تأثير زعماء عرجت سيطرت عليهم الأطماع الشخصية فقادوا وعلى رأسهم وحلفاءهم إلى الهلكة [1] . وأشارات توكيديدس التمهيدية في الكتاب الرابع [2] إلى الحملة الأثينية الكبرى ضد سيسلية مثل آخر لما أضافه مؤرخنا إلى مسوده عندما انصب في مراجعتها بعد انتهاء الحرب .

ومن الواضح كذلك أنه في أثناء المراجعة أضاف إلى خاتمة الفصل الخامس والعشرين من الكتاب الخامس تلك الفقرة التي تروي كيف أنه لم يكن مقدراً لصلح نيقياس أن يدوم لعدم رضاء الطرفين عن ذلك الصلح مما أفضى إلى نشوب الحرب ثانية بعد ست سنوات وعشرة شهور من توقيع عقد الصلح [3] . وبعد ذلك استأنف توكيديدس الكتابة من حيث توقف مبتدئاً بالفصل السادس والعشرين من الكتاب الخامس . والدليل على ذلك أنه استهل هذا الفصل بقوله :

---

١ ـ راجع الكتاب الثاني ، الفصل ٦٥ ، وبريكلس هنا كما في الفقرات ٦٠ وما بعدها .

٢ ـ IV, 65-65.

٣ ـ V, 25, 3.

« ثوكيديدس الأثيني نفسه استمر في تاريخ الحرب حتى سقوط الامبراطورية الأثينية واستيلاء الأسبرطيين وحلفائهم على پيرايوس والأسوار الطويلة ... مستعملاً الأعداد حسب ترتيبها الزمني الذي أرخه بفصلي الصيف والشتاء في كل عام . »[1] ويعتبر البعض هذه العبارة بذاتها دليلاً على أنه كان في نية ثوكيديدس اعتبار تاريخ الحرب البلوپونيزية في جزءين ثم غير رأيه[2] . بيد أنه لو كان هذا الرأي صحيحاً لاختلف مؤرخنا هذه الجملة عندما استقر رأيه على اعتبار هذا التاريخ في جزء واحد . ولعل الأدنى إلى الحقيقة هو أن ثوكيديدس لم يقصد بهذه المقدمة إلا توكيد فكرته بأنه وقد شهد بنفسه الحرب من أولها إلى آخرها ، واستأنف كتابة تاريخها بعد توقفه عن ذلك عندما استعرت نيران القتال ثانية ، يعتقد أن هذه الحرب ، برغم تعدد مبادئها وطول مهدها وما تخلل ذلك من فترة هدوء نسبي عقب صلح نيقياس ، لم تكن إلا حرباً متصلة ، وأن في ذلك الفترة التي أعقبت الصلح ، فهي وإن خمد القتال فيها لم تخمد المنازعات أو تزل الأحقاد أو يسترد كل فريق كافة الأماكن التي فقدت شروط الصلح بردها إلى أربابها[3] .

---

[1] وهذا المؤرخ ، بعبارة ليسانورس ، « الفصل العاشر ، وانتهت حتى الأعداد في أوائل عام ٤٠١ ق. م. وكانت « الأسوار الطويلة » هناك قد أكملت ، فسقطت بيرايوس ، وأصبح الفرد الفارس ق. م. بين أثينا وحلفائها قادرة ، وبيرايوس خاصاً لحفاظ على اتصال أثينا بالبحر ، وإذا كان ثوكيديدس قد عاش حتى ٤٠١ ق. م. ، فإن تعداد الحرب البلوپونيزية سيكون قد انتهى عند هذا التاريخ ، وإن الحصول في كل عام كان الأهالي يتسببون إلى داخل الأسوار لطيلة ويتقلون بعضاً بعضين على الدول التي كانت تابعة لهم » .

[2] V, 20.1.

[3] راجع :

Ullrich, F.W., Beiträge zur Erklärung des Thukydides

[4] وقد كان تاريخ أشهر من ذاتي هذا الرأي وتبعه في ذلك بعض الباحثين .

V, 20; 21; 26; 26.5; 39

مؤرخنا أنه سمع بنفسه بعضها واستقى معلوماته عن الجنس الآخر عن سمعوها[1] ، ثم يمضي فيقول إنه لم يصف شيئاً لم يره بنفسه أو يعرف خبره من مصادر مختلفة وتحققه تحقيقاً دقيقاً[2] . وهو ينبهنا إلى أن ذلك كان عملاً شاقاً لأن الذين شاهدوا حادثاً بعينه كانوا يختلفون فيما بينهم في رواية ما شهدوه تبعاً لمقدار ما تذكروه أو مقدار ميلهم لناحية أو أخرى[3] : لكنه قلما يفصح عن مصادر معلوماته التي يؤكد لنا أنه محصها تمحيصاً دقيقاً . ومن ثم فإما أن نوليه ثقتنا ونقبلها وإما أن نضن عليه بهذه الثقة ونرفضها . وبين أن الأجيال المعاصرة لم تر منه بدلاً ، فقد سلط البحث العلمي الحديث بكل ما توافر له من الوسائل على ما كتبه توكيديدس وأثبته :

أولاً : أن توكيديدس طبق أساليب البحث العلمي على دراسة أحداث عصره الهام ، وهي التي دارت رحاها بين معسكرين متعاديين : وبذل جهداً صادقاً ليتحرى صحة أحداث الحرب البلوبونيزية وتواريخها ، ويروي الحقيقة غير متأثر بالعواطف الجامحة والمشاعر الحماسية .

ثانياً : أنه إذا كنا نستزيد علماً عن فترة حقب الحرب بفضل ما عثر عليه من نقوش : وما وصل إلينا من كوميديات اريستوفانس ، وما نظائره في الكتاب المتأخرين وبوجه خاص ما كتبه بلوتارخ عن سيرة حياة بريكلس ونيقياس والكيبياديس (Alcibiades) وليساندروس : وأنه إذا كانت رسالة ارسطو عن دستور أثينا بقطعاتها الوافية من النصوص الرسمية ، تستكمل برواية توكيديدس عن ثورة عام ٤١١ ، فإن « تاريخ » توكيديدس

---

(1) 1, 22, 1
(2) 1, 22, 2.
(3) Amer. Journ. Philol., 58-31
(4) 1, 22, 3.

لا يزال أوفى وأعظم مرجع عن تاريخ السنوات من ٤٣٢ إلى ٤١١ ق. م. وأنه لا يقل عن ذلك أهمية فيما يخص نصف القرن الذي سبق اندلاع لهيب الحرب البلوبونيزية : وذلك برغم ما يحتويه من مادة غنية من المعلومات كثيرة كنا في غنى عن صدورها بالالتجاء إلى مصادر أخرى من بينهم هيرودوتوس . غير أن توكيديدس لم يقتصد في استخدام سجلات الدولة الأثينية التي بين يديه الخاصة .

ثالثاً : إن المصادر التي استمد منها توكيديدس معلوماته لكتابة موجز تاريخ الاغريق القديم هي أفضل ما توصل اليه بعد دراسة وتمحيص مؤلفات مؤرخي القرن الخامس الباكرين مثل هيرودوتوس والطيوخوس السراقوسي وهلانيقوس .

رابعاً : إن أعظم ما كان أي مؤرخ قديم يتوخاه عند تناول أحداث الماضي هو الاهتمام إلى تاريخ دقيق للحوادث . وقد رأى توكيديدس لم تكن مشكلة الوصول إلى مقياس دقيق للزمن قد حلت بعد ، بل إن الاغريق لم يهتدوا إلى استخدام الحقبات الأولمبية في التاريخ إلا بعد الحرب البلوبونيزية بثلاثة أرباع القرن ، أي في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ؛ وان هلانيقوس كان المؤرخ الوحيد الذي حاول التغلب على مشكلة قياس الزمن بوضع نظام للتاريخ الأثيني [2] . وإذا كان توكيديدس قد كشف عن عدم صلاحية هذا النظام [3] ، فانه لم يحاول تصحيحه أو تحسينه . وقد كان توكيديدس هو وذلك الاستثناء إلى ابتكار

---

(1) Meyer, op. cit., v, pp. 453-5.
(2) Skeat, op. cit., p. 205; Meyer, op. cit., pp. 403-5.
(3) I, 97, 2.

جيل ، وهو تأريخ الحوادث بسنى حكام أثينا ، عندما أرخ بداية الحرب بالعام الذي كان فيه بيثوذوروس (Pythodoros) ارخونا في أثينا [1] ، لكنه أضاع هذه الفرصة بعدم استمراره في ذلك والاكتفاء بتحديد نقطة الابتداء على هذا النحو وتلية لسنوات تالية للحرب إلى منتهاها الأول ؛ وتبدو داخل هذا الاطار إلى أيسر السبل وأقربها إلى الفطرة في التأريخ وهي طريقة المزارع القديم في الاعتماد على تقويم الفصول [2] : الصيف للقتال والشتاء للسياسة ، وذلك بدلاً من استخدام شهور السنة الأتيكية وأيامها . ولعله قد آثر تلك الطريقة البدائية في تأريخ الحوادث سنوياً على نظام التقويم الأتيكي لبعد هذا النظام عن الكمال ، فضلاً عن أنه لم يكن شائعاً في كل بلاد الاغريق حيث كان يتوقع انتشار تلاوة كتابه . وبطبيعة الحال لم يكن ميسوراً تطبيق طريقة توكيديدس في التأريخ على الفترة الواقعة بين انسحاب الفرس من أوروبا وقيام الحرب البلوبونيزية ، وتلك فان تاريخ هذه الفترة بالنسبة إلى تاريخ الحرب البلوبونيزية يفتقر افتقاراً شديداً إلى التواريخ والدقة في تأريخ الأحداث . وبرغم ما اتصف به طريقة توكيديدس في التأريخ من نقص وقصور فانها صاحبه فضل كبير على المحدثين في اعادة تأريخ كل حوادث التاريخ الاغريقي القديم ، وذلك لأن كل الآثار التي خلفها المحدثون لتواريخ هذه الأحداث وتحقيق هذه التواريخ يعتمدان على ما سجله توكيديدس عن كسوف الشمس وخسوف القمر في سني الحرب البلوبونيزية [3] .

---

(1) II, 2, 1. (2) V, 20, 2-3.

(3) Meyer, G.A.E., V, p. 909.

ومما تجدر ملاحظته أن الكتاب الخامس لا توجد في الأخيرة والسنة قصيرة لقائد الأسطول برسيوس [1] وجواد ضئيل بين أمراء حرب طراس (Thrace) والعذراء الأثينيين [2] ، على حين أنه توجد فيه نصوص خمس معاهدات [3] . وأما الكتاب الخامس فانه لا توجد فيه خطب على الإطلاق على حين أنه توجد فيه نصوص ثلاث معاهدات ، ويُعزى إلى المؤرخ الأثيني كرتيوس القول بأن توكيديدس قد الامتناع عن استخدام الخطب في الكتاب الثامن لادراكه أنها تفسد النص بسبب الملل بعدئذ [4] ، وهذا رأي غير مقبول . وعلى حين يرى بعض الباحثين المحدثين أن انقطاع أي جزء من « تاريخ » توكيديدس إلا لسبب دلالة على عدم الاكتمال [5] ، لا يستبعد البعض الآخر أن توكيديدس قد يجرب طريقة جديدة في التأليف عندما صنف الكتابين الخامس والثامن فاستبدل بالخطب نصوص الوثائق [6] . ومن الأرجح أن يكون توكيديدس قد اختار لمعالجة كل جزء من الحرب أنسب الطرق وأكثرها مواءمة لتصوير الأحداث ، وإن كان هذا لا ينفي أن القلم لم يمهله حتى يراجع النصف الثاني من الكتاب الخامس (الجزء ج) وبقية الكتاب الثامن (الجزء د) ويقوم بتراجعه ، ويعطي هذين الجزءين شكلهما النهائي .

ولسنا في حاجة إلى الوقوف طويلاً عند أسلوب توكيديدس ، فالكل يجمعون على أنه مزج التاريخ بأسلوب وصبر جميع بين جمال الأدب الرفيع ودقة العلم المتقن ، مع حرصه على أن يوجز أكثر قدر من المعاني في أقل قدر من الكلمات ، إلى حد أنه في بعض الأحيان تؤدي كلمة واحدة عمل جملة ، وأحياناً تقوم جملة واحدة بمقام فقرة بأكملها .

---

(1) V. 3. (2) V. 85-116. (3) V. 18-19; 23-24; 47; 77; 79.
(4) VIII. 28; 86; 96. (5) Diss. Hal. Thuyd. 14
(6) Radin, op. cit. IX, pp. 167-8.
(7) Wade-Gery, H.T., Thucydides, in Oxford Class. Dict. 1937 pp. 1014.

وقد حدا ذلك ببعض النقاد القدماء [1] إلى مؤاخذته على هذا الميل إلى الإيجاز الشديد وإهماله للحسنات الفنية .

ويعزى إلى توكيديدس الفضل في خلق التاريخ السياسي [2] . حقاً إن الحروب الفارسية كانت أهم من حدث هيرودوتوس بل معالجته في مؤلفه لكنه لم يكن في مقدوره أن يكون مؤرخاً سياسياً ، فهو لم يكن أميراً أو غيرها بل إنه لم يشهد شيئاً من الحياة السياسية في مسقط رأسه هليكارناسوس ، تلك المدينة الآسيوية الهادئة ، فقد كان يحكمها طاغية يخضع لسيادة الفارسية ، ولم يكن من شأن ذلك أن يحرمه ذلك اللون من الحياة السياسية الذي كان مألوفاً في مدينة يونانية حرة [3] ، وعندما لقي هذا اللون من الحياة في أثينا لم يشارك فيه . وأما توكيديدس فإنه كان أحد سواسي أثينا بريكليس وهي التي كانت النشاط السياسي فيها خصب الحياة ، فلا عجب أنه جعل طبيعة الدولة المشكلة الرئيسية في مؤلفه .

وقد سبق القول أن توكيديدس بدأ « تاريخه » بعرض التاريخ الأغريقي منذ عهد ميدوس حتى الحروب الفارسية ، وهذا الموجز يكشف عن قواعده في الحكم على الحقائق التاريخية وفي تفسير الأحداث التي يعالجها على أساسها عصره . فهو يعتقد أن تاريخ الأغريق الأول غير هام لأن ظروف الحياة حينذاك — وقد حالت دون الاستقرار وفلاحة الأرض فلاحة منتظمة وتجميع رؤوس الأموال وقيام مدن كبيرة وغيره من ذلك من مقومات الحضارة الحديثة — لم تكن تسمح بإنشاء أي تنظيم سياسي وحيد الأركان أو ينهض قوة على نطاق واسع . وإن هذا الموجز لبالغ في دلالته على رجعية تفكير توكيديدس التاريخية ، فهو يطرح جانباً كل الروايات الأسطورية

(1) Dion. Hal. Thucyd. 24 ff.; Marcell. 10.

(2) Jaeger, W. Paideia. Ideals of Greek Culture. Eng. trans. by Highet. 1966, p. 330. (3) Pouqueville, op. cit. pp 333-4.

القديمة لأنها لم تقع عنده ، ويستدل بها لآرائه وهي مجموعة بربع من الآراء تستند إلى نظرته الثاقبة في العلاقة المنطقية بين التقدم الفائق والتقدم الاقتصادي . ولما كان ينظر إلى الماضي بعين السياسي الذي يعيش في القرن الخامس قبل الميلاد فانه لا ينكر إلا أن القوة ، والثروة المرتبة الذية والتطور الاقتصادي والثقافة العقلية إلا الأصول الضرورية لنمو القوة . وهو إذ يصور ذلك الماضي البعيد يخطط خريطة اقتصادية وسياسية يفصح عن نظرته إلى أحداث عصره .

ولكنه إذا جاز القول بأن أحداث العصور الغابرة في ترجيح الأخرى ببعد عام لم تبلغ من الأهمية ما بلغته الحرب البلوبونيزية ، فانه لا يجوز قول ذلك عن الحروب الفارسية ، إلا إذا كان هدف توكيديدس هو الاقلال من أهمية كافة أحداث الماضي ليبرز أهمية موضوع دراسته ، وهذا لا يتفق مع ما عهدت به آراءه وأحكامه بوجه عام من الاتزان والانصاف وعدم التأثر بالعواطف والمصالح الشخصية . وعلى كل حال فان عدم استغراقه بأحداث الماضي البعيد لأنها لم تبلغ من الأهمية ما بلغته أحداث الحرب البلوبونيزية لا يتفق ووجهة نظر المحدثين من المؤرخين . ويجب أن نبرز هنا نقطة هامة وهي أن مرد اهتمال توكيديدس بأحداث هذه الحرب لم يكن بسبب أهميتها الذاتية وإنما بسبب ما تصوره عنه الأحداث وذلك بسبب ما ترتب عليها من سقوط الامبراطورية الأثينية واذلال أثينا ، الدولة التي كانت في عهد المدينة تمثل أسمى ما وصلت اليه الحضارة الاغريقية حتى غدت علماً عليها ورمزاً لها .

وبعد هذا الوجز أعرب توكيديدس عن هدفه من كتابة التاريخ وهو أن يكون مؤلفه أثراً خالداً في الدهر يتسنى للباحثين على ضوئه الأحداث التي وقعت في الماضي وسوف تتكرر في المستقبل بالطريقة نفسها لأن طبيعة البشر ثابتة لا تتغير[1] . وقد ألح توكيديدس في تكرار

[1] ١ ، ٢٢ ، ٤

يكرره القائلة بأن التاريخ يعيد نفسه . وهذا يناقض الفكرة السائدة بين المحدثين من المؤرخين ، فكل حادث يتألف من عناصر مختلفة لا يمكن أن يجتمع كلها مرة فيكرر وقوع ذلك الحادث . بيد أنه إذا كان لا يصح القول بأن التاريخ يعيد نفسه ، إلا أن هذا لا ينفي وقوع أحداث متشابهة في حياة الأمم والأفراد ، ومن ثم فإن الناس يستطيعون الاستفادة من تجارب الماضي إذا وعوا دروسها . ولعل هذا هو ما رمى إليه توكيديدس . تدنياً من الفكر الاغريقي الذي كان يهدف إلى توفير هذا اللون من المعرفة عن طريق الوصول إلى نتائج عامة . وإذا كانت فكرة توكيديدس القائلة بأن تاريخ الأفراد والشعوب يعيد نفسه تخالف الفكرة السائدة عن التاريخ ، فانه يشارك المحدثين الاهتمام بكل حادث بعينه ، فضلاً عن كون انه يتخيل نطاق الغريب من الأحداث والغريب منها بصفة خاصة على نحو لم يتفق حتى الأحداث المتشابهة . وهذا عنصر أساسي في وجهة نظره السياسية ، على أساس أن السائرة لا يستطيعون التفكير تفكيراً سليماً والتصرف وفقاً لمقتضاه ضرورياً إلا إذا كانت في أحوال متشابهة تترتب عادة على دوافع متشابهة نتائج متشابهة . فإن هذا القدر من التتابع يجعل التجارب قائمة ويسمح بقدر من بعد النظر وتقدير احتمالات المستقبل تقديراً سليماً ولو إلى حد ما .

وقد بدأ تفكير الاغريق السياسي منذ أوشيج سولون منذ منتصف ، ومنذ عصر سولون حدث أثينا ثورة كبرى وأكسبت حصيلة وافرة من التجارب السياسية نتيجة للعلاقات التي نشأت بينها وبين مختلف الدول ، وكان تيمستوكليس أول شيء أفاد من هذه التجارب . وهو الذي يعتبره توكيديدس طرازاً فذاً فريداً من رجال المصير بعد النظر والمكر الصادق على الأمور[1] . وهما الصفتان اللتان نفى توكيديدس بأن بيريكليس

(1) Jaeger, op. cit., p. 337. Voegelin, pp. 104 ff.

(2) I. 138. 3.

وتاريخه في الأجيال التالية بعرض صورة صادقة لأحداث الماضي يكسب الناس منها المعرفة السياسية التي ولد فيها جميع المشتغلين . فهو يعتقد اعتقاداً جازماً أن الوسيلة المحققة لدراسة التاريخ هي أن نكتب سيرته بالفكرة السياسية . وأن السياسة علم يخضع لقوانينه الثابتة التي لا يمكن فهمها إلا ببحث الحقائق التاريخية لا على أنها جزئيات منعزلة وإنما بوصف كونها أجزاء متكاملة في عملية متطورة . ولا جدال في أن نظرة توكيديدس الثاقبة إلى طبيعة الأحداث السياسية وقوانينها تضع توكيديدس فوق مستوى سائر المؤرخين القدماء . ولا غرو فإن ذلك لم يكن ميسوراً إلا لإنسان يعيش في ذلك العصر الزاهر الذي أنجب رجالاً من طراز بريكلس وسقراط وديموقريطس .

ولعل أخص صفات فلسفة توكيديدس السياسية هي إيراز منطق السياسة بعرض الأحداث عرضاً واضحاً . وقد ساعده على ذلك عرضه لتاريخه بالطريقة البيوغرافية تظهر بجلاء منقطع النظير العلاقة بين السبب الحقيقي والنتيجة الحقيقية في السياسة . ومن الجلي أنه بهذه الطريقة فكر على أي مأساة من الأحداث يقارن الإنسان كبيراً كان أو صغيراً بعد أن توقع ظهور فلاسفة أفلاطون أو فن ديموقريطس في أي فترة من فترات تاريخ الإغريق .

والخطب الكثيرة التي ضمنها توكيديدس مؤلفه لم يقع في روايتها الطريقة الدقيقة نفسها التي اتبعها في رواية أحداث الحرب . ومع هذا يذهب المؤرخ إلى أنه لم يؤلف هذه الخطب حرفياً كما ألقيت ، لأنه كان يعتمد على ذاكرته في نقلها إليه أخبار ما لم يسمعه شخصياً منها تذكر الكلمات نفسها ، ثم يمضي فيقول : « وذلك الذي عزوته إلى كل متحدث الأفكار الملائمة للمناسبة التي تحدث فيها والعبارات التي رجحت أن يكون قد استعملها للتعبير عن تلك الأفكار » . وفي الوقت

نفسه حاولت قدر استطاعتي اتباع المجرى الحرفي لما قيل فعلاً »[1] . ومع ذلك نلاحظ أنه برغم ما يشك توكيديدس من شهود لتحري الحقيقة عما جرى في كل مناقشة وصفها ، فانه من المؤكد أن بعض ما يعزوه مؤلفه من خطب ، إذا لم يكن معظم تلك الخطب ، كان يخالف اختلافاً جوهرياً عن النص الذي أتى به . وإذا كان لا يجوز مرة أن يؤلف مؤرخ شخصيات تاريخية خطباً أتاه تؤدها مهما تطابق عباراته مع ما تحدثت به ، فانه لا يجوز ألف مرة أن ينسب إلى تلك الشخصيات شيئاً يخالف ما قالوه فعلاً أو لم يقولوه اطلاقاً . وكيف نفسر إقدام مؤرخ أمين صادق دقيق مثل توكيديدس على ذلك ؟ وهل معنى ذلك أن توكيديدس فسد وزيف التاريخ ؟

يجمع الباحثون على أن توكيديدس لم يستهدف من وراء ذلك أن يزيف التاريخ أو أن يضحي على أحد ، وإنما أن يعرض على هذا النحو بدلاً من أن يعرض على صيغة تحقيقات — فلسفته السياسية ، وهي التي كان غرضها الأول والأخير تقديم الحقيقة مصوراً مدعماً بالكشف عن أفكار الشخصيات البارزة وبيان أثر هذه الشخصيات في توجيه الرأي العام ، وبتجنيب القلم عن جميع العوامل الخفية الكامنة وراء الأحداث . وكلنا نسلم بأنه لمعرفة الحقيقة عن كثير من الأحداث السياسية لا يمكن الاعتماد على ما حدث أو قيل فعلاً في تلك المناسبات ، فغالباً ما يكون ذلك ساتراً لخفي الحقيقة : بل نتعين معرفة نوايا والأفكار الذين قاموا بالأدوار الرئيسية في تلك الأحداث . ولزعم رغبة توكيديدس الصادقة في تصوير الحقيقة واعتقاده بأن كل اتجاه في مثل هذا الصراع كان وليد تفكير سابق ، وبأنه في وسع من يرقب الصراع عن كثب الوصول إلى كنه هذا التفكير بإمعان النظر في الكشف عن دوافع كل فئة لعبت دوراً في الحرب ،

---

(1) I. 22, 2.

فإنه أجرى على ألسنة أبطاله شرح أدق دوافعهم ومعتقداتهم في معظم عامة بحسب رأيه فيما كان يتعين على كل فرد أن يفكر فيه أو يقوله تبعاً لمختلف المواقف التي تحدث . ومعنى ذلك أن توكيديدس لم يقم بما يخص الطلب بدور الكاتب الذي يسجل ما يسمعه بنفسه أو ينقله إلى غيره . وإنما بدور المفسر العاقل الأمين الذي يرتئي أن يحاسبه الغير عليه . وإن من العجيب جداً من الوجهة النفسية أن يحاول المؤرخ أن يخفي عن قرائه الدوافع الحقيقية التي تحفزه عليها أحداث الحرب التي يؤرخ لها . فالأعجب وهذه هي المهمة التي اضطلع بها توكيديدس أن يكون قد صور لنا تصويراً دقيقاً الحالة العقلية والحالة النفسية الذين سادا في فترات معينة في أثناء الحرب وولدت عن تلك الفترات أحداث تلك الفترات . ويسلم النقاد كافة بأن توكيديدس كان أقدر جميع الذين شهدوا تلك الأحداث على تصويرها تصويراً صادقاً للأجيال المتعاقبة . ومما يجدر ملاحظته أن توكيديدس لم يكن أول من اتخذ من الخطب وسيلة لتصوير الأحداث الهامة والشخصيات التي لعبت أدواراً رئيسية فيها ؛ فقد سبقه إلى ذلك هيرودوس وبوالخر المؤرخون في آيونيا وكذلك هيرودوتوس . ويضاف أن هذا لا يبرر ما فعله توكيديدس .

ومع تقديرنا لأراء توكيديدس وعبقريته وتصويره الدقيق وآرائه السياسية الناضجة وما في الخطب التي اصطنعها من طلاوة ومتانة وحيوية ، فإنا نأخذ عليه أنه آثر ألا يعرض فلسفته السياسية على هيئة تعليقات وإنما في تلك الخطب التي اصطنعها وتعتبر الفرقة فيها بين ما تصوره المؤرخ وما حدث فعلاً . وهو ما يجب أن يكون في ضمير الناس أبداً وقت قراءة المفسرون بكل ما يتوافر لهم من وسائل وعلى ضوء ما تكشف عن روح العصر من تجدد وما يكشف البحث عنه من وثائق . هذا ما دامت التاريخ تختلف من عصر إلى آخر وإن ثبتت الحقائق ثابتة لا تتغير وحسبنا أن نشير هنا أن طريقة توكيديدس كانت نكبة على التاريخ عدا

قرون من بعده حينما اقتفى أثره في هذه الناحية مؤرخون لم يسموا إلى مستواه في التفكير ولا في الأمانة (١).

وقد أشار توكيديدس على التفرقة بين بواعث الأمور وظواهرها بسلوكه ذلك عندما تواه يفرق بين الأسباب الحقيقية التي أدت إلى الحرب البلوبونيزية وبين المنازعات التي سبقت هذه الحرب مباشرة. ويبدو أنه قد استعار ذلك من علم الطب، وهو الذي كان أول العلوم التي ترقت بطريقة علمية بين اليونان والرومان، وذلك بالتفرقة بين ظواهر العلة وأسبابها الحقيقية (٢). واقتفاء توكيديدس على اتخاذ هذه الخطوة يدعو دليلاً على اعتباره السياسة عالماً تكيفه أسبابه الطبيعية التي تفضي إلى نتائج طبيعية، وعلى ارتفاعه بالمشكلة التي يعالجها إلى مستوى الدراسة الموضوعية التي لا تتأثر بالعواطف والصراع الشخصية. إن تلك بالتأكيد هي التي تحتل العناية الأولية في توجيه مجرى الأحداث المختلفة. ولا جدال في أن وقوف توكيديدس على السبب الحقيقي للحرب كان ثمرة تفكير عميق متصل في المشكلة التي عالجها، ولا في أن هذه الثمرة تعرض علينا أحد أمثلة فلسفته السياسية الناضجة. فهو لم يقل على الحرب تلك النظرة السطحية التي أقامها عليها ايستوفانس (٣) وديودوروس (٤) وبوليبيوس (٥)، ومن الآن جزءاً من الحرب بل القرار الذي أصدره بريكليس بحرمان ميجارا من المتاجرة مع الامبراطورية الأثينية، بل تعرض الحرب دراسة عميقة هدفه إلى معرفة سببها الحقيقي. فعلى رأي توكيديدس أن هذا القرار والسلوبين الأمريين اللين اتخذتهما أثينا قبيل الحرب (١ — قبول أثينا

(1) Starrev, op. cit., p. 186; Shotwell, op. cit., pp. 510-12; Jaeger, op. cit., p. 386.

(2) Jaeger, op. cit., p. 388; Nestle, pp. 350 ff.

(3) Ach., Acharn., 515-525; Peace, 605 ff.

(4) Diod., XII, 38-41.

(5) Pol., Fragm., 39 ff.

عائلة كورسيرا (كورفو) وكانت مستعمرة غنية من مستعمرات كورنثة وتسيطر على الطريق إلى الغرب . ٢ — لم تكن أثينا معاصرة وبيدايا وكانت مستعمرة أخرى لكورنثة) كانت أسباب الخلاف والشكوى من سلوك أثينا . وأما السبب الحقيقي للحرب فانه رأى بالغ نظره أن كان اضطرار غير قوة أثينا إلى حد أقرع اسبرطة وتهدد كيانها [1] . وهذا هو رأي الأستاذ ايرم [2] . وان كان البعض يرى أن هذا يفسر استمرار الحرب في عام ٤٣١ وانتهاءها على نحو ما انتهت اليه أكثر مما يفسر قيامها في عام ٤٣١ ، وانه إذا كانت دراسة الأدلة الحديثة لا تكشف عن سبب واحد يفسر قيام الحرب ، فيبدأ فان دراسة كورنثة البعيدة لأثينا ، وسياسة اسبرطة المتحفزة ، وتصميم بريكليس على عدم التضحية بأي شيء في سبيل الاحتفاظ بالسلام وعلى مواجهة الأزمة حين يتعين التحكم فيها — إن كل ذلك جعل نشوب الحرب أمراً لا مفر منه . أما المنافسة التجارية بين الفريقين ، والتقاء أطماعها في العصر الأيوني والآخر إلى العصر الذهبي ، وانتصار أثينا العظيم الديمقراطية على حين كانت اسبرطة وحلفاؤها تناصر الأوليجاركية ، وفرض أثينا السيطرة على وعايادها على حين كانت اسبرطة تزعم بحق « تحرير اليونان » و « توازن القوى » — أما كل ذلك فانه جعل قيام الحرب محتملاً وان لم يجعله حتمياً [3] . ويؤيد المعارضون لتوكيديدس رأيهم بأن الامبراطورية الأثينية كانت عند منتصف القرن الخامس أقوى عما كانت عليه في السنوات السابقة مباشرة للحرب [4] .

ولا جدال في أنه في خلال السنوات السابقة مباشرة للحرب لم تسعد

---

(1) Glotz, I. 35, 9 — 67.0.

(2) Rostovtzeff, Greece, Oxford 69, 1963, pp. 151 ff.; Jaeger, op. cit., pp. 336 ff.; Donelly, op. cit., pp. 3337.

(3) Adcock, C.A.H., V, p. 166. (4) Meyer, op. cit., p. 426.

أثينا سلطانها على أقاليم جديدة ، بل إنها صادفت بعض النكسات منذ عام ٤٥٠ ، ولكنه لا جدال كذلك في أن أثينا دعمت سيطرتها على امبراطوريتها التي نظمتها تنظيماً قوياً ، ونشرت نفوذها حتى الغرب ، وأسست بعض المستعمرات الجديدة مثل أمفيبوليس ، وعقدت عدداً من المحالفات كان من أبعدها أثراً تحالفها مع مدن في الغرب مثل ليونتيوم ورجيوم ، فأفزع انتصارات أثينا وآثار كرامن حقدها أعداء أثينا وازدياد ما عقده من جراء ذلك يوماً بعد يوم ، فضلاً عما كان ينطوي عليه كل ذلك من أخطار تهدد اسبرطة وحلفاءها . والراجح أن التحليل الدقيق الذي يتضمنه الكتاب الأول من « تاريخ » توكيديدس لا يدع مجالاً للشك في أن الامبراطورية الأثينية كانت الأداة التي تنوي أثينا استخدامها والاحتفاظ بها وكذلك العلة التي استخدمها الفريق الآخر لفوز عناصره تعالم الاغريقي لهم في القضاء عليها ، فآخر بعثة أنفذتها الاسبرطيون إلى الأثينيين اكتفت بابلاغهم الطلب الذي : « إن الاسبرطيين يرغبون في السلام ، وسوف يكون هناك سلام إذا منحتم الاغريق حريتهم . »[1]

ونرى في الكتاب الثاني كذلك أن قيام الامبراطورية الأثينية هو الذي أوحى إلى كل من الفريقين بالموقف الذي اتخذه ، فقد استمد أعداء أثينا من ذلك مبرراً لاعتبار نضالهم حرباً لتحرير الاغريق ، ذلك أن توكيديدس يعدنا في صدر الكتاب الثاني بأن : « عواطف الناس كانت مع الاسبرطيين لأنهم تصدوا لتحرير بلاد الاغريق » فكانت المدن والأفراد في طمأنة على مدى تصاري الجهد لمساعدتهم بالقول والعمل . وإذا عجز شخص عن المشاركة بيده أن الدنيا قد توقفت ، فقد كان أعداء أثينا من الأثينيين شديداً ، وكان بعض الناس يتطلع إلى الخلاص

(1) I, 139, 3

بعضهم ، والبعض الآخر يخشى الوقوع تحت سيطرتهم . » (١) هذا إلى أن إرخيداموس ، ملك اسبرطة ، أكد من سيطرة الأيبيين مبرراً مهاجمة بلاتيا وهي التي أعطى أثينا أن الفرس إنما قامت لتحريرها وباقي رعايا الإمبراطورية الأيبية (٢) .

ويتابع بريكلس في الكتاب الثاني أيضاً وهو يخاطب مواطنيه بعد أن غزا البلوبونيزيون أراضيهم للمرة الثانية منذ بداية الحرب وأهل الشاعون أنهم ويجم اليأس على قلوبهم حتى سخطوا عليه بل عقد اجتماع مع أعضائهم ، فوقف بريكلس يستنهض هممهم ويقول لهم : « ولا تظنون أن امبراطوريتكم مقصورة على حلفائكم ، ولكني أقول لكم إنه من بين شطري العالم المتوحين أمام هي الإنسان : الأرض والبحر ، أنتم سيدة المطلقة في البحر ، وليس هناك إلى الحد الذي تسخرون سيطرتكم عليه الآن فحسب ، بل إلى أي مدى تشاءون بسط سيطرتكم عليه . » (٣) ثم يمضي بعد ذلك فيقول : « وفضلاً عن ذلك فإنكم تزمرون بالمحافظ على قيد سيطرتكم وهو الذي ترهون به ، لأنه لا يمكنكم أن تصيروا الحد دون تحمل نكالته . ولا تتصوروا أنكم تخوضون فقط من أجل الاحتفاظ عرينكم ، بل أيضاً للذود عن حياض امبراطوريتكم ودوء ما يهددكم من المخاطر الناجمة عن الكراهية التي أثرتم في الناس نتيجة ممارسة الامبراطورية . » (٤) ويستطرد بعد ذلك فيقول : « وإذا اضطررتم آخر الأمر إلى الحد وأن تتخلوا عن عظمتكم ، فكل شيء ذلك عنه ويجزء : وسيذكر الناس دوماً أنكم دون سائر الاغريق قد كنتم أنتم أحق منه من الرعايا للاغريق .... وأنه كان لكم الكرامة دون أن تسببوا أولئك الذين يطمحون إلى حكم غيرهم ... بيد أن هذه الكراهية لا تقوم خطراً ، هي حين أن جلال المجد يبقى خالداً إلى الأبد . »

(١) II, 8, 4. (٢) I, 73, 1.
(٣) II, 62, 2 (٤) II, 63, 1 (٥) II, 64, 3-6.

وإذ أدرك توكيديدس أن قوة أثينا كانت السبب الحقيقي للحرب ، فإنه عند الحديث عن مقدمات الحرب نجده يوصف نمو قوة أثينا وانطلق من ذلك تمهيداً لوصف المؤتمر الذي عقده السبارطيون في اسبرطة لتبني إعلان الحرب ووصف اجتماع الجمعية العامة التي عقدها الاسبرطيون وأعلنوا فيها أن أثينا خرقت معاهدة صلح الثلاثين عاماً ؛ وهي التي عقدت بين الطرفين في عام ٤٤٦ — ٤٤٥ ق. م. وفي هذه الجلسة الحاسمة ، مع أن الحرب لم تُعلن على أثينا إلا في المؤتمر الذي عقده الحلفاء عقب ذلك ، أورد توكيديدس أربع خطب — وهو عدد يزيد كثيراً على ما أورده في أية مناسبة أخرى . وقد رمى توكيديدس من وراء هذه الخطب إلى عرض وجهة نظر حلفاء اسبرطة على لسان الكورنثيين ؛ ثم أعداء أثينا ؛ ووجهتي النظر المختلفتين في اسبرطة ؛ أي وجهة نظر المحافظين ، وهم الذين كانوا يفضلون السلامة إلى أن يستكمل الاستعداد لمواجهة عدو خطير مثل أثينا وهي التي كانت تتوافر لديها كل الوسائل لضمان نصر حاسم ، ووجهة نظر المحاربين الذين كانوا يرون في المبادرة إلى مهاجمة الأثينيين بعد أن تفانوا في بناء قوتهم ؛ وكذلك وجهة نظر الأثينيين ؛ بل إننا نجد بطل توكيديدس إنما كانت تزور اسبرطة عندئذ في مهمة لم يوضحها . وتلقي الخطب الأربع في تصوير مبلغ قوة أثينا ليخرج القارئ أو السامع من ذلك كله بأن السبب الحقيقي للحرب هو نمو الاسبرطيين وحلفائهم من جراء نمو هذه القوة . ولا ريب في أن هذه الخطب الرائعة من تأليف توكيديدس بعد انتهاء الحرب ودراستها دراسة عميقة والوقوف على العوامل التي أفضت إليها والملابسات التي اكتنفتها والمشاعر التي ثارت بها ؛ وصاغ من كل ذلك خطباً ليبرزها على ألسنة شخصيات مختلفة ليستخلص العامل أن

(1) I. 66 — 71
(2) I. 80 — 85
(3) I. 86
(4) I. 73 — 78

يتصوروا هذه الحرب على حقيقتها .

وأبرز هذه الخطب الأربع خطبة السفيرين الكورنثي والأثيني . وقد أجرى توكيديدس على لسان السفير الكورنثي أولاً تستهدف تحريض الأسبرطيين على إعلان الحرب بالمقارنة بين صفاتهم ، وهم الذين عرفوا بالتقاعد والتمسك بالتقاليد ، وصفات الأثينيين ، وهم الذين تميزوا بالجرأة والمغامرة والابتكار وحتم تجوار العزيمة مهما تكن الظروف التي تواجههم . توصف الخلق الأثيني على نحو أروع مما وصفه أي خطيب أثيني في محفل عام ، بل أروع مما وصفه توكيديدس نفسه في خطبة الجنائز الشهيرة التي عزاها إلى بريكليس واستمر فيها بعض القدماء ليعدوها خطبة السفير الكورنثي . ويمكن تفسير ذلك بأن توكيديدس هدف من وراء هذه الخطبة إلى تحقيق غرضين : أحدهما هو تصوير الحالة العقلية التي سبقت قيام الحرب ، والآخر هو تحليل الأسس النفسية التي بنيت عليها قوة أثينا في خلال نصف القرن الذي سبق قيام الحرب . وخطبة السفير الأثيني متممة لخطبة السفير الكورنثي ، فهي تبرز نمو قوة أثينا بعرض تحليل تاريخي لنمو تلك القوة بين العوامل التي ساعدت بالفعل إلى بناء قوتها حتى بلغت ذلك المدى . وفي رأي توكيديدس أن قوة أثينا استمدت في النمو منذ قيامها بدورها الخالد في دحر الفرس عند ماراثون (٤٩٠ ق. م.) وسلاميس (٤٨٠ ق. م.) ، لأنه عندما أجبرت حلفاؤها على تحريرهم مما يلقته وقامت به في سبيل الذود عن حرية الأغريق وكرامتهم السياسي بلا أستندوا إليها مقاليد الزعامة ، دفعها الخوف من نقمة اسبرطة ، وقد أقصيت عن زعامتها التقليدية ، إلى دعم القوة التي اكتسبتها ، ثم إلى اتخاذ الخيطة عند خروج حلفائها عليها بتحييد قوة الآخرين على معسكرهم بالتدريج . فما لبثت آخر الأمر إلى اخضاع حلفائها بعد أن كانوا في الأصل مستقلين . على أنه لم يكن مبعث ذلك الخوف وحده بل الطمع والمصلحة الذاتية . وجعل

توكيديدس المعبر الأثيني يقرأ صفحة المستقبل بإسناد هذه العبارات إليه ، « وإذا أطاعت اسبرطة في حربها ألبا وآثر أيها سيطرتها ، فإن عطف الأغريق الذي كسبته اسبرطة (قبل الحرب بوصفها نصيرة العدل والحرية ضد البغي والاستبداد) سيتحول عنها » . ومعنى هذا أن توكيديدس قد خرج من دراسته برأي مفاده أن دوري اسبارطة والمدن كانا لا يمثلان صفات خلقية دائمة في كل من أثينا واسبرطة وإنما كانا رمزين لتبادلهما مكانة الدولتان عندما تميل ميزان القوى . وبما أن هذا رأي وليد التجربة التي خبرتها بلاد الأغريق حين كانت أثينا صاحبة السلطان ثم حين آل ذلك السلطان إلى اسبرطة عقب حرب أثينا البيلوبونيزية في عام ٤٠٤ ، فانه يؤيد الفكرة القائلة بأن توكيديدس كان على علم بالخطة وكذلك الأحرى المتصلة بها بعد الحرب .

ومما يجدر بالملاحظة أنه كما أوضح توكيديدس أن اطراد نمو قوة أثينا كان أمراً ضرورياً لا بد منه ، أوضح كذلك أن خوف اسبرطة من ذلك هو الذي اضطرها إلى اعلان الحرب أولاً ، كما اضطرها إلى استئناف هذه الحرب بعد صلح نيقياس . ولذلك فهو يعتبر الحرب التي سبقت ذلك السلم ، الفترة القلقة المضطربة التي أعقبت ، وتخللت الحرب التي نشبت بعد هذه الفترة أجزاء من حرب واحدة ، أفضت إليها العوامل نفسها ، وجعلت قيام هذه الحرب أمراً لا مفر منه . وهذه الفكرة تعبّر عن بصيرته النافذة في أرقى صورها .

وعندما ننتقل من أسباب الحرب إلى وصف الحرب ذاتها ، نلاحظ تغلغل هذه البصيرة النافذة إلى أدوار الحقائق التي تلقي عليها ضوءاً ساطعاً . وهذا أيضاً هو الذي جعل توكيديدس يختار لعصر بريكليس تصويراً فاتناً

---

(١) ١ ، ٢٣ ، ٥

بطليوة . ومن أهم سمات توكيديدس دأبه على أن يورد في كل مناسبة وجهتي نظر متعارضتين في الموضوع نفسه ، على نحو ما عرض على لسان الملك رخيداموس نقش المحافظين ، ولسان الأفور سثلايداس (Sthenelaidas) ممثل حزب الحرب ، الاتجاهين المتعارضين في السياسة الاسبرطية قبل نشوب الحرب . ذلك أن توكيديدس يعقب بوصف ثورة موتيليني في عام ٤٢٨ ليعرض على لسان كليون ٣ ولسان ديودوتوس ٤ وجهتي نظر الحزبين الأثينيين المتطرف والمعتدل في السياسة التي تتبع نحو حلفاء أثينا ، أو بعبارة أصح رعاياها ، فكلا الرجلين وإن كانا يعبران الثورة لمرأى يتعمد مؤرخ أثينا وجب تحاشي تكرار وقوعه إلا أنهما كانا يختلفان في وسيلة تحقيق هذا الهدف ، فالأول يدعو إلى الشدة ليجعل من الثوار عظة وعبرة لغيرهم ، والثاني رأى يدعو إلى اعتدال إرادة هذه الدولة حتى لا يزداد ثورها . الأثينيون مرارة في نفوس حلفائهم وإلى اتخاذ الحيطة مستقبلاً لكيلا تنشب ثورة مرة أخرى . وفي خطب أخرى ألقاها بعد سقوط بلاتيا في عام ٤٢٧ أمثال خطبة ديودوتوس ٥ وإسقاط أهل سيتة ٦ توضح توكيديدس استحالة تحقيق العدالة في زمن الحرب . وفي الخطب التي ألقيت عقب قتال أسرطة حول بولوس (Pylos) في عام ٤٢٥ عرض رجلتين متعارضتين إزاء الصلح : رجعة اسبرطة ٧ وهي التي بدأت الحرب أصلاً ، إلى التفاهم وعقد الصلح بدلاً من السير في حرب قد تتمخض عنها يوماً كوارث لا يرتضيها العاقلون ، وعروف أثينا عن عقد الصلح ٨ ، وهي التي كانت قبل الحرب تدعو إلى التفاهم بل رأت كيف أنها في

---

(1) I, 30 — 55 (2) I, 36

(3) III, 37 — 40 (4) III, 42 — 48

(5) III, 38 — 48 (6) III, 61 — 67 (7) IV, 17 — 20

(8) IV, 21 — 22

العام الثاني للحرب سمعت دعوة بريدعى إلى عقد الصلح ، ولكنها لاقت وقد كانت الأمور تسير موائية لها أصبحت لاترغب في الصلح إلا بعد الفوز بنصر حاسم . وقد اشتهر توكيديدس فرصة مناقشة عقد الصلح أو مقاومة أثير في أحرب ليسجل على لسانه كثيرون حملة ضده يعتبر الباحثون المحدثون على أنها لا تقل من الأسراف الذي تخرج بمؤرخنا مرة أخرى عما اتصف به من الانصاف والحيدة بوجه عام . وقد عرض كذلك على لسان الكيديدس ' صاحب مشروع اوسان حسنه كثيرى إلى صفقية وعلى لسان نيقياس ' أحد المعارضين هذا المشروع الاثنامين المتابين عند الأثينيين ازاء هذه المسألة التي سنعود اليها مرة أخرى . وفي الحوار الذي دار في جزيرة ملوس (Melos) بين أهل هذه الجزيرة وبين السفراء الأثينيين ' . وكذلك في الخطابين اللذين ألقاهما في كمرينا (Camarina) هرموقراطس لبعوث السرقوسي ' وبرفوس (Brasheneis) لبعوث الأثيني ' ، أبرز توكيديدس مشكلة سياسة الدول الصغيرة في أثناء الحرب بين مواكبيرة . فعرض هذه المشكلة من وجهتي نظر مختلفتين هما وجهة نظر العدالة المطلقة ووجهة نظر سياسة الأمر الواقع .

وذهب توكيديدس على عرض وجهتي نظر مختلفتين في شكل خطب يذكرنا بما فعله هيرودوتوس مرتين في « تاريخه » : وأحداهما (III, 10-12) عندما أورد ثلاث خطب تتضمن ثلاثة آراء مختلفة في نوع نظام الحكم الفارسي مستقبلاً ، وذلك في الاجتماع الذي عقده قادة الفرس السبعة بعد القضاء على الثورة التي نشبت في أعقاب وفاة قمبيز . والمرة الأخرى (VII, 8 — 11) عندما أورد ثلاث خطب ، اثنتين منها لأجزركيس في

(1) VI, 36 — 38 (3) VI, 9 — 14
(2) V, 85 — 105 (4) VI, 16 — 18; (5) VI, 80 — 87

تجيش جيشه لغزو بلاد الاغريق : وواحدة لأرخيداموس في تأييد القيام بهذه الحملة ، وواحدة لأرخيتاس في معارضة هذا المشروع . وإزاء ذلك يبدو أنه إذا كان توكيديدس قد استمد الفكرة من هيرودوتس ، فإنه ذهب إلى أقصى الحد في تطبيقها مستخدماً بعبقرية أسلوبه الخاص وقدرته الفائقة على تحليل الحقائق وبسطها .

ويدلل توكيديدس في مواضع متفرقة على الفرق بين التقريرات الذاتية واختلاق الوقائع في السياسة . ويناقش في الخطب التي ألقاها الشيوخ المختلفون في جوانب المشاكل العسيرة للحرب من حيث تأثيرها في الخطط الاستراتيجية . ويتناول في الخطب التي ألقاها الزعماء البارزون سائر تلك المشاكل في الحياة السياسية . وهو أيضاً يصف الأثر السياسي لبعض المدن المتحاربة الذي أدى في كثير من الأحيان إلى تغيير الأنظمة الداخلية وإلى حدوث ثورات دامية . ويصور توكيديدس تصويراً دقيقاً بشعة الثورة التي اندلع لهيبها في كوركيرا [1] في عام ٤٢٧ ، ليتخذ منها درساً فحصت من روح الثورة التي سرعان ما اشتعلت نيرانها في الدول الاغريقية ، حيث كان الأمل في التدخل الأجنبي أو الخوف منه يشجع على مزيد الصراع الحزبي عنفاً ومرارة ، ذلك أن دعاة الأوليجارشية كانوا ينظرون إلى الاسبرطيين على حين كان الديمقراطيون ينظرون بأبصارهم إلى الأثينيين . ولم يفت توكيديدس أن يلاحظ أن الصراع الحزبي كان من طابع الحياة السياسية في الدول الاغريقية إلا أنه في وقت السلم كان أقل ضراوة ومرارة مما وصل إليه في أثناء الحرب وبخاصة حال الاستقرار كما هو مشهور من التاريخ الحديث ، وهو الثورة الفرنسية عندما أفضى التدخل الأجنبي إلى أمراً لتطلع التي اوكلتها الدول . وفي هذه الثورة أيضاً نرى مصداقاً لوجهة نظر توكيديدس وهي

---

(1) III, 82 — 83; VIII, 57. (2) III, 81 — 85, 1.

التي تعزو الانهيار الخلقي والتغير الشامل الذي طرأ على كافة القيم اليونانية إلى استخدام فروع الدورية وبلوغها أقصى درجات العنف . فالأزمة في كوركيرا وطدوا أنفسهم على أن يبزوا كل من سبقوهم بالغدر في ضروب نشاطهم وفي صنوف الأعمال الانتقامية . فلم تعد للكلمات المعاني السابقة عليها بل تغيرت من معانيها كل ما راق للثوار : ذلك أن جسارة الأشرار أصبحت شجاعة الرجال ، ورزانة الجبان عجزاً مستتراً ، والاعتدال أضحى دلالة على خوّر العزيمة ، وما كان النشاط الذاتي قد أصبح الصفة التي يجب أن يتحلى بها كل مواطن ، وكان الشخص الذي يميل إلى العنف موضع الثقة حتى الدوام وصبح مشاراً للريبة ، فإن الركون إلى الغدر والتزام الحيدة كان مصدر خطر شديد . ذلك أن المواطنين الذين لم ينضموا أحد الحزبين المتصارعين واجهوا ضحية لكليهما ، فقد كانوا إما مرفوضاً للبقاء لعزوفهم عن الصراع وإما موضوعاً للحقد لأنهم لم يظاهروا معه . وهكذا أصبح غرض الحاقد بكل القيم والشرائع وصف ما أثاره الصراع الحزبي العنيف من أسوأ النزعات البشرية .

ومما يجدر بالملاحظة أن توكيديدس إذ يعالج كل المشاكل الكبرى التي نشأت في خلال حرب صروس لا ينهج نهج المؤرخ بل نهج الطبيب الذي يفحص ويشخص . وفضلاً عن ذلك فإنه لا يعالج الأحداث المتشابهة بطريقة واحدة ، فهو تارة يبرز عامداً لوناً من فظائع الحرب وآلامها ، وتارة يمعن في إبراز لون آخر أشد هولاً من الأول . وهو عادة يكتفي بمثل واحد لتصوير ناحية بعينها من نواحي هذا الجانب المفجع من الحرب ، على نحو ما يكتفي بوصف أحداث ثورة كوركيرا لتصوير طبيعة الصراع الحزبي الذي لكبت به المدن الاغريقية في القرن الخامس وبلغ ذروته في أثناء الحرب البلوبونيزية ، دون أن يأتي على

وحتى أحداث الثورات الداخلية التي وقعت في خلال هذه الحرب ، لم يكتفي برسم شخصية كليون وتصويره الدعائية التي كانت الديمقراطيات الاغريقية تيأ لها ، دون أن يلقي بالاً إلى أضراب كليون وما كان أكثرهم . ومع أن كليون احتل مكان الصدارة في أثينا مدة خمس سنوات كاملة من أصل عشر سنوات الحرب ، فإن توكيديدس اكتفى بتدوينه ثلاث مرات فقط على مسرح السياسة ليرسم صورته رسماً واضحاً لا مزيد عليه [1] .

وسواء عند تناول أسباب الحرب أو عند رواية أخبارها ، كان توكيديدس مشغولاً بنشأة القوة السياسية وتطورها والحفاظ عليها وما ترتب على ذلك من مشاكل أخرى أخصها اهدار القيم الانسانية الرفيعة في مجال الأخلاق والعدالة . ولا يدع توكيديدس مجالاً للشك في أن نشوء الأزمة بين أثينا وأعدائها تبع تبعة على كاهل الذين كانوا يوجهون سياسة الطرفين المتنازعين ، وأنه على كل شيء يكمن في طبيعة النفس البشرية فهي تنزع إلى السيطرة على من يوشك مثل ما تنزع إلى درء الاعتداء ، وكذلك إلى الحفاظ على المكاسب بدافع من الكرامة والخوف والمصلحة الذاتية ، وأن قوى الحكمة يلحظون في الاعتبار وجود هذه النوازع بين ظهرانيهم وكذلك بين ظهراني غيرهم فيستخدمون قوتهم أو يضعون سياستهم تبعاً لذلك ، وأنهم إذا استخلصوا ذكاءهم أدركوا أن النصر لا يمكن لمحق أو للقوة أن تكفل احرازه ، فصروف الحرب وملابساتها أمور يتعذر التكهن بها ، وذلك فإن مسير الحروب تقرره أحياناً أحد الفريقين أكثر مما يقرره تفوق قوة الفريق الآخر . ومن الجلي أن توكيديدس ينظر إلى المشكلة الرئيسية باعتبارها جزءاً من الطبيعة البشرية حتى تلك التي لا يسيطر عليها حب السلطة سيطرة تامة ؛ فالمعروف أن الأثينيين

---

[1] Finley, op. cit., pp. 13 — 32.

– وهم أكثر الناس حباً في السلطة – كانوا يحترمون الصلة أسمى مظاهر دولتهم ويفاخرون بأن هذه الدولة دولة دستورية عديلة أساسها العمل لا الاستبداد . ويلاحظ توكيديدس أن الفيصل الأخير في تسوية الخلافات بين الدول هو القوة لا الحق ، ذلك أنه إذا تعادلت قوى الفريقين تقريباً أدى الخلاف إلى نشوب الحرب بينهما ، أما إذا تفوقت دولة على أخرى تفوقاً ظاهراً فإنها تفرض سلطانها عليها . ويضرب مثلاً لهذه الأخيرة بجزيرة ملوس الصغيرة وهي التي أرادت أن تقف على الحياد في الحرب البلوبونيزية ، لكن أثينا وقد دانت لها سيادة البحر بطشت بملوس ، فضمت ذلك إلى ما تبقى لدى الأغريق من خضد على قضية أثينا . والواقع أنه لم يمض مرور فرد من الزمان أثر هذا الحادث من نفوس الأغريق فظلوا على خصمهم وكراهيتهم لأثينا .

وهذا حدث قليل الأهمية في ذاته لكنه يعطينا نموذجاً لطريقة توكيديدس ، فهو يختار الأحداث لا تبعاً لأهميتها الذاتية وإنما تبعاً لقدرتها على تصوير المشاكل العامة ، ويستفيض في شرحها بكل ما أوتي من قدرة على التفكير السياسي الناضج . وفي خريف العام الذي يصور فيه حادث جزيرة ملوس يجلو توكيديدس للمرة الوحيدة في مؤلفه إن طريقة السفسطائيين ، وهي الحوار بين خصمين يقرهان أحياناً بالحجة ؟ . ولا سبيل إلى الشك في أن هذا الحادث طالما يشغل على الدوام أذهان هذه الجزيرة والفقراء الأثينيين صورة نقيض بالغة الخطورة للصراع الأبدي بين الحق والقوة ، فترى أهل الجزيرة الأبرار وقد أدركوا حيث يتشابك روح الإنسان منذ الأزمنة يحاولون الدليل لخصومهم الأقوياء على أنه من الأوفق لأثينا مراعاة جانب الاعتدال في استخدام قوتها الغالبة ، فقد يأتي اليوم الذي تضطر فيه إلى مناشدة العدالة واحترام الدم

(1) V. 86 — 111.

الإنسانية . ولكن الأثينيين وقد أعموا آذانهم عن هذا التحذير ، يجيبون بأن الحفاظ على هيبة امبراطوريتهم يقتضي ادخال الجزيرة في حظيرة هذه الامبراطورية لأن العالم سيرى في بقاء الجزيرة على حيادها دليلاً على ضعف الامبراطورية . وتمضي السفراء الأثينيون فيحذرون أهل ملوس من عبث ارتداء مسوح البطولة ، ذلك أنه ليس في ميدان السياسة الاستعمارية الحديثة مجال لمراعاة قواعد الحرب القديمة ، ويرهبون أولئك الخاسرين إن حسن الاعتماد على الآلهة أو الامبراطين . فالآلهة دائماً في صف الأقوياء ، والامبراطوريون أنفسهم لا يجتنبون ما يسميه الناس عملاً منكراً إلا إذا كان ذلك في صالحهم .

إن سياسة الأمر الواقع التي اتبعها أثينا وهي في أوج قوتها قد أعطانا توكيديدس كل ما ينطوي عليه المذهب الفلسفي من العمق والقوة ، عندما جعل الأثينيين يعترفون بحق القوى المتفوق بقانون الطبيعة ، أو بعبارة أخرى بشريعة الغاب ، ويبرئون الآلهة من عاياتها بوصف قوتها حماة لكل ما هو عادل . أما الدرس التي تستمد فيها قوة الانسان وبطشه . وهكذا يحاول الأثينيون تغطية التعارض الشديد بين سياستهم وقواعد الدين والأخلاق ، وهي التي كانوا يعتبرونها ملاذ الضعفاء . وعلى هذا النحو يرينا توكيديدس كيف بلغت سياسة القوة الأثينية ذروة قوتها المتنكر ، وكيف تفهمها المدافعون عنها . وتمثل الطريقة السفسطائية التي اختارها مؤرخنا لعرض مشكلة الصراع بين الحق والقوة على تعذر الوصول إلى قرار حاسم فيها . ذلك أن قوة المناقشات السفسطائية ليست في الوصول إلى حل للمشاكل وإنما في بسط وجهتي نظر الخاسرين بسطاً واضحاً قدر المستطاع . والجديد فيما كتبه توكيديدس عن حادث جزيرة ملوس أن هذا هو أول عرض صريح للمذهب القائل بأن الحق هو القوة ، وهو مذهب كان غريباً عن العقلية الاغريقية في العصور السابقة وسيظل لأول مرة في القرن الخامس قبل الميلاد ، حينما أصبح نوعاً من الحق

الطبيعي أو القانون الطبيعي الذي يتعارض مع قواعد الأخلاق السائدة .

ونرى مثلاً رغماً لتفكير توكيديدس السياسي الناضج وبراعته الفائقة في التحليل والوصف فيما يتعلق بحصار أثينا للمدن والجزر من حلفاء أثينا ضد صقلية ، ولا غرو فإن ذلك يعتبر أعظم جزء في مؤلفه . وقد لاحظ الباحثون جميعاً أنه بفضل ما توافر له من الخبرة العسكرية استطاع أن يبرز كل النواحي الفنية في وصف العمليات الحربية وصفاً دقيقاً وأن يلمس كل نواحي الضعف تقريباً في نظم الأغريق العسكرية ، لكنه مع الأسف العميق أغفل شرح هذه النظم مثل ما أغفل شرح النظم المالية برغم ما هنالك من صلة وثيقة بين كل هذه النظم والحرب التي درسها هذه الدراسة العميقة الشيقة .

وليس من الإسراف في الرأي القول بأن اشتباح حملة صقلية خلال حتى القارئ من بين ثنايا الكتاب الأول حين يحدثنا توكيديدس عما أوحت به جزيرة كوركيرا الأثينيين قبل بداية الحرب من قبول محالفتها لأنها تملك أسطولاً قوياً ولأن من شأن زعيم هذه الجزيرة يسيطر على الطريق البحري إلى صقلية [1] . ويكاد القارئ أن يرى اشتباح حملة صقلية مرة أخرى في الكتاب الثاني حين يتحدث توكيديدس عن الوفود التي سبقت بريكلس بعد موته والإقدام على مخاطرات جريئة اشتباحاً الأطماع الشخصية وجرياً وراء المنافع الذاتية مما كان له أسوأ الأثر في سير الحرب [2] . وإذا كانت الحملة التي أرسلتها أثينا إلى جزيرة صقلية [3] في عام ٤١٥ ق.م قليلة الأهمية ، فإننا نرى توكيديدس يجعل الزعيم السرقوسي الكبير هرموقراتس يقارن بعد ذلك بقليل في مؤتمر جيلا (Gela) في عام ٤٢٤ تسوية الخلافات الناشبة بين مختلف المدن

---

(1) I. 33 — 44 (2) II. 65 (3) VI. 1 — VII. 87

صقلية لتبعد جميعاً تحت زعامة سرقوسة (Syracuse) حتى تستطيع مواجهة هجوم أثينا عليها في المستقبل [1] . ولقد تجلى ملاحظة أن هرموقراطس استخدم في هذه المناسبة الحجج نفسها التي استخدمها فيثا بعد أمام الجمعية العامة في كمريا [2] عندما أشارت أثينا حلفاءها الكثرى إلى صقلية . ويبين أن توكيديدس قد أضاف اشاراته التمهيدية عن حملة صقلية حين راجع — بعد انتهاء الحرب — مسودته عن الفترة الأولى من الحرب . ومن الواضح أن هرموقراطس كان السياسي الصقلي الوحيد الذي انصب بعد النظر ورأى منذ أمد بعيد أن الخطر كان لا مفر منه ، ولذلك لاحظ أن أثينا ستتطلع حتماً إلى بسط سيادتها على صقلية ، وتقديره أنه لا يمكن توجيه أي لوم إليها إذا ما دعتها إلى التفكير إحدى مدن تلك الجزيرة وفي هذا دلالة على أنه حتى خارج أثينا كان المفكرون يفكرون بأسلوب سياسة الأمر الواقع .

وبعد صلح نيقياس دعت إجستا أو سجستا (Egesta, Segesta) وكانت إحدى مدن عرب صقلية ، الأثينيين لشد أزرها ضد جارتها سيلينس ، وكانت قد استعانت بسرقوسة [3] . وقد استجاب الأثينيون إلى هذه الدعوة ليتخذوا منها ذريعة لفتح صقلية [4] . وعندما رأى نيقياس ما استقر رأي مواطنيه على القيام به ، انتفض غضباً نبههم خطراً من سفه هذه المغامرة [5] . وعندئذ حرك الكيبياديس واقفاً ليشرح ما ينطوي عليه مشروعه الخطير من مزايا : باعتبار أن فتح صقلية أحسن وسيلة للفوز بالسيطرة على كل بلاد الاغريق ، وباعتبار أن بسط رقعة الامبراطورية الأثينية السبيل الوحيد للمحافظة عليها ، لأن كل توقف في الاندفاع يعمل في طياته خطر الانهيار [6] . وتعتبر هذه اللحظة التي

---

(1) VI, 32, 33 — 34. (2) VI, 18 — 24. (3) VI, 6.
(4) VI, 8; 6, 5. (5) VI, 9 — 14. (6) VI, 18 — 23.

وقف فيها لكيبادس خطيباً في الجمعية الشعبية الأثنية بعد تحذيرات نيقياس من أدق اللحظات وأكثرها ازدحاماً بالمعاني في قصة توكيديدس . وقد عمد إلى أن يذكرنا بكل ما قيل قبل الحرب عن ضرورة بسط السلطان أينما دون توقف وعما اتصف به الملك الأخير من الشجاعة والمرأة والحيوية الدائمة . ولكيبادس يُصور صورة مجسمة لهذه الصفات ، وهذا يفسر قدرته على اقناع الجماهير برغم أنه كان مكروهاً لسوء سلوكه في حياته الخاصة . ويرى توكيديدس في ثناء مثاليد الرعاية إلى شخص يجتمع فيه من الصفات مثل ما اجتمع في الكيبادس وتوقف تجمع الحملة المطروحة هي أحد الأسباب الرئيسية التي أدت إلى سقوط أثينا ! . ومن الخطل أن نتصور أن توكيديدس أخير نكبة أثينا في صقلية عقاباً أنزله الإله بها جزاء اتساعها الاستعماري . فهو أبعد ما يكون عن الاعتقاد بأن للسماء دخلاً في تصريف شؤون الأرض ، أو أن القوة شيء سيء في حد ذاته ، ذلك أن قوة أثينا هي التي أنقذت الأغريق من الفرس وساعدت على رخاء أثينا وتفوقها الحضاري وانتشار حضارتها في أرجاء العالم الأغريقي . بيد أن سوء استخدام هذه القوة هو الذي أدى إلى البطش بالضعفاء وفي النهاية إلى النتيجة المنطقية المحتومة ألا وهي القضاء على هذه القوة ذاتها ، فضلاً عما كان لنمو هذه القوة من آثار مضرة سيئة بذاتها تعود للمواطنين على إصدار قرارات خاطئة في الشؤون العامة وانتهت بتفشي الفساد تدريجاً في المعاملات الشخصية . وفي رأيه أن حملة صقلية كانت سلسلة من الأخطاء السياسية ، ليس بوصفه فيلسوفاً سياسياً كان يعتقد أن المصادر قبل مثالياً غير المشروعات أحياناً الخداع ، وإن واجب القادة هو توجيه هذه الرغبة الأنانية نحو الخير ، وفي هذا الموقف ألف الكيبادس سراً الزعامة في مواطنيه فلم يستجيبوا

---

(1) VI , 15 .

إلى حوت الخلق . ولم تكد الحملة تقلع من ثيبا حتى استشر خصوم الكيبادس شعور الكبرياء الذي عمده فقرروا استدعاءه لمحاكمته ، وإذ علموا بأنه هو مقررة نجاة حياته قرروا إعدامه [1] ، ولم تزل أن آلت الزيادة العلم الحملة إلى ليقياس [2] : مع أنه كان أشد معارضيها وأبعد الناس عن الاقتناع [3] بها ومن ثم أنهم صلاحية القيادة إلى النصر . ومما يجدر ملاحظته أنه إذا كان حلم توكيديدس عالماً بسير حوادث ويقرر مصائره الرجال لا النساء أو الآلهة ، فإنه مع ذلك لا يغفل بيان أثر الشعر النبوية في مجرى الأحداث كالنتائج الفادحة المترتبة من انطلوس الثيبية الحربية وتشويه عالبل الإله هرمس في أثناء هيل احتفال الحملة الكبرى إلى صقلية [4] . وهو ما أتم الكيبادس بارتكابه . والنتيجة الحاسمة لأمر أصحاب الأثينيين في صقلية في عام ٤١٣ سبعة وعشرين يوماً [5] بسبب خسوف القمر [6] .

ويعطينا توكيديدس صوراً نابضة بالحياة لما أكاره في الأثينيين تأهب الحملة لسفر من الموانئ المختلفة ، فقد كانوا بين فرح مستبشر ورجل مشفق [7] ، وما نشره بينهم جميعاً من الفزع واليأس لما انكشفت التي تمت بها الحملة وذهبت بكل ما كانت أثيه تعتز به : أسطول وأحبارها الذين وهو الذي استعدته في إعداد الحملة [8] ، وما ناله رجال الحملة من أمور تعله كان من أبشعها ما حاق بهم عند نهر أسيراوس [9] (Asinarus) ويسمى حالياً فالكونار أو نيرو دي ديو) وقد ساقوا إليه ليقتلوا فيه أو يعاملوا بسوء تخيلاً يضغط العدو عليهم . وفي طريقهم على تخيل بقيتهم انحدرت صفوفهم

---

(1) VI, 61, 2 — 29; 88; 93; 61.
(2) VI, 103
(3) VI, 8 — 14; 18 — 24; 3; 30; 6; 47.
(4) VI, 27 — 29.
(5) VII, 50, 4.
(6) VII, 50 — 53.
(7) VIII, 1.
(8) VII, 64.

واختل نظامهم مما سهل على العدو أن ينقض عليهم ويعمل السيف في الآلاف منهم . لامستهم دموعهم بماء الجهر وقد مكرنا أيضاً سابك الحبل ومع ذلك فان الأحياء منهم كانوا يتذكرون على شرب هذا الزيبج المكروه .

وكان هذا توكيديدس ذكياً أيضاً في عملية إلى سلسلة من الأخطاء الجسام ، فانه عزا كذلك هزيمتها النهائية في الحرب إلى سلسلة من الأعمال الخيرية التي لاحقها وحالها لاعادة بضرورة تعرف الأخطاء بعد وقوعها ، لأن اخفاق ذلك ينطوي على انكار الخبرة السياسية واهدار درس ثمين للافادة من دروس الماضي . وقد يسر عليه مهمته أنه لم يجد من حكمة الطبقة وعبرة تسلماً لتحكم بن استعد هذا الأساس أيضاً من حكمة بريكلس بطل الذي حرص أيضاً على خوض غمار الحرب وكان في استطاعته ، وفقاً لاعتقاد توكيديدس ، أن يقودها إلى النصر .

ولما كان توكيديدس لا يعمل في تقديره إلا الأسباب الطبيعية : أي دوافع البشر وافكارهم ، فانه يعالج أدبية كبيرة على الآثار المترتبة على خلق الأفراد وقدراتهم في توجيه شؤون مجتمعاتهم ، دون أن يتوانى في تسجيل ما تتركه الأمم من سيرهم . ولا عجب أن توكيديدس يعتقد أن نزعة الحرب البلوبونيزية توقفت بن حكمة زعماء الفريقين المتقاتلين أكثر مما توقفت على مقدرة الجيوش والأساطيل . ففي الكتاب الثاني بعد أن يورد الخطبة التي ألقاها بريكلس [1] واستحث فيها مواطنيه على مواصلة الكفاح وشد من عزائم المقاتلين في صفوفهم فزعت معنوياتهم فزعاً شديداً إلا حد أن اليأس خيم عليهم ، يقارن بين هذا الزعيم الفذ وكل الذين أعقبوه في زعامة الأثينيين [2] : فيحدثنا بأنه طوال

(1) II. 60 — 64. (2) II. 65

تولى بريكلس زعامة أثينا وحافظ على سلامتها في السلم وفي الحرب على السواء وجنح بها نحو الاعتدال ؛ وأنه هو وحده الذي أحسن فهم أهمية التي كانت أثينا تواجهها في حربها مع البلوبونيزيين ، فقد جعل سياسته تهدف تجنب تعريض البلاد لمخاطر لا داعي لها ؛ وذلك بعدم الاقدام على مغامرات خطيرة ، وتفادى توسيع رقعة الامبراطورية في أثناء الحرب ، مع العناية في الوقت نفسه بالأسطول . وأما خصومه فانهم ماروا على نقيض ذلك ؛ فقد دفعتهم الأطماع الشخصية إلى تنفيذ مشروعات ضخمة تكسبهم المجد إذا نجحت وتضعف مقاومة البلاد إذا أخفقت . وهذه اداة مرجعه لاالكيبيادس الذي وجه اليه عنا الاتهام زعماء الحزب الحادر نيقياس في أثناء مناقشة مشروع حملة صقلية ، وهذه المناقشة تبين أنه لو كان بكفي الزعيم ليملك زمام الجماهير أن يكون حصيف الرأي وعلى خلق كريم لتوافرت لذى نيقياس صفات الزعامة ، لكن الواقع غير ذلك ، إذ أن الكيبيادس فاق الجميع كما أشار من غرته على الزعامة ولو أنه قاد بلاده إلى الخاطر ولم يدع شيئاً لا يستفيد من ورائه . ومع ذلك فان ما اتصف به توكيديدس من الانصاف أبى عليه إلا أن يسجل اعترافه بالخدمة الجليلة التي أداها الكيبيادس لوطنه في عام ٤١١ عندما كسح جماح رجال البحرية والجيش في ساموس وأقنعهم بعدم الزحف على أثينا للقضاء على حكومة الأوليجاركية وهي التي كانت تتولى حكم أثينا عندئذ . وقد فعل الكيبيادس ذلك حتى لا يتمكن البلوبونيزيون من هذه الفرصة ويستولوا على أبوبي والدردنيل [٢] .

وقد أبرز توكيديدس قوة تأثير بريكلس في مواطنيه ، وكفايته على

---

(1) VI, 15.2

(2) VIII, 86; 89.

أن يزودهم لا أن يدهمهم بثوريته ، وزعامته التي استمد منها شجاعته في أن يقول للجماهير الحق الصريح لا ما يحبون أن يسمعوه ، وقدرته على أن يبقى دواماً على إلهامهم فإذا حاولوا أن يجمحوا كبحهم وأخضعهم ، وإذا تهيبهم شجاعتهم أنهش كلامه واستهض همتهم . أما خصومه فانه لم يفلح واحد منهم في الفوز بمثل ما كان له من نفوذ ولم يوفقوا دون أن يمتلئ الجماهير ويسترضي غرائزهم . ولذلك فان توكيديدس يرى أنه واضطر البيان شخصية تستطيع السيطرة على الجماهير ومغالبة الاستبداد الديمقراطي أخفقت صغلية ؛ وذلك فضلاً عن أن بريكلس كان لا يكاد أصلاً أن يقدم على مثل هذه المخاطرة لأنها كانت تناقض خطته الدفاعية. ولم يغادر توكيديدس أن كل منافسي بريكلس وخلفائه قد واجهوا مثل مهمة توجه أثنا في أثناء كفاحها من أجل كيانها ، ولكن بريكلس وحده هو الذي كان أهلاً للاضطلاع بهذه المهمة ، لأن بريكلس كان الزعيم ورجل الدولة النموذجي الذي اتصف بأسمى صفات الزعيم السياسي .

ويلزم أن عظمة بريكلس تبدو في أجلى صورة بالمقارنة بين حال أثينا في أثناء المراحل الأولى للحرب عندما أتيحت لها الإفادة من زعامته ، وبين حالها في أثناء المراحل الأخيرة للحرب عندما افتقر الأثينيون إلى شخصيته القوية وتوجيهه الحكيم ورأيه السديد ، فركبوا رؤوسهم ونزلت النكبات عليهم . وإذا كنا نعتقد أن الصورة التي رسمها توكيديدس لبريكلس كانت ثمرة هذه المقارنة ، فانه يصعب علينا أن نقرر إذا كانت السياسة التي يراها توكيديدس لبريكلس قد رسمها بريكلس نفسه على هذا النحو ، أم أن توكيديدس هو الذي حمل بريكلس على نصح الأثينيين بتجنب التوسع لأنه كان يعرف سياسة بريكلس في هذا الصدد وشهد النتائج السيئة التي نجمت عن مخالفة هذه السياسة في عهد خلفائه . وعلى كل حال فانه يبدو جلياً أنه لم يكن في وسع توكيديدس أن يعجب حكمة بريكلس السياسية ويرى أنه لم يرتكب الأخطاء التي ارتكبها خلفاؤه — لم

يكن في وسع توكيديدس عمل ذلك إلا بعد الحرب وإن كان قد جعل بريكلس (يحذر الأثينيين قبل بدايتها من التوسع والتعرض لأخطار لا ضرورة لها ويقول لهم : « إني أخشى أخطاءكم أكثر مما أخشى خطط أعدائكم الحربية » . ولا شك في أن توكيديدس عندما عزا نجاح سياسة بريكلس الخارجية إلى قوة مركزه في أثينا كان متأثراً بما ترتب على تزعزع مركز بريكليدس الداخلي من نتائج في الخطة الحربية التي رسمها الاسبارطيون على عقلية .

ولا جدال في أن توكيديدس هو مؤلف خطبة بريكلس في تأبين ضحايا العام الأول للحرب [1] . ولقد كان اتقليد الشيع في تأبين الأثينيين الذين يقتلون حتفهم في ميدان القتال أن يلقي الخطيب بشجاعتهم لكن توكيديدس انتهز هذه الفرصة ليسجل للأجيال القادمة صورة لروح الأثينية تبرز خصائص زعيمة الحضارة الأغريقية . ولم يسمح بإلقاء هذه الخطبة إلا إلى بريكلس : رجل الدولة الأوحد في نظره ، وهو الذي توافر له من الصفات ما يجعله خليقاً بالتعبير عن روح أثينا . ويجمع الكل على أنه لا تستطيع أي ترجمة أن تناظر قدرة توكيديدس ، إن معالجة هذا الموضوع تمثل هذا اليسر . وإذا كان أحد الباحثين المحدثين [2] رأى في هذه الخطبة « الثروة من ينابيع العبادة الذاتية المهذبة مشوبة وراء تزوع رقيق من التواضع والاعتدال » ، فإن بلاطاً آخر [3] يرى أن هذه الخطبة « لا تضيف معلوماً شيئاً بل تضيف إليها أثراً جديداً فهي تبرز وسط مأساة الحرب في هيئة عمل فريد من الفن وكأنه برنتون آخر

---

[1] I. 144. 1

[2] II. 35 — 46.

٣ لويس ديكنسون : « الفلسفة في العصور » ترجمة وتعليقات (تاريخ فلسفي ، ص ٣٠٣ ((نيويورك ١٩٢٠) .

[3] Bluntschli, op. cit., p. 187.

شيد لا ليحتوي تمثال الإلهة الحارسة حامية المدينة وإنما ليكون مكانه يخلد روح مواطنيها .

وقد تفاني توكيديدس في توخي الدقة التاريخية وركز همه على ما امتاز به وطنه في ذلك العصر من الحيوية الفائقة وسعة نواحي النشاط العقلي والأدبي والفني وجعل من كل ذلك وحدة جليلة واحدة . ذلك أن توكيديدس صور الأثينيين في صورة شعب تسوده وحدة الهدف مع تنوع كل مواطن بعربه في جو من النظام الذي لا يضطرب وإن كان يدلو دولاً أنه على وشك ذلك . ويعني توكيديدس فيصف أثينا بأنها مركز اشعاع الحضارة في العالم الاغريقي ، فيقول في سياق هذه الخطبة الخالدة : « وجملة القول إني أعتبر أثينا مدرسة بلاد الاغريق . » (١) وهذه العبارة التي يجمع الباحثون على أن توكيديدس كتبها بعد حرب أثينا في الحرب تنطوي على ما أدركه بعقله الناضج وفكره الثاقب من أنه برغم هذه الهزيمة الساحقة فان أثينا ستظل محتفظة بزعامة الاغريق الحضارية وستجد في مثل تقوضها الحضاري وتبديد ثروتها الروحي عزاء لها عن هزيمتها الحربية وضياع سيادتها السياسية .

ويعتبر توكيديدس للدستور الأثيني ابتكاراً أصيلاً لم يعط حذو أي دستور آخر بل هو أحرى بأن تنسج الدول الأخرى على منواله (٢) . ويرى أن الديمقراطية الأثينية على عهد بريكليس لم تكن كغيرها آلياً للمساواة ، وهي التي يعتبرها البعض أسمى مراتب العدالة ويعتبرها البعض الآخر بأنها أدنى مراتب الظلم . ويعبّر عن فكرة توكيديدس خير تعبير ما وصف به نظام أثينا السياسي من أنه لم يكن ديمقراطية إلا في الاسم : أما في الواقع فان بريكليس هذا بالتدريج الواطن الأول في أثينا وحاكمها

(1) II, 41, 1

(2) II, 37, 1.

الحقيقي [1] : وهو الأمر الذي جعله يفوز في محاكمة النأي بأنه من حيث الشؤون الخاصة كان المواطنين سواسية أمام القانون ، أما من حيث الشؤون العامة فان الصدارة من حق أصحاب الجدارة المتازة دون نظر إلى أي اعتبار آخر [2] . وهذه الفكرة تقرر من ناحية حق كل مواطن في ممارسة حقوقه السياسية ، ومن ناحية أخرى عجز جمهرة الشعب عن حكم امبراطورية كبيرة وحق الفرد الممتاز في تولي الحكم . ومعنى ذلك أن توكيديدس قد وضع نواة بعض النظريات السياسية التي نادى بها فيما بعد أفلاطون وأرسطو .

ولا جدال في أن اعجاب توكيديدس بريكلس إلى حد يخرج به عن موازنة الكمال يعد من جنوح توكيديدس مرة أخرى عن الحيدة التي يتسم بها بوجه عام . ولكن العمل له مقدراً ، فالفارق بين شاسع بين حكمة بريكلس المتسمة بشجاعة المتبصر ، وبين دعاوجية كليون المتهور أو زعامة نيقياس المقرونة بخور العزيمة أو جرأة الكيبيادس المشوبة بالمقصة الشخصية .

* * *

ويتضح مما سلف أن توكيديدس أول مؤرخ طبق أساليب البحث العلمي تطبيقاً دقيقاً على دراسة أحداث عصره . ولذلك فان الباحثين يتفقون على أنه إذا كان هيرودوتوس يعتبر أبا التاريخ فان توكيديدس يجب اعتباره أبا النقد التاريخي ، كما يتفقون على أنه قد أصاب نجاحاً باهراً في عمله ، ذلك أنه لا يخالف أحد في الاشادة بأمانته الشديدة ، وتقريره على الوجه ، ودقته البالغة في تحري صحة الوقائع وتواريخها ، ونزاهته بوجه عام إلى مستوى رفيع من الحيدة والانصاف . ولا يقلل من شأنه

---

(1) II. 65. 9. (2) II. 37. 1.

ما سبقت الإشارة إليه من انحرافه مرات معدودات عن هذا المستوى ، أو مؤاخذات على طريقته في التأريخ فهي ، رغم ما يشوبها من نقص وقصور ، عمل كبير على المحدثين في إعادة تأريخ كل حوادث تاريخ الإغريق القديم .

وإذا كنا لا نقر طريقته في تفسير الحوادث بما اصطنعه من خطب أو حوارات أجراها على ألسنة قوم كثيرين ، ولا نشاركه اعتقاده أن التاريخ يعيد نفسه ، ولا نتفق معه في الحكم على بعض المشاكل السياسية ، فإنا نعتقد أن كل ذلك لا ينتقص من أهمية تاريخه الخالد وقيمته العظيمة ، ولا يحط من قدر حكمته السياسية وتفكيره العميق ونظرته الثاقبة .

ولا يجوز بنا أن ننسى أن هذا الفيلسوف السياسي الذي خلق التاريخ السياسي كان ينظر إلى الوقائع باعتبار أنها وسيلة لغاية وهي إلقاء شعاع من الضوء عليها وتفسيرها تفسيراً يستند إلى المنطق السليم : فقد كان غرضه الأول البحث عن الأسباب الحقيقية للحوادث . ومن الانصاف أن نقرر أن ظواهر الأمور لم تخدعه مرة عن بواطنها . ولما كان ثوكيديدس في نظره تاريخ جماعات سياسية ، فانه كان يؤمن بأنه لا يمكن فهمه فهماً صحيحاً إلا على ضوء العوامل السياسية والاقتصادية والنفسية . وأما تداخل الآلهة والنساء في تكييف مجرى الحوادث فقد استبعده وإن لم يستبعد تأثير العناصر الدينية في ذلك . وفي الواقع لم تكن أهمية أخلاق الزعماء وكفايتهم في هذا الشأن . وقد برع توكيديدس إلى حد يفوق الوصف في تصوير عواطف الجماهير وعللها تصويراً يكشف عن أسر من الأسرار يماثل ما تكشف عنه مسرحيات شكسبير .

ونحن لا ننسى فيما كتبه توكيديدس مواهبه العقلية الممتازة فحسب ، بل نلمس أيضاً انسانيته الرفيعة وأحاسيسه السامية ، فهو يمقت الحرب ويحب السلم ، وتقزز نفسه مما كان يصاحب الصراع الحزبي من فظائع

وانهيار القيم المعنوية ، ويكره سياسة وطنه الاستعمارية ، ويفزع من انفضاض الى كرها مواطنوه الأثرياء بأهل جزيرة ملوس الضعفاء ، ومع ذلك فانه حب وطنه الى درجة العبادة على نحو ما يتجلى بأروع صورة في خطبة بريكليس . وما يجب تذكيره أن هذه الوطنية السمحة التي لم تمنعه من انتقاد وطنه لم تنأ به كذلك عن انصاف أعداء هذا الوطن الحبيب .

وإذا كان توكيديدس قد أهمل بعض جوانب تاريخ الحقبة التي كتب عنها ، وذلك هو شرح النظم المالية والعسكرية وتصوير الحياة الاجتماعية والعقلية السياسية في كل تلك الدول التي اشتبكت في ذلك الصراع الرهيب ، مما يترك في النفس أسى ولوعة لما حرمنا الحصول عليه من مؤرخ دقيق أمين له مثل منه النظرة الثاقبة وكل منه القدرة على تحري الحقيقة والوصف والتحليل والعرض ، فانه انعكس في كتابه صورة جلية واضحة العالم ليبته وما يعتلج في صدورها من عواطف وما يجول في خواطرها من أفكار وما يسيطر عليها من أخلاق وعادات . وهو في هذه الناحية أيضاً يشابه هيرودوتس إذ عدا ما برغم كل ما بينهما من اختلاف يبرزه بتكتل ملوس تمثال نصفي مزدوج في متحف ثابلي يصور توكيديدس وهيرودوتس وقد أدبر كل منهما ظهره إلى الآخر (١) .

وأخيراً ، لا جدال في أن نفضل كل ما نراه لتوكيديدس من صفات قد بلغ مستوى لم يرق اليه مؤرخ آخر في العالم القديم (٢) .

ابراهيم نصحي

---

(1) Marx, C.A.H., V. p. 418.

(2) Arnold, Thucydides, Introd., p. XVIII; Perry, Hist. of Greece, Eng. publ., Stobart, op. cit., p. 200; Bury, op. cit., p. 366; Cary and Haarhoff, op. cit. pp. 318 — 9; Meyer, Hist. of Greece, 1907, pp. 488 ff.

مدن الواحات في الصحراء الكبرى

دراسة في نشأة بعض المدن الواحية في الصحراء الكبرى

د. محمد حسان عوض

أستاذ الجغرافيا بكلية الآداب

الرباط - المغرب

١ – المقدمة

لا شك أن الصحراء تكون قطاعاً جغرافياً متخلفاً في حياته الحضرية. ومع ذلك فالصحراء ليست خالية تماماً من هذه الحياة، فقد قامت فيها في كل عصر وزمن نوايا وخليات للحياة الحضرية، ومثال ذلك مدينة بسكره في الصحراء الجزائرية الشمالية التي كانت قاعدة عسكرية في خطوط الدفاع الأمامية الرومانية. ولما كانت الحياة في الصحراء تخضع خضوعاً شبه تام لظروف الجفاف نجم عن ذلك أن الحياة فيها تكاد تقتصر على المناطق التي يتوافر فيها الماء. وعلى الرغم من أن بعض التجمعات البشرية قامت خارج الواحات الحقيقية، إلا أنه لا بد من أن نعترف بأن الحياة الحضرية ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالواحات التي احتضنت كثيرات المدن

والواحات الرئيسية . فإذا ذكرت الواحات انصرف الذهن إلى الزراعات المروية والحياة المستقرة والقرى بل والمدن . فهي هذه الجزر الصحراوية ذات الكثافات البشرية الكبيرة تساوي أعظم المدن ذات الطابع الشرقي الأصيل والمرتبطة بأساليب المعيشة المنبثقة من طبيعة الصحراء وجفافها .

ولا يعني ذلك إطلاقاً أن مدن الواحات تشكل النمط الوحيد للتجمعات الحضرية في الصحراء . فهناك ضروب ومواقع أخرى للاستقرار الحضري تتمثل في المراكز التجارية التي تقوم عند تقاطع الطرق والشعاب الصحراوية ، كما تتمثل في مدن الاتصال بين الصحراء ومناطق المناشئ المجاورة (الاستيب) في الشمال من جهة ، وبينها وبين مناطق المناشئ المدارية (السافانا) في الجنوب من جهة أخرى . وقد نمت هذه المدن عواقب الصحراء لقيامها على طوائف من منطقتين متباينتين من حيث الموارد الطبيعية والإمكانيات الاقتصادية . ومن الثابت أن ساعدت الدوافع الدينية إلى إنشائها وازدهارها كمدن إقليم مراكب . وأخيراً وليس آخراً نمت المدن الحديثة ، وهي تجمعات فريدة في نوعها نجمت عن استثمار الموارد المعدنية كما يوحي بذلك اسمها . وقد عرفت هذه الفئة الأخيرة من المدن في العصر الحديث تقدماً متقطع النظير ، وذلك بفضل استغلال خامات الحديد (موريتانيا) والفحم (الجزائر) والبترول (ليبيا والجزائر) كان أقوى المعادن أثراً في خلق مدن جديدة ظهرت تقريباً على دفعة واحدة ، هي تجمعات منعزلة في فضاء الصحاري الشاسع ، تكونت صورة مغتربة غريبة عن الوسط الذي تقوم فيه مبانيها العصرية والخاصة من مصانع ومناجم ومجهزة بآلات تكييف الهواء ، بها حوانيت ومخازن وفنادق سياحية ، كما أن بها ملاعب وحدائق وأحواضاً للسباحة .... وكل ذلك لم يكن ليوجد دون تكاثر بأنماط مدن يقطنها الرجال — والسكان من الرجال على وجه الخصوص — دون النساء . وتكون عموماً صورة

حضارية ليست من صميم الحياة الصحراوية وإنما هي من مستحدثات العصر .

إن المقام لا يتسع لأن ندرس جميع أشكال العمران في الصحراء . وحسبنا أن نحصر الكلام في مدن الواحات حيث قامت حياة حضرية قديمة جداً قدم الواحات ذاتها . على أن هذه المدن تعرضت في الآونة الأخيرة لطرات حضارية اختلفت قوة من مدينة إلى أخرى . وهذه الطرات هي نتاج عاملين رئيسيين : أولهما الاستعمار ، وثانيهما اكتشاف الثروات المعدنية وعلى الأخص زيت البترول . وقد مس هذان العاملان مدن الواحات بدرجات متفاوتة وصور مختلفة مما كان له أكبر الأثر في الشكل الذي اتخذه تطور هذه المدن . ولا بدّ لنا ونحن نحاول رسم صورة واضحة وصوحاً كافياً لمدن الواحات ان نجتنب الافراط في ذكر صغيرها لئلا الحصر كي نركز الحديث بنوع خاص على المدن الواحية الكبرى التي تناولها التحوّر والتغيّر في الآونة الأخيرة .

٢ — التوزيع الجغرافي

يكاد يتفق المشتغلون بالدراسات الصحراوية على التمييز بين ثلاث مراتب للصحراء : الصحراء الحقة الشديدة الجفاف ، والصحراء الجافة وأخيراً الصحراء شبه الجافة . والمقام لا يسمح بالتحدث عن هذا التقسيم والأسس التي بني عليها ، ولا بدّ لمن يطلب المزيد إلى أن يرجع إلى المراجع المختصة بهذا الموضوع . والصحراء الحقة هي ما يعنينا في هذا البحث . أما فيما يتعلق بحدودها في الصحراء الكبرى الافريقية فقد رسمها الأستاذ كابوري بخطين : أحدهما في الشمال وهو الخط الذي يتفق

وحدود النخيل الشمالية . على خريطة أن يصل تمره إلى النضج التام يتبع تسويته بسهولة . والخط الذي في الجنوب وينتهي والحدود بين نوعين من النباتات الطبيعية ، أولهما نباتات حولية صحراوية يسمح أمد ، وهي حشائش ترعاها الإبل في القسم الجنوبي من الصحراء ، وثانيهما نباتات كرم — كرم وتنتشر إلى جنوبها وترعاها الأبقار .

وفي داخل هذه الحدود بين من التوزيع الجغرافي لمدن الواحات أن أكبرها حجماً يقع في واحات القسم الشمالي الغربي من الصحراء الذي ينتمي سياسياً إلى الأقطار الثلاثة : ليبيا والجزائر والمغرب . وهذا الإقليم غني بالواحات الكبيرة الآهلة بالسكان مما دعا بعض الكتاب إلى أن يسميه بصحراء الواحات . ويؤكد توزيع المدن التي يزيد عدد سكانها عن ١٠,٠٠٠ نسمة هذه الظاهرة . فكما يتضح من الخريطة المرافقة تتركز جميع هذه المدن ، وعددها سبع مدن ، في الشمال الغربي . وجميعها — باستثناء توزر الواقعة في الجنوب التونسي — توجد في الصحراء الجزائرية . وفيما يلي جدول لهذه المدن نورده مع العدد التقريبي لسكانها .

مدن الواحات التي يزيد عدد سكانها على ١٠,٠٠٠ نسمة

بسكرة	٥٩,٠٠٠	الوادي	١٦,٠٠٠
الأغواط	٢٣,٠٠٠	تولغت	١٦,٠٠٠
غرداية	٢٠,٠٠٠	توزر	١٣,٠٠٠
		ورقلة	١٩,٠٠٠

وإذا أضفنا إلى هذه القائمة المدن التي يتجاوز عدد سكانها ٥,٠٠٠ نسمة لوجدنا أولاً مدينة آفاق (٦,٠٠٠) عاصمة بلاد أكوار ، وهي

المدينة الكبيرة الوحيدة في القسم الغربي من الصحراء . والواحات هنا قليلة الخير بادية مظهرها على الفقر والضنك . ثم إرفود (٥٠٠٠) عاصمة إقليم تافيلالت في جنوب المغرب . وتعتبر جموعات النخيل هنا من أكبر المجموعات العالمية وأغناها . أما الصحراء الجنوبية الشرقية في مدنها ، والمدينة الكبيرة الوحيدة هي آبشر (٤٠٠٠) عاصمة الطوارق الجنوبيين ، وهي مدينة أخذت فيها معالم الحياة الحضرية في الظهور ، بسبب استغلال تجارة القوافل بين السودان والصحراء .

فإذا ما انتقلنا إلى النصف الشرقي من الصحراء الكبرى ، هو الجزء الذي تحتله الصحراء الليبية فأهم شيء يلفت النظر هو أن الجماعات البشرية هنا قليلة العدد . وأكبر الواحات يوجد في فزان ، وهي منطقة غنية بالمياه ، تقع على أقصر الطرق المؤدية من البحر المتوسط إلى السودان عبر الصحراء . هنا وقد عرفت فزان بفضل موقعها التجاري الممتاز ثراءه من الوجهة النسبية ، ولكن البلاد هي في الوقت الحاضر بؤرة خانقة ، حيث أن بعض الواحات يبلغ وقد أخذ في أزمتها الشرب . ويعود هذا التدهور إلى انقطاع تجارة القوافل واختفائها . وهكذا هاجر السكان من فزان ، وازدحمت أمواج الهجرة قوة بانتشار مراكز انتاج البترول في الشمال وجذب هذه المراكز لسكان الصحاري ، ومدينة مرزق التي كانت عاصمة سياسية لفزان خلال خمسة قرون متصلة فقدت حالياً معظم وظائفها الدينية ، ولم تعد لها الأهمية التي كانت تتمتع بها ، حتى أصبح يتردد في نعتها الآن بالمدينة .

أما الواحات الخمس المنتشرة في الصحراء الغربية المصرية ، وهي سيوة ، البحرية ، الفرافرة ، الداخلة والداريد ، فسكانها قليلون . وتنظم كل منها عدداً من القرى يتراوح عدد سكانها بين بضع مئات من الأنفس

ربضة آلاف منها ـ ولئن دلت آثارها الفرعونية أو البونانية أو الرومانية على تاريخ عظيم قديم : فأكبر الظن أن مرد ذلك مواقعها الاستراتيجية كمعابر تجارية أو عاصمة وعاصر عند الحاجة : أو كمراكز تموين للجيوش التي تمر بها ـ ولا يعني ذلك بالضرورة أنها كانت أكثر عمراناً بكثير مما هي عليه الآن . هذا وتخرج مصر النيل ـ أكبر الواحات مراً ـ من نطاق هذا البحث نظراً لخصوصيتها الشاملة وتفردها الخاص ، مما يجعلها ملحقاً غائراً إذا.

٣ ـ القرية والمدينة في الواحات

للمدينة طابع خاص يجعلها تختلف عن القرية من أوجه كثيرة . ويتخذ العلماء أساساً للتمييز بينهما عدداً من المقاييس المختلفة . فمنهم من يتخذ حجم السكان وحده أساساً لهذا التمييز . ومنهم من يتخذ المقياس التاريخي أو الإداري أو المظهر الخارجي قاعدة للتمييز . ولعل التمييز بين القرية والمدينة على أساس شروب النشاط الاقتصادي التي يمارسها السكان ، سيادة بعض الحرف دون البعض الآخر هو أسلم قواعد التمييز . فالملاحظ أنه بينما يعمل السواد الأعظم من سكان المدينة في الصناعة أو التجارة أو الإدارة ، أو في كلها جميعاً بدرجات متفاوتة ، يعتمد سكان القرية على الزراعة وتربية الماشية . ومن ثم فاختلاف أسلوب الحياة بين المدينة والقرية يعتمد جوهره في الصف الأول من نوع الحرف الممارسة . وإذا كان الدارس ـ استناداً على هذه الاعتبارات والأسس ـ يتبين وضوح الفروق بين المدينة والقرية في معظم جهات العالم فإن الأمر قد يختلط عليه في بيئة الواحات بسبب تداخل مظاهر الحياة الحضرية والقروية

تداخلاً كبيراً في كثير من التجمعات السكانية بما لا نظير له في بيئات أخرى .

والقرية التي يطلق عليها اسم « القصر » في الواحات تتكون من مساكن متلاصقة مبنية من الطين ، وليست للأسوار فتحات خارجية باستثناء المدخل . وتفصل مجموعاتها طرقات ضيقة تراها طوراً مستقيمة تتقاطع في زوايا قائمة ، وطوراً أكثر منحنية ولا سيما إذا قامت القرية على تموه من الأرض أو على سفح تل . والطرقات في العادة مغطاة التي يتعي الذرة أشعة الشمس وحرارتها المحرقة . ولا جدال في أن لبعض هذه القرى طابعاً حضرياً يتجلى مظهره في السوق والحوانيت والمسجد ومختلف الصناعات التقليدية بها . وفي ذلك يقول الأستاذ جوتيه : « إن القصر مهما صغر حجمه فإنه ليس بقرية وإنما مدينة من الطين الجاف » .

وإذن فالمنازل القروية مظاهر المدن فإن لمدن الواحات بدورها بعض ملامح القرى . وكيف يكون الأمر غير ذلك : وقد نشأت بين النخيل أو على مقربة منه ، وما دام الفلاحون يكونون القسم الكبرى من سكانها . وليس نادراً أن نجد الأشجار وارفة الظلال خارج أسوار المدينة فحسب بل نجدها منتشرة أيضاً في أرجائها . ومما يتسم به التخطيط الصحراوي للمدن انعدام الساحات الكبيرة في داخلها إلا فيما ندر ، مما يضفي عليها بعض السمات القروية . ومع ذلك فالمنازل الحضرية تمتاز عموماً بجودة بنائها وزخرفة واجهاتها وتعدد طوابقها فضلاً عن أن مساجدها أوفر عدداً وأعظم حجماً ، بيد مآذنها أكثر علواً . وفيما وراء هذه المظاهر الخارجية فمن المسلم به أن ما يميز حقاً المدينة عن القرية هو وظائفها .

والوظيفة الأولى لمدن الواحات هي بالضرورة الوظيفة الزراعية التجارية ما دامت المدينة هو مركز المجتمع الفلاحي كما تمثله الواحة .

في القرية يقوم السوق لتبادل المنتجات الزراعية والحيوانية . على أن وجه الاختلاف بين سوق القرية وسوق المدينة هو أن للأول مواعيد معينة دورية في العادة مرة كل أسبوع . وفي ذلك اليوم تحتشد القرية بمظهر حشد البشرة . ولكنها لا تلبث أن تعود إلى نشاطها الملائم وكيانها القروي بمجرد أن ينتهي السوق . فإذا ما انفض التجار وأصحاب الحوانيت حول السوق بقية أيام الأسبوع أكد ذلك الطابع الحضري لسكان المدن جملة فرد أصحاب الحرف الأخرى وطوائف ضروب الخدمات .

ولا يقتصر الأمر في مدن الواحات على تبادل السلع المنتجة محلياً . فمن أسباب ازدهار حياة هذه المدن تجارة القوافل التي كانت تمر بها أو تجد فيها مرفأ لسفنها ولا سيما السلع السودانية التي كانت تجمع في الواحات أولاً ثم توزع من جديد في مختلف الاتجاهات . هنا وقد أصبحت المدن الواحية بحكمة قوية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على أثر تحريم تجارة الرقيق التي كانت تعد مورداً أساسياً لها .

ومن ثم فالظاهر الحضرية الصناعات التقليدية التي تمارسها عدد لا يستهان به من سكان المدينة والتي لا تقتصر منتوجاتها على حاجة المستقرين من سكان الواحات بل تتعداه إلى خدمة البدو الرحل أيضاً . على أن بعض الصناعات أصابها الكساد واندثرت أهميتها تغير رويداً رويداً أمام منافسة بعض الصناعات الحديثة التي استحدثت الثاني . ومع ذلك فقد احتفظ بعضها بشيء من نشاطه القديم ، وخاصة الصناعات الجلدية والمعدنية وصناعة الحلي والبسط . ومهما كان الأمر فإن تجمع هذه الوظائف المختلفة يؤدي إلى نوع من التخصص في الأحياء لا نجده بهذه الصورة في القرى . فهناك أولاً الدرة المركزية الحديثة للمدينة والتي تتألف من شوارع تحف بها من جانبين الحوانيت والمتاجر . وكثيراً ما

تتخصص بعض الشوارع في أنواع السلع التي تبيعها . وتتصل بهذا المركز متناولة فيه أو مستفيدة من الصناعات التقليدية . وأخيراً تمتد على الأطراف الأحياء السكنية حيث يعيش الموظفون غير بعيد من مقرهم . وفي هذا ما يدل على مدى الترابط بين كل من الوظائف الحضرية والقروية . وهذا الارتباط الكبير بينهما يستمد كيانه من المجتمع الواحي ذاته . وما المدينة هنا إلا صورة لمجتمع ، ولكن هذه الصورة لم تكن واحدة في كل وقت وزمان على نحو ما سنرى فيما بعد .

٤ ـ الأسس الاقتصادية لمدن الواحات خلال الفترة الاستعمارية

الصحراء الكبرى موزعة الآن بين مثالثة من الدول المستقلة ، غير أن هذه الصورة السياسية حديثة العهد . فقد كانت الصحراء إلى وقت قريب مثالاً للاستعمار الأوروبي ولا سيما للاستعمار الفرنسي الذي كان يبسط نفوذه على أراض فسيحة شاسعة في النصف الغربي من هذه الصحراء ، حيث تقع في أطرافه الشمالية أغنى واحات الصحراء بالماء والزرع والتجمعات الحضرية الكبيرة .

ومن أهم ما تخلف عن الفترة الاستعمارية من آثار تعزيز الوظائف الحضرية لمجموعة من المدن ؛ عندما ظهرت فيها المكنات والقواعد العسكرية أو المراكز الإدارية أو كلاهما معاً . فأفراد الجامية المرابطة يكتفون قسماً من مرتباتهم في المدينة : في متاجرها ومقاهيها وأماكن الترفيه والسهر بها ، والتي تقوم وترتبط بوجودهم . وتعد مدينة آلدر في موريطانيا مثلاً جيداً لمدينة استيقظت من بعد سبات عميق : وأخذ

يلعب فيها النشاط ، على أثر إنشاء مركز عسكري بها ابتداء من عام ١٩٠٩ . وقترن ذلك بظهور مركز اقتصادي حديث لما كان له أثره في انتعاش المدينة وإنشاء الجالية من جديد فيها . وبينما استحدثت مدينة شقيبه كعاصمة روحية ودينية لإقليم آثوار أصبحت آمارا المركز التجاري الرئيسي . ففي السوق التي تؤمها القبائل البدوية الكبرى ، يفدون إليها ليبيع إبلهم وأغنامهم ويشتروا السكر والشاي والدخان والبترول و... وبناء على الطرق أصبحت آمارا حلقة الوصل بين السودان من ناحية والمغرب من ناحية أخرى ، وزادت أهميتها الاقتصادية والتجارية . وكان من الطبيعي أن تتسع رقعة المدينة بإنشاء المكنات العسكرية والمواد التجارية ؛ ثم بقيام المباني الحديثة التي انتقلت من أجلها أعداد كبيرة من السكان الريفيين إلى حياة الاستقرار . كذلك ساهمت الوظيفة الحربية بنصيب كبير في نمو مدينتي الأغواط وورقلة حيث بنيت لهذا الغرض مبان ضخمة .

وفي العادة يتسع المجال الحضري كثيراً عندما تقوم مدن إدارية حديثة إلى جوار القصر القديم ، إذ تجذب هذه الوظيفة إلى المدن وظائف أخرى من أهمها الوظيفة التجارية . وتعد مدينة الواد من أبرز الأمثلة التي تستحق الذكر . وأصلاً لم تكن الواد مدينة بل كانت عبارة عن قرية ؛ لا تختلف في شيء كثير عن بقية قرى واحات الصوف إن لم تكن آنذاك أقل عنصراً من بعضها . ولكن منذ أن وقع عليها الاختيار لتكون مقراً للإدارة لهذه الواحات أخذت أهميتها في الزيادة حتى أصبحت أكبر المراكز شأناً ، فيها يقيم كبار التجار وعلى الأخص تجار الجملة ، وفيها توجد المكاتب الرئيسية لشركات النقل . وقد أضفت هذه الوظائف الإدارية والتجارية على الواد طابعاً حضرياً مميزاً . وامتدت أحياؤها الجديدة صوب الجنوب الغربي حيث تختلط الخيلات بالمباني العامة .

ومدينة توغرت في مجموعة واحات وادي الريغ تعد خير تعبير عن مدينة واحية تعززت وضيفتها التجارية تعزيزاً قوياً بفضل تجهيزات الري لمحوض الارتوازي الذي يعد من أكبر الأحواض الصحراوية وأكثرها صلاحية للاستغلال . هذا وقد استحدثت مساحات جديدة بل مئات هكتارات بساتين على أثر تفجّر المياه من جوف الأرض . وبفضل الآبار العذبة بناء كبش ري حوالي ١٠,٠٠٠ هكتار يشغلها نحو مليون ونصف مليون نخلة . ووادي الريغ هو أكبر إقليم في الصحراء انتاجاً للتمور (٤٠,٠٠٠ طن سنوياً) ، والمنتج الرئيسي لنوع الستر المعروف باسم دجلة نور (١٥,٠٠٠ طن) . وتتوسط مدينة توغرت المنطقة الجنوبية ، وهي العاصمة الشتوية لهذا المحوض . وتمتاز المدينة بنواحي نشاط متعددة ، فهي سوق يومية ، ومصدر كبير للتمور ، ومركز إداري ، علاوة عن أنها نهاية خط السكة الحديدية الذي يربطها بعنابة وسكيكدة عن طريق قسنطينة . وقد زودت توغرت مؤخراً بمطار .

والشائع في مثل الواحات أن تأتي الوظيفة التجارية في مقدمة الوظائف . ومن العوامل الهامة في تقوية هذه الوظيفة تقدم طرق المواصلات الحديثة من سكك حديدية وطرق معبدة بل مسارب أو دروب تربط الواحات بالأراضي الآهلة بالسكان والتي تمتد وراء الطوق الصحراوي ، وكذلك بالموانئ الساحلية التي تقع على مياه البحر المتوسط . وينطبق ذلك على مدينة توغرت ، كما ينطبق على مدينة نوزر عاصمة بلاد الجريد في الجنوب التونسي وأكبر منتج ومصدر للتمور التونسية . ومن أقوى أسباب تفوق نوزر كسوق تجارية موقعها في نهاية خط السكة الحديدية التي يربطها بصفاقس . أما بلدة تمسلة الموجودة في نفس المنطقة فلم تمتد إليها هذه المواصلات ، ولذلك ظلت قرية صغيرة (١٣,٠٠٠) على الرغم من أنها تضم عدداً من السكان أكبر مما تضمه نوزر .

وتتجلى هذه الوظيفة المحورية في أروع صورها في مثل مزاب ويوجد خاص في مدينة غرداية العاصمة . وقد اكتسب المزابيون شهرة واسعة من خلال عاداتهم وأسلوب معاشهم ، وهم يعتبرون أنهم منفصلون منعزلون عن عوالمهم ، وفي ذلك ما يبرر الحديث عنهم بشيء من التفصيل .

يقدر عدد سكان واحات مزاب خمسين ألف نسمة . وهذا العدد كبير بالقياس إلى امكانيات البيئة الطبيعية وموارد الاقليم . وتستمد حدائقهم بصعوبة من آبار يبلغ فيها سوى الماء ٣٠ وأحياناً ٤٠ أو ٥٠ متراً ، وتتم عملية رفع المياه بواسطة الجر الحيواني . وازاء ذلك يضطر المزابيون إلى استيراد الكثير من المواد الغذائية عدا في ذلك التمر من خارج واحاتهم . والجدير بالذكر أن مزارعهم وبساتينهم لا تكون موروثة عقارياً أو اقتصادياً لهم بقدر ما تشكل حيازتها وقفاً . والظاهرة الطريفة في الاقليم هي أن للمزابي دارين يحداهما في المدينة والثانية في ظلال بساتينه : مسكن في المستقر وآخر في البادية . وتراه يقضي وجميع افراد اسرته العام متواصلة بينهما . ويغادر المزابي مكانه في غرداية بالشهر القيظ (من حدود شهر أوائل ديسمبر) ينشد فيه الراحة والهرب من المدينة . وإذا رغب المزابيون في استلاك النخيل قصد التجارة والربح لجأوا إلى واحات أخرى غير واحاتهم ويوجه خاص إلى ورقلة القريبة من ديارهم .

وقد قيل في تفسير هذا التناقض الظاهري بين فقر البيئة وثراء السكان عدد من الأسباب التاريخية والدينية والدوافع الاجتماعية . فالمزابيون طائفة من الخوارج الاباضية ، هاجرت من المشرق إلى المغرب . فلما بلغوا أراضي مزاب اتخذوها مستقراً ومتعماً لهم على الرغم من جدبها النسبي ، كي يتفقوا مذاهبهم ما قد عسى أن يترتب بهم من ضروب الاضطهاد إن

هم حظر في الجهات الشمالية الغنية . وقد كان للمزابيين فضل كبير على تعمير هذا الاقليم وزراعة البساتين . غير أن صعوبة العيش دفعت الناس إلى البحث عن موارد أخرى خارج حدود واحاتهم . فمنذ بلغ السيل الزبى هاجر إلى مناطق الشمال وهي أوفر ماء وأكثر خصباً وأشد غنى : فيها يزول أهمال التجارة . وباجد والقارة قد يواتيه الحظ فيصبح من الأثرياء . هذا ويقدر عدد الذكور الذين يعيشون في المهجر بسدس عدد السكان . ويحتكر المزابيون تجارة القالة في المدن الجزائرية وهم في ذلك شديدو الشبه بأهل جربة في تونس وبالسوسيين في المغرب . ويسيطر كبار تجارهم على معظم الصفقات التجارية المرتبطة بالقالة . ولعل ممارسة غالبيتهم نفس المهنة هما يقوي روح التكاتف الذي يظهر بين الأشخاص المنتمين إلى نفس المهنة وهو ما يفسر نجاحهم التجاري . والمزابيون يحافظون على علاقاتهم وصلاتهم مع الأهل والقبيلة ولا يتخلون عنها وذلك على الرغم من قرارات الغياب الطويلة التي تفرضها عليهم طبيعة التجارة التي يمارسونها . ونادراً ما يصطحبون معهم زوجاتهم إلى حيث يعملون وبذلك تظل هجراتهم مهما طالت موقتة . فيعودون إلى بلادهم من آن إلى آن ، حتى إذا تقدم بهم العمر كانت أرض مزاب هي مثواهم الأخير .

والحياة في مدن مزاب مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهذه الهجرة وبالنشاط التجاري الذي تمارسه المزابيون مما يتيح لهم فرصة الحصول على الأموال الضرورية للعناية بالواحات وحدائقها ونخيلها ومنازلها : تلك العناية التي تتطلب نفقات باهظة . وإذا كانت الهجرة عاملاً من عوامل التفكك والتمزق فهناك عوامل أخرى قوية مضادة تقاوم هذه الاتجاه ، وتقوي العلاقة الشديدة بين الفرد وجماعته ، وذلك عن طريق الضغط الذي تمارسه الجماعة على كافة أعضائها : ثم عن طريق المذهب الديني والفرة

عليه ، عن طريق العلاقات الاجتماعية المتماسكة لا في مزاب فحسب ، ولكن حيثما كانوا : فلا يقطع المهاجرون صلاتهم بالأهل الذين يخلفونهم وراءهم في الواحة ، وكثيراً ما يتم الزواج داخل القبيلة .

ولعل أبرز ما يميز المزابيين عن سواهم هو أنهم استطاعوا الجمع بين صفات تبدو متناقضة قد صبّت في بوتقة واحدة . فقد حافظوا في بيئة صحراوية عدائية حياة تجاريه مثمرة ، تشرف عليها وتديرها جماعة متماسكة تركيباً قريباً بأحياب الدير ، وتعيش في نفس الوقت في حياة حضرية مترفة .

ولمدن مزاب مواضع معينة . فهي تقوم على هضاب صخرية حادة عالية أو على ذرى متصل بعضها بعض . وتحاط الدور بجدران عالية وتعدد طوابقها . وبها مساجد كثيرة تتميز بمآذنها شاهقة ، ومرافقها نظيفة وجميلة تحف بها أروقة جانبية مسقوفة . وصفوة القول أن هذه المظاهر الخارجية تدل على طابعها الحضري القوي .

وتحتل غرداية العاصمة مركز الصدارة من حيث حجمها (٢٠٠٠٠ نسمة) ، ومن حيث أهمية النشاط الإداري والتجاري والمالية التي تؤديها . والكثافة السكانية داخل المدينة — كما يستدل عليها من الأرقام الكبيرة ، إذ تتراوح بين ٧٠٠٠ و ٨٠٠٠ نسمة للهكتار الواحد . وهذه الكثافة العالية تعد من سمات المدن الصحراوية القديمة التي يكتظ فيها السكان اكتظاظاً شديداً على رقعة صغيرة من الأرض .

ومما هو جدير بالذكر أن لأصحاب التجارة من المزابيين صفات تمثل بعض دعامات نجاحهم التجاري : من أبرزها القدرة على التكيف مع مختلف الظروف . ففي عصر ازدهار تجارة القوافل نجحوا في تمويل قوافلها الرئيسية لكل اتجاهاتهم . فلما انحسطت وكادت تنقطع دنوا وجوههم شطر وسائل النقل الحديثة استجابة للتغير الذي شهدته الصحراء ، وعملوا

على استكمال حركة النقل وتنظيم خدماتها عبر قسم كبير من الصحراء . بذلك أصبحت غرداية المركز التجاري الرئيسي للصحراء الشمالية الغربية ، مما كان له آثار كبيرة في تقدم السكان بها .

* * *

من ذلك نرى أنه تحقق خلال الفترة التي نحن بصدد دراستها تقدم حضري لبعض التواكر الكبيرة التي نمت وتدهورت بفعل تغيير وظائف قديمة كانت تلائمها أو ظهور وظائف جديدة أخذت بها . وتمخض ذلك عن اتساع في رقعتها وتخصص في أحيائها . فإلى جانب القصور القديمة وتوابعها الحديثة التي تطورت في داخلها ظهرت أحياء للإدارة وثانيها الكبيرة ، وأخرى للتجارة بمخازنها ومشاريعها الواسعة بالقادمين والراحلين ، وثالثة للسكن الأوروبي بفيلاتها الأنيقة . وتمتاز هذه الأحياء الأخيرة بطرقاتها العريضة المستقيمة ، وبساحاتها المتسعة . وتشغل من أجل ذلك مساحة كبيرة بالقياس إلى السكان القليل الذي تأويها . ويرقى هذا إلى تقرير الحقيقة الآتية وهي أن تخطيط المدن الصحراوية في تلك الآونة لم يراع فيه الاختلاف بين الأحياء من ناحية الوظيفة فحسب ولكن أيضاً من حيث الكثافة الاجتماعية والعنصرية . وتوجد الأحياء على هذه الصورة ظاهرة عامة في مدن الشمال الأفريقي والشرقين الأوسط والأقصى وبعض مدن الأمريكتين . على أن هذه النوعية أكثر وضوحاً في المدن الصحراوية التي عرفت الاستعمار .

نخلص من ذلك إلى أن المدن الواحية الكبيرة التي أشرنا إليها ازداد سكانها وتعدد عدد سكانها نمواً كبيراً خلال هذه الفترة . وتعددت العوامل فتضمن أسباب هذه الزيادة الديموغرافية بعدها ترجع إلى عوامل ثلاثة : أولها التكاثر الطبيعي للسكان والذي يقصد به زيادة عدد المواليد على عدد

الوفيات . وثانيها مهاجرة القرويين من أعالي الواحات ونزوحهم من البوادي إلى المراكز الحضرية . أما العامل الثالث فهو استقرار البدو الذين استحال أمره طوال هذه الفترة على إثر القيود التي فرضت عليهم في تنقلاتهم الرعوية ، وكذلك انقطاع احتكارهم لتجارة القوافل وحراستها بعد الحرب .

ومن نماذج استقرار البدو التي تستحق الذكر استقرار جماعات المخادمة . تقع مواطن المخادمة بالقرب من واحات ورقلة إلى الشمال الغربي والغرب والجنوب الغربي منها . ويبلغ عدد أفرادها قرابة ٥٠٠٠ شخص . ونظام الحياة لديهم كان يمتد حتى عهد قريب إلى البداوة والانتقال من مكان إلى آخر ، وكانت بساطتهم تسمح في تجوالها إلى مسافات تتجاوز أحياناً ٤٠٠ كيلومتر من ورقلة مكان تجمعهم الرئيسي . وقد اضطروا تحت ضغط الظروف السياسية والاقتصادية التي أشرنا إليها آنفاً إلى التقليل من تنقلاتهم للحيوان ، وإلى الحد من تحركاتهم ، بينما ظلت نساؤهم وأطفالهم شتاء في مخيماتهم تحت أسوار المدينة . وقديماً كانت لهم بعض الدور في المدينة يستخدمونها صوامع للغلال ومستودعات . فلما طالت فترات مكثهم بالقرب من الواحة وازدادت حاجاتهم الغربية شيدوا عدداً من المستودعات بالقرب من مضاربهم خيامهم . ثم لم يلبثوا أن بنوا منازل من حول هذه المستودعات وبذلك انتقلوا من سكنى الخيام إلى سكنى الدور الطينية . وتقوم هذه الدور حالياً متناثرة بين أشجار النخيل إلى الجنوب الغربي من واحة ورقلة . وقد كان عدد الآبار الارتوازية منذ عشرين عاماً تقريباً أثر لا يستهان به في استقرار المخادمة . على أن هذا التحول عن حياة البداوة ازدادت سرعته ابتداء من عام ١٩٥٦ نتيجة لاكتشاف البترول والغاز الطبيعي وما صاحبهما من طلب متزايد على الأيدي العاملة .

إن المقام لا يتسع لأن نفيض الكلام عن البادية وحسبنا أن نختم الحديث عنهم بالاشارة إلى نسبة من احتفظ منهم بحياة البداوة . إنها لا تجاوز ٥ بالمئة من المجموع . فضلاً عن أن التنقلات الرعوية لم تعد تنقلات جماعية كبيرة في أوقات منتظمة ، بل تفككت وانقسمت إلى وحدات صغيرة ، تنقلاتها غير منتظمة ولمسافات قصيرة . وهكذا تحولت الغالبية العظمى من البادية (٩٥ بالمئة) إلى مختلف أنواع النشاط الفلاحي والتجاري والعسكري . حتى أن النشاط الرعوي في الأرياف الجزائرية أصبح أحياناً يستأثر بكثرتهم .

ومما لا ريب فيه أن نزوح الناس من البوادي ومن البادية إلى المدينة ترتب عليه أثر اجتماعي لا يخطر . فالقصر القديم يؤلف وحدة سياسية واجتماعية واقتصادية كما يؤلف وحدة قرابية . ولا تكاد تجد مثل هذه العلاقات والأواصر القرابية تتعدى حدود قصر إلى قصور أخرى إلا فيما ندر . أما المدينة الواحية الكبيرة فقد أصبحت تحوي أناساً من مختلف القصور ومن البوادي والبادية ، قدموا إليها من جهات جغرافية وقبلية مختلفة مما أضعف الصلات القرابية نوعاً . فبينما ظل القصر القديم محتفظاً بصلة القبيلة والرحم نرى المجتمع الحضري في إطاره الجديد أخذ يصوغ صياغة جديدة أسس العلاقات التي تربط بين أعضائه .

* * *

لقد آن الوقت لنقرر أن ثورة بادية للمدن الكبيرة التي استحوذت أو كادت الوظائف الحضرية والنمو الديموغرافي حققت نمو المراكز الصغيرة . فالنشاط التجاري أفاد من وجود الوظيفة الادارية والسياسية في المدن الكبيرة التي يتدفق إليها الأشخاص من مختلف النواحي القاصية لقضاء مشكلاتهم الادارية والقضائية . ومع أن يقيمون بذلك يتخذون فرصة وجودهم في المدينة لشراء بعض حاجياتهم من أسواقها ومتاجرها . وبذا

ساعد على ذلك وسائل المواصلات الحديثة التي أتاحت نقل الناس والسلع بسرعة من وإلى المدينة الكبيرة وتركز تجارة الجملة فيها . وكل ذلك أضعف من اتصال القرى المجاورة بالصحراء وبالعالم الخارجي إلا إذا كان هذا الاتصال عن طريق المدينة الرئيسية .

وفي هذا المجال تنبغي الاشارة إلى هذه المراكز التي كان يمكن أن ترقى إلى مرتبة المدينة ولكنها فشلت في ذلك . وتشرب لدان مثلاً مدينة فجيج في المغرب . تقع واحات فجيج في أقصى الجنوب الشرقي من البلاد ملاصقة للحدود مع الجزائر حتى صح عليها القول بأنها نهاية العالم . ولقد لا شك فيه أن مثل هذا الموقع المتطرف لا يساعد كثيراً على التطور الحضري . إلا أنه من الخطأ أن نعتقد أن فجيج مرشحة لتركز إداري كبير . كما أن بالواحة بورجوازية صغيرة تمارس التجارة وبعض الصناعات التقليدية وتأمين التعليم . وكل ذلك كان يمكن أن يصلح كدعائم للنمو الحضري .

وأهم شيء يستوجب انتباه الباحث هو هجرة سكان فجيج بأعداد متزايدة . وقد كانت هذه الهجرة في الماضي مرتقبة ، وكان المهاجرون يعودون إلى أوطانهم في فصل الخريف للقيام بالأعمال الفلاحية . ومنذ الحرب العالمية الثانية أصبحت الهجرة شبه دائمة . ولم تعد تقتصر على الذكور كما هي الحال في مراكش ، فضلاً أن معظم المهاجرين يتجولون إلى عمال سواء أكان ذلك في مراكز التعدين القريبة من فجيج في المغرب الشرقي أم في أوروبا وعلى وجه الخصوص في فرنسا . وبسبب هجرة العناصر الفاعلة الشابة أدرك التدهور حقول الواحة . كما أن بعض البيوت والغرف ، الخالية بعد أن رحل الكثير من أصحابها سعياً وراء الرزق في مكان آخر . ويبلغ عدد سكان فجيج ١٢,٠٠٠ نسمة وهذا العدد في تناقص . ونكاد نكون فجيج قرية أكثر منها مدينة ، وقصبتها في الواقع

هي قصة مركز حضري قد نقب معين تقدمه .

وهناك على عكس ذلك تجمعات قروية أخذت تشيع فيها النظام الحضرية ، وقد لا تعني عليها وقت طويل حتى ترقى إلى مراتب المدن . ومن أمثلة ذلك قصر الحرف في إقليم تافيلالت بجنوب المغرب . فعلى الرغم من الوفرة السكانية في واحات تافيلالت فإن الحياة الحضرية فيها تكاد تنحصر على وجود (٥٠٠٠ نسمة) وهي مدينة حديثة خلقت خلقاً حوالي سنة ١٩٢٥ لتكون المركز الإداري الرئيسي للإقليم . ومن القصور ما يتجاوز عدد سكانه ١٠،٠٠٠ نسمة ، وقرية الحرف يبلغ عدد سكانها قرابة ١٥،٠٠٠ نسمة . وهي ليست قصراً واحداً ، ولكنها عبارة عن ثلاثين أو أربعين قصراً التحمت بعضها فيلت قرية كبيرة ضخمة . ومن أهم ظاهرات التطور الحالي القريب على البادية من عالم الحضر فيها وتعدد أنواع النشاط التجاري وخلق الخدمات المرتبطة بالنطاق الفاصل ، وهناك أيضاً حاجيات السكان المتزايدة ولا سيما بعد انتشار التعليم بين أبنائهم .

٥ ـ الوظائف الجديدة

البترول والغاز :

بعيداً ما تقدم من شرح لتدهور الذي لحق الاستعمار الأوروبي وآثاره في الفترة الحالية للحرب العالمية الثانية ، ونتقل الآن إلى الحديث عن التغيرات الاقتصادية التي طرأت على الحياة الحضرية كنتيجة لاستغلال البترول . إذ الاكتشافات الحديثة لحقول البترول والغاز الطبيعي جعلت الصحراء تدخل في عمل اقتصادي من نوع جديد . وقد تأثرت مدن الواحات تأثراً إيجابياً حسناً بهذا النشاط ، وذلك عندما تقع المدينة على مقربة من أماكن التنقيب عن البترول أو من أحواض استخراجه . بل

إن مجرد وجود المدينة على خطوط الطرق التي تسلكها أنابيب البترول أو الغاز إلى موانئ التصدير كان من دوافع النمو الحضري .

إن امتداد استنباط البترول إلى الصحراء أدى إلى تدفق شديد لأفواج المهاجرين إلى المراكز البترولية طمعاً في تحقيق مستوى أرفع من الناحية الاقتصادية . وشارك في هذه الهجرة سكان الريف والبدو على حد سواء . وأخطر مشكلة اقترنت بهذه الهجرة كانت اختلال التوازن في سوق الأيدي العاملة في صالح الاقتصاد الحديث وعلى حساب أنواع النشاط التقليدية من فلاحة في الواحات أو حياة رعوية بدوية والتي يعيش أصحابها عادة في ظروف اقتصادية واجتماعية سيئة . وهكذا فتح اكتشاف البترول أمام سكان الصحراء أبواباً واسعة لحياة أوفر رغداً وأكثر رخاء . وقد جعل النشاط الجديد أهمية كبيرة للاقتصاد القطري . وبديهي أن الأجور المرتفعة والنشاط أدت إلى زيادة الطلب على المواد الاستهلاكية وبالتالي إلى زيادة المبادلات التجارية ، وعاد ذلك على المدن الواحية الكبيرة ولا سيما الأغواط وتوقرت وورقلة بأكبر النمو .

فمدينة الأغواط أصبحت مركزاً للإقليم حتى الرمل الغني بالغاز الطبيعي ، وتقع مناطق استخراجه على مسافة مائة كيلومتر جنوب شرقي المدينة . أما توقرت فقد أضيفت إلى وظائفها القديمة وظيفة بترولية وذلك منذ انشاء محطة ضخ خط أنابيب البترول الذي يصل حقول بترول حاسي مسعود عبر هذه المدينة إلى البحر المتوسط . وامتدت رقعة المدينة بعد أن قامت أحياء جديدة غربي المدينة القديمة على الطريق الذي يمر بها محطة ضخ البترول .

وتجد ورقلة مثلاً لمدينة التي ازدهرت بسبب تقدم الصناعة البترولية . غير أن تقدم المدينة لا يعزى إلى البترول وحده . فقد ارتبطت نشأة المدينة بادئ ذي بدء بالزرع في زراعة النخيل والبساتين وبازدياد أهميتها

كسوق كبيرة لسكان القرى والبدو الرحل نتيجة لتعزيز وظيفتها الإدارية . ثم تلا ذلك مرحلة التنقيب عن البترول وعمليات استخراجه . وفيها خطت المدينة في تقدمها خطوات واسعة . ذلك أنها لا تبعد بأكثر من ٧٠ كيلومتراً من آبار حقل مسعود مما جعلها ملاذاً ومدينة ترابوية يأوي إليها موجهو العمل وقليل من آل بلي كان المشتغلون باستخراج البترول . والمدينة موقع عمال يتوسط طرق المواصلات مما عزز وظائفها الإدارية وأكسبها أهمية كبرى . فلا غرو أن اختارتها السلطات عام ١٩٥٩ عاصمة لإقليم الواحات بدلاً من الأخواط التي تشغل مركزاً متطرفاً في خريطة المواصلات .

هذا ويقع القصر القديم على تل يتوسط الواحة . طرقاته ضيقة ملتوية ومعظمه جزئياً . على أن القصر لم يعد يتوي على استيعاب كل سكانه نظراً لزيادة الطرقة في أعدادهم ، ومن ثم بدأت تظهر المساكن خارج الأسوار . وفي نفس الوقت امتدت الأحياء العصرية إلى الجنوب الغربي بعيداً عن النخيل حتى لا تطغى مبانيها على الأرض الزراعية ، مكونة مدينة حديثة متطورة ، تتجمع فيها مختلف المباني الإدارية والفنادق ودور السينما والمحلات التجارية من كل نوع . وقد أدى ذلك إلى انهيار القرى وخاصة النموذجية لسيارات النقل إلى أن أصبحت ورقلة مركزاً رئيسياً للمواصلات صوب الجنوب والجنوب الشرقي وهو منطقة البترول والغاز . وأخيراً فإن سوف يمر بها خط السكة الحديدية الآتية من الشمال .

بديهي أن هذه المدن الثلاث — الأغواط وغرداية وورقلة — لم تكن لترتقي ويتضخم فيها العمران على هذا النحو لو أن نشاطها اعتمد فقط على مواردها وحدها بما يتصل بهذه الموارد من مبادلات تجارية محدودة . على أنه لا بد من أن نشير أيضاً أن ازدهار هذه المدن الثلاث يتوقف

بقلاسة ولأسبابها الاقتصادية . فاكتشاف البترول واستغلاله أدى إلى حالة من حالات الاضطراب وفقدان التوازن نجمت عن الانتقال من نمط اقتصادي تقليدي إلى اقتصاد يقوم على أسس حديثة عصرية .

ويجدر بنا الآن أن نعيد النظر في حالة أجدز (في النمسا) . فقد سبق أن أشرنا إلى أن مدينة أجدز اضمحلال نتيجة تطور تجارة القوافل . على أن هناك بريق أمل في إحياء المدينة بعد اكتشاف مناجم واسعة من الصخور التي تتضمن مركبات الأورانيوم في منطقة آرلبرج التي لا تبعد عنها بأكثر من ستين كيلومتر . والفرض أن تقوم مدينة معدنية تضم بضع مئات من الأوروبيين وبضع آلاف من الأفريقيين . ونظراً إلى أن المحتوى المعدني لخامات الأورانيوم ضعيف فسيصبح تكريزه محلياً أمراً ضرورياً بغية تفادي نقل الخامات الفقيرة مسافات بعيدة . ولا بد أن يكون لوجود هذه المركز الصناعي أثر طيب على مستقبل مدينة أجدز .

السياحة :

من بين الوظائف الرئيسية التي ظهرت في المدن — وكانت أيضاً سبباً لنشأتها — الوظيفة السياحية ، وهي مظهر حديث من مظاهر حياتنا المعاصرة سجل تقدماً كبيراً في السنوات الأخيرة ، علاوة على أن السياحة تشكل قطاعاً اقتصادياً غير هين بالنسبة لكثير من الدول . وقد عانت الواحات السياحية ، فيما عانت من انتشار ، الصحراء ، وليس غريباً أن يدب فيها هذا النشاط . فالصحراء تثير مرتاديها بآفاقها الواسعة الرهيبة ، وبفضل ما لها من روعة ورهبة ، ومن جمال وجلال ، وظيفة سياحية ليست بالضرورة وظيفة حضرية . ولكن في الصحاري يصعب تصور قيامها خارج الواحات . ومن ثم كانت المدن الواحية مهيأة

لا تتوفر في مراكز سياحية لا سيما وأنها تحتاج لوجود بعض المرافق الحضرية الضرورية كشبكة المياه التي تؤمن حاجة سكان المدينة من مياه الشرب وشبكة المجاري التي تجمع المياه المبتذلة وتسحبها إلى منطقة بعيدة عن المدينة وتصرفها بطريقة صحية ؛ وشبكة التيار الكهربائي للإنارة ... وكل ذلك يعيق عملية التجهيز السياحي في هذه المدن أقله مبدئياً ويسبب سيولة ما في أي جهة أخرى.

وقد أعلنت بعض الحكومات التي لها نصيب في الصحراء في بلد كثير من الجهد والعناية بشؤون السياحة . ففي المغرب مثلاً وضع المخطط الثلاثي للسنوات ١٩٦٥ و ١٩٦٦ و١٩٦٧ السياحة بين أهداف الأربعة الرئيسية . كذلك ترصد الجزائر وتونس وليبيا مبالغ كبيرة من ميزانيتها لإنماء الفنادق والمنشآت السياحية المختلفة . ولئن كان صحيحاً أن المناطق الصحراوية في هذه الأقطار لا تستأثر بكل هذه المبالغ إلا أن نصيباً منها لا يستهان به . على أن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن في هذا المجال هو إلى أي حد يعتبر التوسع السياحي في الصحراء عملية مربحة للدولة من الناحية الاقتصادية . فإذا لا شك فيه أن هذا التوسع يتطلب عدة تسهيلات وحقنات تجعل الأقاليم الأخرى تكسب منها . لكن في رأينا أن النهضة السياحية في الصحراء تعتمد على الإعلانات التي تذيعها الدولة بشأن تيسير أسباب المواصلات البرية وتعبيد الطرق وصيانتها وبناء الفنادق والقيام بأعمال دعائية أولية لا معدى من القيام بها كتوصيل التيار الكهربائي إلى المنشآت السياحية وتزويدها بالمياه وذلك في جهات كثيراً ما تكون مجردة من هذه المعالم الأولية . ومن جهة أخرى فإن العمل السياحي في الصحراء يتميز بقصره ويكاد ينحصر في فترات العطلات الشتوية والربيعية . فابتداء من مايو حتى أواخر سبتمبر ترتفع درجة الحرارة وتشتد حتى تكاد تغيظ . ولا يرتاح الناس إلى ارتياد الصحراء آنذاك . ويترتب على ذلك أن ينخفض معامل استخدام الطاقة الإسكانية

لفنادق في أن يقل عدد الأيام التي تصبح فيها الفنادق عامرة بالسياح .

ومع ذلك لا بد من التسليم بأن الجانب الإيجابي لهذا النشاط لا يمكن تجاهله . وآية ذلك أن منطقة الفنادق في غرب مسقط في كل جهة بها أحركة سياحية تسجل تقدماً مطرداً حتى في بعد أشهر الصيف خالية من أفواج السياح .

وهناك خاصة من خواص الواحات متصلة بالسياحة نشير اليها إشارة وجيزة وهي أن ذلك النشاط لا يقوم مستقلاً بذاته وبنفسه ، ولكنه مرتبط بالمراكز السياحية الكبيرة التي تقع على حدود الصحراء . ولهذه المراكز دوراً مهماً كحلقة وصل بين العالم الخارجي وعالم الواحات . ففي جنوب القطر التونسي مثلاً توجد مدن تتمتع بشهرة سياحية عالمية وتتوافر على فنادق متنوعة المراتب والدرجات ، ومن أبرزها مراكش وأكادير . ولا يعتبر فقط الارتكاز الرئيسي منها نقطة الرحلة — وهذا أبسطها إن اعتدال الجو ورقي الهواء — بل وارتفاعات وأجرة وأرقى .... وغيرها من المدن الصحراوية التي أصبحت مقصد السياح ومحل الزوار يتهافتون عليها من أقاصي المعمورة .

وأخيراً يمكننا أن نسجل من نتيجة الدراسة للسياحة كعامل من عوامل التنمية الاقتصادية والنهوض بالواحات وعمرانها . إذا استثنينا المدن الواحية التي مسها الاقتصاد البترولي أو التي أسبغها الوظائف الإدارية والتجارية ما سبقت الإشارة إليه هذه العالمية العظمى من مراكز تجمع السكان لا تستطيع اعتبارها مدناً صريحة على الرغم من أن عدد سكانها قد يصل إلى أكثر من عدة آلاف نسمة . وإذا أمعنا النظر في بعض هذه المجتمعات ذات النسمة الحضرية أدركنا أن هذه النسمة تولدت من أن هذه المراكز في الواقع قد أصبحت المحور الوحيد الذي تدور حوله الرحلة

الذي دب فيه الخمول . ومن ثم كانت الأعمال المرتبطة بالتوسع السياحي من شق الطرق وبناء الفنادق مما يساعد — ولو بصفة مؤقتة — على امتصاص العاطلين ، فضلاً عن أن السياحة يمكن أن تؤدي إلى استعادة الصناعات التقليدية القديمة لبعض — إذا لم يكن كل — نشاطها القديم ، وتقتضي ذلك تردد موارد السكان . كذلك قد تكون السياحة حافزاً على أن تجد المنتجات الزراعية المحلية سوقاً رائجة لا ترتكز فقط على التوسع الحضري وغير المباشر في الإنشاءات نفسها ولكن أيضاً على الأسواق الجديدة بفضل الطعام الذي طرأ على وسائل النقل .

لا مراء إذن في أن السياحة تكون بارقة أمل لازدهار الحياة في الصحراء . ويصرف النظر عما إذا كان التوسع السياحي فيها بشكل عملية اقتصادية سريعة فإنه أداة من أدوات اخراج الصحراء من عزلتها وإشاعة العمران فيها .

* * *

بسكرة :

لما كانت بسكرة أكبر مدن الواحات في الصحراء وأعظمها شأناً رأينا أن نفرد لها فقرة خاصة في هذا البحث ، ذلك أن المدينة تكاد تحتكر كافة الوظائف التي نجدها متفرقة في المدن الواحية الأخرى حتى أصبحت بسكرة ميزاناً توزن عليه الوظائف .

تحتل المدينة موقعاً ممتازاً عند نهاية منخفض ينتهي بين جبال أوراس من ناحية وأطلس الصحراء من ناحية أخرى . وقد كان هذا المنخفض على مر العصور منفذاً ورابطاً مهماً جداً بين الأقاليم الصحراوية في الجنوب من جهة وبلدان البحر المتوسط شمالاً من جهة أخرى . وللمدن

لم تكن عسكرة لها نجد الوظيفة الحربية في أصول المدينة . فقد كانت حلقة من سلسلة خط الدفاع الأمامي للإمبراطورية الرومانية . وبعد أن توارت هذه الوظيفة زمناً من الزمن عادت إلى الظهور أيام العثمانيين والاحتلال الفرنسي حين أصبحت مدينة تزايد فيها حامية عسكرية كبيرة .

أما وظائفها التجارية والاقتصادية فتستند إلى الموقع والموضع . فعسكرة هي السوق الكبيرة والمركز الرئيسي لبلاد زيبان ، وهو إقليم خصب بواحاته ، يقع في حضيض جبال الأطلس حيث تمتد منخفضات عظم تنتظم في مجموعات من الواحات الكبيرة الآهلة بالسكان ، الغنية بالنخيل وأشجار الفاكهة . ولقد جذب موضع المدينة طرق المواصلات الرئيسية فأصبحت سهلة الاتصال بالعاصمة الجزائر بواسطة كل من الطريق البري وخط السكة الحديدية ، كما أنها أصبحت ملتقى جميع الطرق والمسارب الصحراوية التي تخرج منها جميع الاتجاهات تقريباً . وأخيراً فإن المدينة تقوم على خط السكة الحديدية الذي يربط بوفرت في الجنوب بقسطينة في الشمال . هذا وتتمتع عسكرة بمركز الصدارة في بلاد زيبان . ولقد مست بها مدينة سيدة تمتد سيادتها إلى أميال من الواحة وغيرها ، وتتركز فيها النشاط الإداري والتجاري .

وفي أواخر القرن التاسع عشر تشهد المدينة ظهور وظيفة جديدة تضم إلى وظائفها الأخرى ، ألا وهي الوظيفة السياحية . ولا يمضي وقت طويل على ذلك حتى تزدهر هذه الوظيفة وتبنى من أجلها فنادق فخمة يؤمها الأثرياء من السياح ويوجه خاص البريطانيون هرباً من الشمس وعن الشتاء . وقد تضافرت عدة عوامل كي تحتل عسكرة مكانة مرموقة في عالم السياحة من أهمها سهولة المواصلات إليها ، وموقعها عند مدخل الصحراء وبالقرب من جبال أوراس ذات المناظر الخلابة ، ثم مناخها

مياهها واعتدال حرارتها شتاء . ويجدر أن نذكر أنه أثر على هذه الواحة حين من الدهر عيسى عليه السلام . على أن النهضة الحديثة بحقيقتها والرغبة في الكشف عن آفاق جديدة غير مألوفة جعل الصحراء تجلب اليها السياح من جديد . وأخيراً فإن المدينة تستهم بنصيب في النشاط البترولي ولو أن ذلك بطريقة غير مباشرة . فبسكرة تقع على مر رئيسي يربط أقاليم الجزء الشمالي بالصحراء الجنوبية : ويمثل الطريق البري وخط السكة الحديدية . ثم إن المدينة محطة رئيسية لخط الأنابيب الذي ينقل البترول منذ عام ١٩٥٨ من حوض حاسي مسعود إلى عنابة .

٦ ـ خاتمة

تكشف لنا الدراسة الجغرافية للمدن الواحية الكبيرة عن تغير جوهري طرأ على حياة الصحراء في السنوات الأخيرة ، يتمثل في تعدد وظائفها وازدياد عدد سكانها واتساع رقعتها . فحتى عهد قريب كانت معظم التجمعات في الواحات أقرب إلى القرى منها إلى المدن . ويرجع ذلك إلى أن أهم ما يميز مدن الواحات عن سواها هو تداخل الوظائف الحضرية والقروية فيها تداخلاً كبيراً . وظلت المدينة التقليدية الكبيرة خلال عصور عديدة مركزاً إقليمياً لسكان الواحات من المستقرين ونقطة لجاذبية البدو الرحل .

وقد صاحبت الفترة الاستعمارية ظاهرتان قد تبدوان لأول وهلة متناقضتين ولكن في الواقع متكاملتان ، فلاحظ أولاً أن الكثير من هذه المراكز أصابه الاضمحلال من أثر انقطاع تجارة القوافل وتحريم الرقيق ، وبتدهور المبادلات التجارية تدهورت بعض الحرف والصناعات

التقليدية نظراً لضعف القوة الشرائية لدى سواد الجماهير في الواحات على أن بعض المراكز والأسواق الكبيرة اضيفت إلى وظائفها القروية وظائف جديدة حربية وإدارية وتجارية ما لبث أن نموها وازدهارها .

ولكن النقلة الحضرية الكبرى لمدن الواحات ترتبط باكتشاف البترول واستغلاله . وارتبط ذلك بظهور اقتصاد حديث قام فيه الفنّ مقام القابضة زاد الدخل وحسنت الأسواق . ذلك أن تدفق البترول في الصحراء ساعد على خلق مجالات للعمل في حقول البترول من جهة وفي المدن المجاورة للحقول في هذا النشاط من جهة أخرى . وكان لا بدّ للمدينة من أن تتجاوب تجاوباً فسيحاً مع الاقتصاد الجديد وحاجات السكان ومطالبهم وتلبيتهم في السلع الاستهلاكية . فازداد عدد التجار وأصحاب الحرف المختلفة ، كما نشأت عدة شركات للخدمات من بنوك ومكاتب بريد وشركات نقل ... وكان لكل ذلك أبعد الأثر في ازدهار نمو المدن بسرعة غير مألوفة خلال حقبة قصيرة من الزمن . ونحن إذ نشير إلى هذا النشاط الذي يستند على الطلب المتزايد للأيدي العاملة يجدر بنا ألا نغفل أن عدد العاملة الكبيرة إلى الأيدي العاملة من طبقة عمليات الانتاج البترولي في مراحله الأولى . فإذا ما وصلت آبار البترول إلى أوج انتاجها قلت الحاجة إلى الأيدي العاملة غير المتخصصة . هذا ومن أوجه النشاط الاقتصادي الحديث في مدن الواحات السياحة ، وهي تكون مصدراً جديداً للثروة .

ومن أكبر المشكلات المرتبطة بالطلب المتزايد على الأيدي العاملة في القطاع الاقتصادي الحديث هو من غير شك حرمان الفلاحة الواحية من عناصرها العاملة التي انجذبت بدورها نحو مراكز انتاج البترول والمناجم حيث أو حيثما المدن . فسكان الواحات أصبحوا يفضلون نواحيهم وبالعمل النقي الذي لا يؤمّن العيش — بصرف النظر عن الميل

الكريم – لهم وللوريم ، حتى أن الأجور التي يتقاضونها في مراكز العمل البعيدة – مهما كانت ضئيلة – فهي بالنسبة إلى ما يجنيه الزارعون كبيرة . وقد نجم عن نزوح الأيدي العاملة من الواحات أن انكمشت الرقعة المزروعة وعلى الأخص في الجهات التي لا يعتمد فيها الري على مياه الآبار الارتوازية . ففي واحات فزان تقلصت المساحات المزروعة إلى ثلث ما كانت عليه منذ خمسة عشر عاماً تقريباً . بل إن من الواحات ما أصبح قاعاً صفصفاً بعد أن هجرها أهلوها ، فقفروا من جناتها وبساتينها كواحات وادي الشاطئ التي أصبحت تنساب فيها المياه وتفقد مورد استغلال لها .

وتعاني الواحات مشكلات اقتصادية واجتماعية على درجة كبيرة من التعقيد ليس هنا هذه المرة مجال الحديث عنها . ومن رأينا أنه من الخطأ محاولة الابقاء بكل الوسائل على اقتصاديات الواحات في صورتها الراهنة . صحيح أن الواحات كانت مكانها خلال عصور طويلة بمجموعة تكاد تكون كاملة من الموارد ، وظلت عن طريق انتاج يعتمد على الاكتفاء الذاتي . ومن الواضح أن هذا الشكل من الاقتصاد عفى عليه الزمن ، شيء بتغير الحضاري الذي طرأ على هذه الجهات ، وبحيث لنغير مفهوم الأزمة ومفهوم الحل فيها عما كان عليه منذ سنين قليلة خلت . ولعل أفضل وسيلة لعلاج أزمة الواحات هو قبول التطور الحالي والعمل على توجيه اقتصادياتها ومنتجاتها بما يتجاوب مع الحاجيات الجديدة والاقتصاد الحديث .

حسان عوض

قائمة ببعض المراجع الرئيسية

ARRUS, G. 1966. La démarche écologique de Tricart en 1965. Trav. de l'Institut de Rech. Sah. Alger, n° XXVI, p. 229-237.

BATAILLON, C. 1955. La Seif. Etude de géographie humaine. Alger. 248 p. (Mém. n° 4, Inst. de Rech. Sahariennes).

BENYOUCEF, M. 1988. La pluviométrie en Algérie. Rétrospective. Centre National des Statistiques).

LA PLACE-HEIT, 1952. Le Sahara français. Paris, P.U.F., 564 p.

1980 CENSUS OF AGRICULTURE, 2000. Tripoli and Tarhuna, Libyan Authority of Agricultural.

DESPOIS, J. 1968. Problèmes techniques, économiques et sociaux des zones sahariennes. Rev. Tunisienne de Sciences Sociales, N° 2, p. 5-31.

DESPOIS, J. & RAYNAL, R. 1967. L'Afrique du Nord-Ouest. Paris, Payot, 408p.

FEDOUX, H-T. 1948. L'Homme et le Sahara. Paris, Gallimard. 307 p.

GAUTIER, E-F. 1928. Le Sahara. Paris, Payot, 225 p.

GEOFFEY, F. 1960. The Lands of Barbary. London, John Murray. 355 p.

HARRISSON, R. 1967. Migrants in the City of Tripoli, Libya. Geogr. Rev. Vol. LVII, N° 3, p. 397-408.

KERVAN, L. 1961. L'expansion d'Oyonga. Cahiers et Travaux d'Outre-Mer 3e 56, p. 787-791.

MARTINELLI, P. 1958. La révolution du pétrole dans un pays tropical sous-développé, le Libye. Les Cahiers d'Outre-Mer. 3e 69, p. 5-31.

[illegible], A. 1962. [illegible] Rev. de Géogr. du Maroc. 3e 1, p. 47-74.

TISSIN, J.P. 1963. Aspects géographiques de l'expansion du tourisme au Maroc, Rev. de Géogr. du Maroc 3e 3/4, p. 59-66.

محيي الدين صابر ونويس كامل مليكه ١٩٦٦ . الإدارة والتنمية ، مفاهيم ومناهج . مركز تنمية المجتمع العربي : سرس الليان : ١٧٠ ص .

الفلسفة اليونانية في المغرب والمشرق

للدكتور عبد الرحمن بدوي
رئيس قسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول
وأستاذ بكلية الآداب بجامعة السوربون

أفلس جومبرتس — وهو يتحدث عن المدرسة القورينائية في كتابه الطافح بعنوان : « المفكرون اليونانيون » (ج ٢ : الفصل التاسع ، ص ٢٠٩ من الترجمة الانجليزية ، ص ٦٦٦ من الترجمة الايطالية) — في وصف بادية قورينا (شحات حالياً) فقال ان الفقداء والباحثين عن الصواء قد تفقوا على الإشادة بموقعها الرائع ، وبثراء الأفق المحيط بها ، ولناحية الجنوب تحميها سلسلة جبال من الرمل وحرارة الصحراء ، وتحدر أنني قدم فوق سطح البحر ، على مرتفع من الهضاب ينحدر تدريجياً صوب البحر على بُعد درجات السلم ، قد بارك الله حولها بقطر يغيض ، يذكرنا اعتداله باعتدال شاطىء كاليفورنيا ، وقد بنيت المدينة على « المصدر الرائع » (هي عند كتير بئار جبين) الذي جعل ، حول ينبوع يتدفق تدفقاً قوياً من حجر جيري — ، نعم لقد كانت قورينا تجمل في الأيام البديعة ، ولا تزال تجمل الرحالة الذي يزور أطلال

وأشد المناظر التي تبدو للعين سحراً وفتنة . (هيبوليت تارت) . وعلى منحدر التلال الخضر والأشجار العميقة : التي تمرح بالغزير من الرقم والأمن ، والأقاحي والدفلى : ينحدر البحر في علوه منحدراً الى البحر الأزرق الفرد ، ذلك البحر الذي غنى عبابه في الأيام الخالية مهاجرون قدموا من جزيرة أبرا ومن البلوبونيز ومن جزر السيكلادس — الى هذه البقعة السعيدة التي كانها صنعت خصيصاً للإشراف على الأفق المحيط والتباعد البعيد الذي تقطر منك . وحضارة البيزانيين في القرون الثالثة وانشاء الطرق أحرزت هذه المنحدرات عظيمة . لعن طريق تشييد الدرجات والمنحدرات والأرصفة : كنوز تحاكي الهضاب التي كونت بالشكل الطبيعي للأرض — ان عديد من الطرق الفسيحة التي نحرجت على شكل حلزوني العرائية من شاطىء البحر حتى المرتفعات . وبشق جدران الصخر العالية على جانبي الطرقات فتحت أبدع في تزيينها بالمعادن والرسائم . وعندي هي بالداخل الى غرفة الدفن الحديدة — أجل ! انها مدينة الموتى لا تقبر ها على وجه الأرض . وكل شيء دفن وجد قبل ان يتجدد حتى في مجراه الجوي : واستخدمت هذه الكنوز المتجددة من أجل زينة الحقول والبساتين . وعلى منحدرات الجبل كانت ترعى قطعان الضأن التي كان صوفها عالي القيمة : وفي مروج العشب الغزير تسرح الثيران البيضاء التي اختارت الفكر بجوار السواقي في الهاب الأعياد التي كانت تجري في أوطان الأم (في بلاد اليونان) ».

كما تحقق بهذا الوصف الرائع لتوريا : كاتون يوتل (« تاريخ الفلسفة القديمة » مجلد ٣ ص ٩٢٦ وما يليها) و ف ه . لانجه (« تاريخ المادية ونقد معناها في العصر الحاضر » مجلد ١ ليبسك سنة ١٨٩٨ ط ٦ ص ٣١) و ج . ولكاته (« الفيزيوقراط » : ص ٥ وما يليها ؛ ميلانو سنة ١٩١٦) — وهم في هذا قد استندوا الى ما يشير اليه الشعر بتدار في الفواتيسة الرابعة ، وهيرودوتس (الكتاب الرابع ١٥٧ — ١٥٨ ، واسترابون (« X VII, 827 ») .

ويبدو ان مؤرخي الفلسفة هؤلاء الذين تسطوا في شرح مقالات منطقة فوريا الطبيعية : انما قصدوا من وراء ذلك ان يفسروا لنا نشأة الفلسفة ابداعية ان الفذة في هذا الاقليم بالذات . وهو تفسير مبالغ فيه من غير شك ، اذ لم يكن زائفاً كله ، لان المكان لم يعد كثيراً ما أثبت فلاسفة على طرفي نقيض في تصوراتهم الاخلاقية والكونية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى لم تثمر قوريا بهذه المقالات الطبيعية حتى تنتج وحدها فلسفة المثل التي دعا اليها ارسطيفوس وانباعه .

على ان حياة ارسطيفوس ، ومذهبه يعوزهما الشك في كل شيء تقريباً :

١ — فحتى مكان ميلاده ، وهو قوريا ، امر وان كان عليه اصحاب المصادر الحديثة : انه في العهد البرزاني المتأخر جداً ، لان المصادر القديمة لم تذكر لنا شيئاً عن مكان ميلاده : كما لا نجد ديوجين[1] يحق .

٢ — واسم ابويه غير مؤكد : فهل اسم امه ديكلا او Soeira ؟ هذا امر اختلفت فيه رواية النصوص ؛ وكذلك اسم ابيه ارتباد Artabe هذا امر لم يذكره غير سوداس في معجمه (مادة اسم : ارسطيفوس ج ١ ص ٤٠٦).

٣ — وتاريخ ميلاده مجهول تماماً ، والترجيح المذكورة عن حياته تنحصر في :

(أ) قول ديودورس الصقلي[2] ان ارسطيفوس كان لا يزال حياً في

---

1. Dupréel: La légende socratique et les sources de Platon. Bruxelles. ... 1922, p. 333

2. Diodore: Bibl. Hist. X , 21.

* جمع Cristina Gnemmocchi النصوص القديمة الخاصة بالقورينائيين ونشرها مع ترجمة ايطالية ودراسة مستفيضة تحت عنوان: I Cirenaici testimonianze e frammenti. Milano. Società Editrice Unitaria. 1938. عن مرجع في موضوع المدرسة القورينائية وقد ظهر له الكتاب الاخير E.A. Braun في مؤتمر Rennes سنة ١٩٥٠ في ٢١٠ صفحة .

السنة الثالثة من الدورة الأولمبية رقم ١٠٣ (= ٣٩٦ ق. م.) .

(ب) وقد أورده فلوطرخس (Plut. Nic. 1) من أن أرسطيفوس التقى مع الأفلاطون الذاهب لمقابلة ديونيسيوس الثاني في صقلية ، كما في سنة ٣٩٨ ق. م.

(جـ) ولعل الخبر الوحيد اليقيني هو أن أرسطيفوس كان في أثينا سنة ٣٩٩ ق. م. حين كان سقراط في أثينا يتجرع السم ، كما ذكر ذلك أفلاطون في محاورة « فيدون » Phaedo 59 c .

٩ — أما متى رحل الى أثينا فمتشعب عن سقراط فأغلب الظن أن ذلك كان في سنة ٤١٦ ق. م. ، ولكن ليس لدينا سند واحد لإثبات صدق هذا التاريخ ، إنما هو مجرد افتراض ، كما افترضوا أيضاً أن تاريخ ميلاده يعود الى سنة ٤٣٥ ق. م. أو في سنة ٤٢٧ (كما هو رأي أنسر : « فلسفة ديوذنيس » ج١ ق ١ ص ٣٣٩ تعليق ١) .

كما يختلفون في الدافع الى التلمذة على سقراط ، فأرسطيبس إنما أتى الى أثينا مجذوباً بشهرة سقراط (ديوجانس اللائرسي ج٢ ص ٦٥ ، نشرة هكس) ، ويذكر فلوطرخس رواية أخرى وهي أن أرسطيبس لقي ، أثناء الألعاب الأولمبية ، أنطيثانس ، فسأله عما يجعل الشباب يثابر بسقراط ، فذكر له بعض أقوال سقراط ، مما أثار إعجابه فسافر الى أثينا ليلقى سقراط ويأخذ عنه .

لكن الروايات القديمة لا تحدد لنا نوع العلاقة التي نشأت بين هذا الشاب وبين سقراط ، ومهما لا نستطيع أن نحدد مدة اتخاذ التلميذ عن أستاذه ، وأن أي مدة يمكن أن يعد تلميذاً حقاً .

---

١ — Hermann : de Aristot. S. p. 838 ; وعن Hermann

٥ ـ ولقد ذكرنا انه كان مغيباً عن البيا حين خرج سقراط سم الدوكران في سنة ٣٩٩ ، اذ كان ، كما يذكر افلاطون ، في مدينة ايجينا .

على ان من المرجح ان ارسطوفانس قد مارس التأثير ابان حياة سقراط ، وانه كان يتقاضى عن تعليمه اجراً كما كان يفعل السوفسطائيون ؛ وهو امر كان يتنافى مع مبادئ سقراط ، حتى ليقال انه رسل ذات مرة نقوداً الى سقراط ؛ ولكن هذا رفضها لأنه عرف مصدرها وهو التعليم بأجر وهو امر كان يستنكره سقراط . وكان يتقاضى اجراً باهظاً ، بلغ الف درهم من الطالب الواحد لدراسة التي تستغرق ثلاثة او اربعة أعوام .

ماذا كان يعلم تلاميذه طوال هذه المدة ؟ لقد كان يحاضرهم دروساً في المشاكل التي تتعلق بالسياسة العملية ، بينما لم تشغل دروس الاخلاق المركز الرئيسي في هذا التعليم .

وبعد موت سقراط اخذ ارسطيبوس في التنقل بين المدن اليونانية ، ويذكر المؤرخون من بينها : كورنثوس ، ريجيوم ، وايجينا ، واسكيلونته وآسيا الصغرى ، ثم خصوصاً سراقوسة في صقلية حيث التقى هناك بأفلاطون في بلاط ديونيسيوس الكبير (الحجر) .

بيد ان المصادر لا تعد لنا لتاريخ هذه الأسفار ؛ ولا كيف انتهت حياة ارسطيبوس ، ولا يذكر مصدر واحد منها انه عاد الى وطنه الأصلي قورينا .

٦ ـ اما عن مبادئه فقد اختلفت آراء المؤرخين منذ القدم حولها .

---

1 . Diog. Laer., II, 65.

وقد قسم ا. ديوجانس اللائرتي (ج٢ ص ٨٤ – ٨٥ نشرة هيكس) كتبه : ارجا وأقدمها يشمل :

١ – « تاريخ ليبيا » في ثلاث مقالات ؛ وقد أعده ان ديونيسيوس في مرقومة .

٢ – كتاباً يشتمل على ٢٦ عنوانة نعرف عنوان ٢٣ منها .

والكتاب الثاني الذي يذكره ديوجانس عن سوتيون وبانيتيوس يشتمل على ١٢ عنواناً ، من بينها ستة لا يمكن ردها الى واحد من الكتب المذكورة في القسم الاول وهي :

١ – في الخريبة	٢ – في الفضيلة
٣ – بروتريبتيكوس	٤ – الى سقراط
٥ – في البخت	٦ – الهاجي ؛ في ست مقالات

وديوجانس نفسه يذكر أن بعض الرواة يؤكدون أن ارسطيفوس لم يكتب غير هذا الأخير – كتاب الاهاجي في ست مقالات – ، كما يذكر أن بعض الرواة الآخرين وبينهم سوسيقراط الروديسي يؤكد أن ارسطيفوس لم يكتب شيئاً. وينكرون أن يكون قد كتب أحد من تلاميذ سقراط عدا ثلاثة فيما عدا الافلاطونيين واكسينوفون وأنتستانس واسخينوس، وربما ايدون واقليدس الميغاري ، وبعد هؤلاء – ومنهم طبعاً ارسطيفوس – لم يكتبوا أية عبارة .

على أنه لم يصلنا أي كتاب من هذه الكتب كلها التي نسبت الى ارسطيفوس ، إن كان قد ألف شيئاً . وكل ما بقي لدينا هو بعض مكاتبات تنسب اليه وبعض العبارات والفقرات التي اعتقد بعض المؤرخين المحدثين أن من الممكن أن تكون صحيحة النسب إليه ، من بين هذه

غير قليل من الآداب والحكم التي نسبت اليه في المصادر اليونانية واللاتينية المتأخرة .

أرسطيفوس والفوريناورث في المصادر العربية

وحكذا تبدو شخصية ارسطيفوس بصفة عامة : غامضة جداً ، تحيط الشك بكل ما يتعلق بها من اخبار ؛ ويحظ الاختراع والانتحال والاسطورة في كل ما يتصل بأخباره أكثر بألف مرة من حظ التاريخ والواقع الصحيح .

فاذا حاولنا أن نجد في المصادر العربية ما يزيد علمنا في هذا الباب لم نجد شيئاً . فلنأخذ في تحليل الاخبار والنصوص التي وردت عن ارسطيفوس والفرقة الفوريناية في هذه المصادر العربية .

أ – اخبار الفرقة ومؤسسها

واول ما نعثر عليه هو ادخال الفرقة الفوريناية في تصنيف المدارس الفلسفية اليونانية الى سبع مدارس أو فرق ؛ عُنيت باحصاء الفرق لما من سبعة اشياء : جعلها من اسم الرجل العلم للفلسفة (أعني مؤسس الفرقة) ؛ والثاني من اسم البلد الذي كان فيه مبدأ ذلك العلم ؛ والثالث من اسم الموضع الذي كان يعلّم فيه ؛ والرابع من التجسير الذي كان يجسبر به ؛ والخامس من الآراء التي كان يراها في علم الفلسفة ؛ والسادس من الآراء التي كان يراها في الغرض الذي كان يقصد اليه في تعلم الفلسفة ؛ والسابع من الأفعال التي كانت تظهر في تعلم الفلاسفة » (راجع الملحق رقم ١) . والفرقة المسماة من اسم البلد الذي كان فيه الفيلسوف هي فرقة ارسطيفوس من أهل قورينا .

وهذا التصنيف ذكره الفارابي في رسالة « هل ينبغي أن يقدم قبل تعلم الصناعة الصناعة » (راجع نشرة ديتريصي لبعض رسائل الفارابي تحت عنوان : « البهجة المرضية من الرسائل الفارابية » ص ٥٠) . كما يذكر القفطي أن حنين بن اسحق الترجمان وأبا نصر الفارابي وغيرهما من العلماء الفلاسفة قد ذكروا هذا التصنيف ، ولكن لم يبق لنا الموضع الذي ذكر فيه حنين بن اسحق هذا التصنيف .

من أين استقى حنين والفارابي هذا التصنيف ؟

إننا نجد هذا التصنيف بحروفه وأصله في المصادر اليونانية التالية :

١ — شرح ألفيلوبونس على « مقولات » أرسطو (ص ٣ : ٨ نشرة بوسه Busse في « مجموعة » الشروح اليونانية على مؤلفات أرسطو » ، المجلد رقم ١٣ ، طبعة الأكاديمية برلين .

٢ — شرح الباس على « مقولات » أرسطو (ص ١٠٨ س ١٥ الخ نشرة بوسه المذكورة ج ١٨) .

٣ شرح سنبليوس على « مقولات » أرسطو (ص ٣ ، نشرة كالفنبلس في المجموعة المذكورة المجلد رقم ٨)

وابن السمح لا يذكر من هذه الشروح غير شرح سنبليوس (ص ٢٠٨ س ١٩) : بينما يذكر شرح فورفوريوس واصطفن وثامسطيوس . لكنه لا يذكر هذه الشروح كلها مترجمة الى العربية . وهذا لا تستطيع أن نقطع بيقين أن المصدر الذي نقل عنه تصنيف الفرق اليونانية السبع هذه هي الشروح اليونانية الثلاثة أو أن هناك مصدراً تاريخياً عاماً نقله الفارابي وحنين وغيرهما هذا التصنيف ، والمهم هو أن حنين أن هذا التصنيف كان شائعاً لدى الشراح اليونانيين المتأخرين ، ومنهم انتقل للشراح العرب .

وإذن عرف العرب اسم المدرسة الفورفيرية واسم مؤسسها : على اختلاف في كتابة اسمه : أرسطيس (الفارابي ، القفطي)، أرسطيس (القفطي ص ٧٠ ليبرت)، أرسطيوس (ترجمة الخطابة لأرسطوطاليس، ص ١٦٠ من المخطوط) ثم ترجمة ما بعد الطبيعة مع تفسير ابن رشد ما ص ١٥٥ نشرنا بوبج) : وكلها كتابة صحيحة حسب القواعد التي رسمت في تعريب الحروف اليونانية .

* * *

أما عن حياة أرسطيوس فنجد الفصل الذي كتبه القفطي (ص ٧٠) ؛ وفيه يقول انه من أهل فورفيريا ، وهذا متفق مع المصادر القديمة ، لكن ما يلبث أن يعطي من يقول ان فورفيريا في القديم هي رابية بالشام عند حمص ، والله اعلم ! وقد رأيته مكتوباً في موضع : فرفني » .

من أين وقع القفطي في هذا الخطأ ؟

من كلامه يبدو أن ما دعاه الى هذا الافتراض هو انه رأى اسم ارسطيوس في موضع من التاريخ مقروناً بنسبة : الرفني — ومن هنا يبدأ تفسير الافتراض .

حول اشتينشنيدر (« التراجم العربية عن اليونانية » ، في المجلد الخامس بابرخس ص ٣٤٩ — ٣٥٠) ان يشرحها ، فقال (بعد أن قرأها : لرفي nnaiz أي بالزاي المعجمة) إن هذا اللفظ تعريف لاسم يونانيا مختلفا يلك ابرخس الذي عاصر القفطي بينه وبين ارسطيوس كما سنرى بعد قليل .

رفي نظرنا ان رأي اشتينشنيدر خطأ لسببين : الأول ان القفطي إنما كان بصدد ما هي « فورفيريا » في القديم وأين تقع ، وثانياً أن رسم

كلمة : بوثيا ، بعيدٌ جداً عن « برقي » ـ فلا يمكن ان تكون هذه تحريفاً لها .

ونرى نحن ان القفطي حين قرأ النسبة : « البرقي » مشوشة بالرسم أرسطيفوس : حاول ان يفسرها وان يربطها بفورينا ما دام قد ذكر عنه انه « من أهل فورينا » ، فظن ان فورينا هي برقية عند حمص بالشام .

والذي أدى بالقفطي الى هذا الغلط هو التحريف في قراءة : « البرقي » ، ونرى ان صوابها هو : « البرقي » ، نسبة الى برقة : حيث توجد مدينة فورينا ، كما ان اقليم برقة هو فورينا . وهذا نفترض ان المصدر الذي نقل عنه القفطي قد حاول ان يبين ما هي فورينا في العهد الاسلامي : ووجدها هي برقة ، ومن هنا نسب ارسطيفوس الى برقة ، فقال : « البرقي » اي الفورينائي .

وبهذا نحل هذا الاشكال الذي لم يستطع تفسيره احد من الباحثين حتى اليوم .

* * *

وبعد حل هذه المشكلة نمضي في تحليل مقال القفطي عن ارسطيفوس فنجده يقول عنه : « إنه من فلاسفة اليونانيين : له ذكر وتصدر ، وكانت له شيعة » . ثم يحدد هذه الشيعة بأنها من بين الفرق السبع التي ذكرها في ترجمته لأنالاوس (ص ٥٣) : ويقول إن اصحابه يعرفون « باليورينائيين » نسبة الى البلد : اي الى فورينا .

ثم نال من فلسفة هؤلاء الفورينائيين إنها « جهلت .. في آخر الزمان ، لحقت للسفة الثانية » ، ويقصد ان فلسفة ارسطو الثانية قد غلبت وسيطرت ، اضاع العلم بفلسفة الفورينائيين .

بيد انه لم يذكر شيئاً عن حقيقة هذه الفلسفة الفورفيرية ، وكل ما هناك انه وصفها بوصف غامض جداً ، وخاطىء جداً في نفس الوقت وهو انها « هي الفلسفة الأولى قبل ان تتحقق الفلسفة » . ماذا يقصد بكلمة « الأولى » ؟

من الواضح انه لا يقصد المعنى الاصطلاحي ، اي : « ما بعد الطبيعة » ، لانه يجعل الأولية هنا اولية في الزمان إذ يقول : « قبل ان تتحقق الفلسفة » .

هنا لم يبق إلا أن نفسر بمعنى انها فلسفة سابقة على الفلسفة الأفلاطونية والفلسفة ارسطو الحالية ، وهما الفلسفتان الحقيقيتان ، وعلى هذا فان فلسفة ارسطيفوس كانت قبل ان تتحقق الفلسفة بالمعنى الكامل لدى افلاطون ولدى ارسطو خصوصاً ، وهذا امر حق .

ب — الفلسفة الفورفيرية في المصادر العربية

والغريب ان المصادر العربية كلها لم تذكر الخامسة الجزء للعب ارسطيفوس ومدرسته ، وهي انها تقول بالمثل ، ذلك ان المصادر الاخرى التي ذكرت اسم ارسطيفوس في العربية هي ترجمات ارسطو الى العربية ، وذلك في موضعين :

(أ) كتاب « الخطابة » (ص ١٦٠ من نشرتنا ، القاهرة سنة ١٩٥٩) .

(ب) « ما بعد الطبيعة » (بتفسير ابن رشد ، ج ١ ص ١٨٨ ، نشرة بويج في بيروت سنة ١٩٣٨) .

وهذا الموضعان الوحيدان في كل مؤلفات ارسطو اللتين ذكر فيهما اسم ارسطيفوس صراحة . والموضع الأول (ويقابل ص ١٣٩٨ ب ٢٩ في نشرة بكر) يورد قولاً لأرسطيفوس موجهاً الى الافلاطونيين ولكن

هذا الأخير يتحدث بغرور وصلف واستعلاء ، فقال له : إن : صاحبنا (أي سقراط) لم يكن يتحدث على هذا النحو ، من الاستعلاء ، بل كان يناقش ويأخذ ويعطي ، ويحترم حق الغير في المناقشة وإبداء الرأي ويجادل القول على سواه .

أما الموضع الثاني (وبقابل ص ٩٩٦ أ ٣٢ من نشرة بكر) فجاء عندما تكلم ارسطو في مسألة : هل يتسبب في علم واحد ، أو أن علوم كثيرة : دراسة كل أنواع الأسباب ، فيذكر أن ارسطيفوس ذكر أن الرياضيات لا تبحث في الخير والشر .

* * *

لكن الباحثين في تاريخ الفلسفة اليونانية قد وجدوا مواضع أخرى في كتب ارسطو تروي آراء المدرسة الفيثاغورية دون أن تذكر اسم ارسطيفوس. وهذه المواضع هي :

(أ) : الأخلاق الى نيقوماخوس ، ، مقالة الأولى فصل ١١ ص ١٠٩٩ ب ١٢ من نشرة بكر ، ثم مقالة الأولى فصل ١٢ من ١١٥٣ أ ١٣ .

(ب) ، ما بعد الطبيعة ، :

١ — مقالة نجمًا فصل ٥ من ١٠٠٩ ب ١

٢ — ، ، ، ، من ١٠١٠ — ١

٣ — ، لو ، ٣ من ١٠٧٨ أ ٣١

(ج) : بروارديكوس ، شذرة ١٠ ب ، ١٦ ، ١٧ ، ٥٤ .

والمواضع في «الأخلاق الى نيقوماخوس» موجودة في الترجمة العربية التي لا تزال مخطوطة في خطوط القرويين بفاس .

والموضعان الأول والثاني في « ما بعد الطبيعة » موجودان في الترجمة العربية الواردة ضمن تفسير ابن رشد (جـ ١ ص ٤١٢ ؛ جـ ١ ص ٤٣٠–٤٤٠) . أما الموضع الثالث وهو الوارد في مقالة اللام فلا يوجد في تلك الترجمة لوقوفها عند مقالة الكاف .

أما شذرات « بروتوبيكوس » فلم تترجم الى العربية .

فان صح ان هذه المواضع تروي حقاً آراء المدرسة الفيثاغورية فسيكون العرب قد عرفوا هنا القدر من الأقوال عن الفلسفة الفيثاغورية، دون ان يعلموا إنها تعبر عن آراء هذه المدرسة ، هذا ان صح حقاً انها هنا ، وهو امر لا يزال بحاجة الى التأييد الايجابي .

أما المواضع التي وردت في محاورات افلاطون ، ويرجح انها تتعلق بالفلسفة الفيثاغورية ، فلم تترجم كلها الى العربية ، فيما نعرف من مصادرنا (ابن النديم ، القفطي ، السجستاني ، ابن ابي اصيبعة ، اليشر بن فاتك ، الخ) ، وعلى كل حال فلم يصلنا شيء عنها في ترجمة عربية . وهذه المواضع توجد في محاورات افلاطون التالية :

١ — « ثياتيتوس » (ص ٢٨٤ ب) .

٢ — « جورجياس » (ص ٤٩١ د ؛ ٤٩٤ جـ ؛ ٤٩٤ هـ) .

٣ — « فيدون » (ص ٦٧ أ ؛ ٦٨ د) .

٤ — « فيدون » (ص ٥٩ جـ ؛ ٦٨ د) .

٥ — « لاكيوس » (ص ١١ ب ، ١٢ ب ؛ ١٣ ب ؛ ٢٧ د ، ٣١ د ، ٣٢ أ ، ٤٢ جـ ، ٤٤ د ، ٥٣ جـ ، ٥٤ جـ ، ٦٠ أ ، ٦٥ د ، ٦٦ د ؛ ٦٧ أ) .

٦ — « بروتاغوراس » (ص ٣٥١ ب ، ٣٥٣ جـ ؛ ٣٥٦ أ ، ٣٥٨ أ) .

٧ ـ « السياسة » (الترجمة خطأ بعنوان الجمهورية) : (ص ٤٧٩ ب ، ٥٠٥ ب ؛ ٥١٦ جـ ، ٥٤٣ ب ، ٦٠٥ جـ) .

٨ ـ « المغسطائي » (ص ٩٤٥ جـ) .

٩ ـ « الثيئتوس » (ص ١٥٢ جـ ، ١٥٦ أ ، ١٨١ ب) .

ونحن لا نجد في المصادر العربية ما يدل على ترجمة محاورات افلاطون الا فيما يتعلق بأربع منها هي :

(أ) « الطيماوس » بترجمة حنين بن اسحق ويحيى بن عدي .

(ب) « المغسطائي » بترجمة اسحق مع شرح الفيدروس .

(جـ) : طيماوس » بترجمة ابن البطريق ، ثم حنين بن اسحق الذي اصلح ما ترجمه ابن البطريق او قام بترجمة جديدة . كما ان يحيى بن عدي صحح احدى الترجمتين .

(د) « السياسة » كما يدل على ذلك تفاسير ابن رشد لها بالتفسير .

وعلى هذا فقد نقل الى العربية على الاقل هذه المواضع المختلفة بالفوريقايين في محاورات افلاطون التالية : « السياسة » : و « المغسطائي » . لكن الأمر بالنسبة الى هذه المواضع يشابه نفس ما حدث بالنسبة الى المواضع في كتب ارسطو : اي انه لم ترد فيها اشارة صريحة الى اسم ارسطوفانس او للمدرسة الفوريقائية . وهكذا عرف العرب هذه المواضع دون ان يعرفوا انها انما تشير الى ارسطوفانس او للمذهب الفوريقائي .

وفي مقابل ذلك نجد ابن رشد قد فسّر المواضع الواردة في « ما بعد الطبيعة » لأرسطو . وهذا سبهم في بيان المذهب الفوريقائي وأرد عليه، وبذا كان لم يتنبه ان هوية الذين يهاجمهم ارسطو في هذه المواضع . وهي

كل حال فقد أسهم ابن رشد بهذا القدر فيما يتعلق بالفورفيرية . وهذا أوردنا في السياق الجامع للنصوص تفسير ابن رشد هذه المواضع .

• • •

ويضاف الى هذه النصوص والاخبار قليل جداً من الحكم والآداب نسبت اليه في « صوان الحكمة » للسجستاني : وفي « مختار الحكم ومحاسن الكلم » ٢ للمبشر بن فاتك الآمري . لكن المهم في هذا كله انه لا يوجد في هذه الاخبار ولا في هذه الآداب اية اشارة الى مذهب اللذة الذي وضع له ارسطبخوس والمدرسة القورينائية .

ولعل هذا يفسر لنا اختيار النصوص المتعلقة بنظرية اللذة لدى الفلاسفة المسلمين من اسم ارسطيفوس والمدرسة القورينائية . اذ لم يذكره محمد بن زكريا الرازي في مقالته « في اللذة » ٣ ، ولا ابن سينا في السبط الثامن من « الاشارات والتنبيهات » ، وهو الذي استهله بدراسة معنى اللذة ، ولا الراوندي وقطرمي شرحا هذا الكتاب ، ولا مسكويه في « تهذيب الاخلاق » حين بحث في اللذة (ص ١٠٠ — ص ١١٢ ؛ نشرة زريق ؛ بيروت سنة ١٩٦٦) ، وانما كانت هذه الابحاث كلها مستمدة مما كتبه ارسطو عن اللذة في « الاخلاق الى نيقوماخوس » (المقالة السابعة ، الفصول ١١ — ١٤ ، والمقالة العاشرة ، الفصول

---

١ ابو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني ، « صوان الحكمة » ، تحقيق بدوي آتا برام ، ١٩٧٤ ، ورقة ٨٤ الوجه ، الى ورقة ٨٥ الوجه ، الفصول ٢٠٠ — ٢٠٣ .

٢ المبشر بن فاتك ، « مختار الحكم ومحاسن الكلم » ، تحقيق عبد الرحمن بدوي ، مدريد ١٩٥٨ .

٣ ابو بكر محمد بن زكريا الرازي ، « في اللذة » ، تحقيق بول كراوس ، القاهرة ١٩٣٩ .

١ – د) ، ولم يرد فيها إشارة صريحة الى اسم ارسطوطاليس ، كما ذكرنا من قبل .

والخلاصة :

١ – ان العرب عرفوا اسم ارسطوطاليس ، وانه من فيثاغورث ، وانه يقول بالعدد حسبما في المقولة .

٢ – وعرفوا نصوصاً لأرسطو وأفلاطون تتعلق بمذهب ارسطوطاليس ، دون ان يعرفوا انها تتعلق به ، فكأنهم عرفوا فلسفة ارسطوطاليس والفيثاغوريين دون ان يدركوا انها هذه الفلسفة .

٣ – ولم يعرفوا عنه انه صاحب مذهب في المادة ، ولذا لم يشيروا اليه في كلامهم في المادة على كثرتها وتفصيلاتها ، بل ربما اختلط امرهم في المادة عند ما كتبه ارسطو ، وربما بما كتبه افلاطون .

٤ – ونسبوا اليه اقوالاً حكمية عامة ونوادر ، وكلها صحيحة ولا تكشف عن مذهبه .

٥ – وأدركوا ان ثمة فرقة فلسفية يونانية سبقت الى فيثاغورث دون ان يحددوا زمنه .

٦ – وان الفيلسوف قد نسب الى كتابين في الرياضة هما « المجسم » ويعرف بالمجسمات » ، ثم كتاب « قسمة الاعداد » ، وهذا خلط وقع فيه الفلسفي وهو ينقل عن ابن النديم ، فخلط بين ما لأرسطوطاليس وما لأبرخس او لديوفنطس ، وهو خلط نشأ لأسباب مادية بحتة : بأن أوائل ما لأبرخس او ديوفنطس في العقود المتعلقة بأرسطوطاليس .

النصوص العربية المتعلقة بأرسطاطاليس
والمدرسة الفيثاغورية

١

فرق الفلسفة

القفطي : « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » ، نشرة لبرت ، ليبتسج سنة ١٩٠٣
من ٢٥ س ٣ — ص ٢٦

« وذكر حنين بن إسحق الرجان وأبو نصر محمد بن محمد الفارابي المنطقي وغيرهما من العلماء بالفلسفة أن فلاسفة اليونانيين صنفوا فرقا ، سميت بأسماء اشتقت لها من سبعة أشياء : أحدها من اسم الرجل العالم الفلسفة ، والثاني من اسم البلد الذي كان فيه مبدأ ظهور العلم ، والثالث من اسم الموضع الذي كان يعلم فيه ، والرابع من التدبير الذي كان يدبر به ، والخامس من الآراء التي كان يراها في علم الفلسفة ، والسادس من الآراء التي كان يراها في الغرض الذي كان يقصد فيه في تعلم الفلسفة ، والسابع من الأعمال التي كانت تظهر عليه في تعلم الفلسفة .

« أما الفرقة المسماة من اسم البلد الذي كان فيه الفيلسوف : فشيعة أرسطاطاليس من أهل قورنا ؛ وأما الفرقة المسماة من اسم الموضع الذي كان يعلم فيه الفلسفة فشيعة كرسطس وهم أصحاب الظلة ؛ وسموا بذلك لأن تعليمهم كان في رواق مدينة أثينة . — وأما الفرقة المسماة من تدبير أصحابها وأخلاقهم فشيعة ديوجانس ، ويعرفون بالكلبية ؛ وسموا بذلك لأنهم كانوا يرون اطراح الفوائض المفرطة في المدن على الناس وعبة الفاريم وبعض غيرهم من سائر الناس ، وربما يوجد هذا الخلق في الكلاب . — وأما الفرقة المسماة من الآراء التي كان يراها

اصحابا في الفلسفة الشيعة[1] ...

وأما الفرقة الثالثة من الآراء التي كان يراها اصحابنا في الوزن الذي كان يزنه به في علم الفلسفة فشيعة ابيقوريس[2] ويسمون اصحاب اللذة لأنهم كانوا يرون الغرض المقصود به في علم الفلسفة : اللذة التابعة لعزائها . وأما الفرقة الثالثة من الأفعال التي كانت تظهر منها شيعة افلاطون وشيعة ارسطوطاليس ، ويعرفون بالمشائين لأنهم كانوا يعلمون الناس وهم يطوفون كما يرتاض الرجل مع رياضة النفس ...

٢

لفظي من ... عشرة فيرث

أرسطوطاليس

من أهل نوريا ، ويقال بل فوريا في الشام هي رفيعة بالشام عند حمص ، وله اسم آخر يكتب في موضع : اوثيس .

وله من الأسفار الرياضية ، له ذكر وتصدر ، وكانت له شيعة ، وكانت في الفلسفة الأولى قبل أن تتحرر الفلاسفة ، وكانت فرقة من

---

[1] هذا القسم مأخوذ من تاريخ حنين بن اسحاق ، من : مقالات الاسكندر ... ترجمة كابريل Gabrieli, Un nuovo testo ...

[2] راجع Diogenes Laertius, Vitae philosophorum ... ، تحت رقم ... ، فقرة ... ، تتعلق في أطروحات تعاليم ابيقور ، يحتفظ الصابي بقيمة ترجمة من الأسفار المفقودة لديوجينيس اللايرتي ...

[3] ... يتبع أرسطو ، فقد ذكر الاسكندر الافروديسي في التعليقات على كتاب ... لأرسطو ... ، ترجمة ... ، وقد قرر ... في بغداد ... على يد ... ، وتوفي ... ، وقد ترجم ... ، وتوفي ... ، وقد ترجم ... ، وتوفي ... ، وقد ترجم

الفرق السبع التي ذكرناهم في ترجمة افلاطون . وكان اصحابه يعرفون بالفيثاغوريين : نسبة الى الرئيس ، وانحلت فلسفتهم في آخر ازمان بقا تحتث فاسمة الفارابي .

وله من الكتب المصنفة : كتاب الجبر ، يعرف باحدود ، نقل هذا الكتاب واصلحه ابو الوفاء محمد بن محمد الخاسب . وله ايضاً شرحه وعمله بالبراهين الهندسية . وكتاب : قسمة الأعداد » .

* * *

ونتيجة من هذا النص أن القفطي نقل عن ابن ابطفورس وبين ابرخس الرقي ، ومرد هذا الخطأ الى النسبة : الرقي ، فقد جعله يعتقد أنه هو ابرخس الرقي نسب اليه ما لابرخس الرقي من الكتب ، ومن ثم نقل ما كتبه ابن النديم في « الفهرست » (ج ١ ص ٣٦٩ نشرة الرجل = ص ٣٧٦ طبع مصر) عن ابرخس الرقي : ونصه :

« برخس الرقي . وله من الكتب : كتاب صناعة الجبر ، ويعرف بالحدود . نقل هذا الكتاب ، واصلح ابو الوفا محمد الخاسب هذا الكتاب ، وله ايضاً شرحه وعمله بالبراهين الهندسية . كتاب قسمة الأعداد » .

وهذا بعينه هو النص الذي اقتصد بحرفه القفطي في ترجمته لأرمنيقوس .

هذا وقد ذكر « الفهرست » (ص ٣٩٤ طبع مصر سنة ١٣٤٨ هـ) في ترجمته لأبي الوفاء محمد بن محمد بن يحيى بن اسماعيل بن العباس ، المولود في بوزجان من بلاد نيسابور سنة ٣٢٨هـ ووفد حسن العراق سنة ٣٤٨هـ . تقول إنه ذكر له من بين كتبه : « كتاب تفسير كتاب ابرخس في الجبر » . وهذا يؤيد ما قلناه من أن كتاب : الجبر » هذا

الوارد في ترجمة أرسطيفس هو لابرخس ، لأن ما ذكره ابو الوفاء محمد بن محمد الخاسب هو كتاب « الجمع » لابرخس .

ولكن من هو ابرخس هذا ؟

إن ابرخس Hipparque المعروف ، هو من نيقية في مقاطعة بيثونيا Nicea in Bithynia في شرق بحر مرمرة ، وازدهر سنة ١٤٦ ـ ١٢٧ ق. م. ، ورصد ارصاداً في بيثونيا ، ثم في رودس من سنة ١٤٦ الى ١٢٧ ق. م. ، وفي الاسكندرية من ١٦١ الى ١٤٦ على حسب بعض الآراء . وقد ضاعت كتبه فيما عدا شرحه على « ظواهر » ابدوكسس الكنيدي وعلى تعليقاته في الفلك ، ولا يعلم له تواليف في الجبر أو في قسمة الأعداد . وهذا يشرح البعض ان يكون قد دخل في مادة ابرخس ما هو خاص بنيوقطس بعده .

٣

الخطابة لأرسطوطاليس

الترجمة العربية القديمة من كتاب الخطابة لأرسطوطاليس ، نقلها من اليونانية الى العربية أبو بشر متى بن يونس القنائي ، وأصلحها أبو نصر الفارابي ، وشرحها أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد ، وهي مخطوطة في مكتبة أحمد الثالث باستانبول ، تحت رقم ٣٤٦٠ ، وتقع في ٢٦٠ ورقة ، وقد نشرها عبد الرحمن بدوي في القاهرة سنة ١٩٤٩ ، في ٢٩٨ صفحة ، ونشرت ترجمة فرنسية لها في باريس سنة ١٩٣٨ ، في ٢٩٨ صفحة ، ونشرت ترجمة انكليزية لها في لندن سنة ١٩٣٨ ، في ٢٩٨ صفحة .

(مواضع النقل)

١١ ـ ثم من قبل ان كل واحد من هذين الأمرين بعينه هو فيما يشبه أن يكون فيه ، ولا سيما ان كان مما يحكم به الكل وكان فلان واحداً ، فان لم يكن كذلك ، فيما يحكم به الكثير أو الحكماء : إما كلهم ، وإما اكثرهم ، وإما خيارهم ، وذلك فيما يحكمون به او الذين يظنون انهم لا يحكمون بالضدادات ... كما قال ارسطوفوس النحوي حيث قال ان

قد بالغ فيها بعضهم أو بعضهم : « لكن صاحبنا (يقصد سقراط) قال قولاً لم يقل فيه شيئاً من هذا النحو » .

ما بعد الطبيعة لأرسطوطاليس

بتفسير ابن رشد

(٦)

« ثم قال (في أرسطو) : « ولذلك لا يكون في العلوم الغائية ايضاح شيء من الأشياء بهذه العلة ، ولا يكون بها برهان البتة » .

يريد : ولكون هذه العلة لا توجد في العالم ليس يلفي فيها اعطاء سبب شيء من الاشياء المنسوبة في ذلك العلم ، من قبل السبب الغائي ، ولا يأتلف فيها برهان يكون حده الأوسط هذا السبب . وقد قال في المقالة التي بتكلم فيها في مبادىء العالم انه قد يوجد سبب اخير فيها وهو النظام الذي يكون في الأعداد والأعظام ، والترتيب ، وفيه موضع فحص .

ثم قال (اي أرسطو) : « ولذلك كان اكثر من الفيلسوفيين يرفضون هذه العلة مثل ما فعل ارسطيفوس » .

يريد : « انهم كانوا يجحدون وجودها في جميع العلوم : من قبل أنهم لم يألفوها في بقية العلوم وهي العالم » .

(ح ٦ ص ١٥٨ نشرة بويج ، بيروت سنة ١٩٣٨ ، ونص ارسطو هو 1 B 996 a 32

(ب)

« قال ارسطو :

وكذلك ابى بعض الناس حقيقة المعرفة في الاشياء الظاهرة من المحسوسات . وليس يمكن ان يقضى على الحق بالكثرة ولا بالقلة ، فان الشيء الواحد قد يحسه بعض الناس بالذوق حلواً ، ويحسه بعضهم مراً ، ويظن انه كذلك . فلو كان جميع الناس مرضى ، او كانوا تغيرت عقولهم ، وكان الاصحاء منهم الاثنين او الثلاثة ، او الذين لم تعقل اثنين او ثلاثة ، لظُنَّ بهؤلاء انهم مرضى وأنهم قد تغيرت عقولهم وان الباقين ليسوا كذلك . وأيضاً إن كثيراً من الحيوان تظهر لهم الاشياء بضد ما هي عليه ، ولنا تظهر كذلك : ولكل واحد في ذاته تظهر اشياء في حواسه على الضد وهي خلاف ما يظن وليس على ما هي عليه. وليس بين لهم اي هذه حق او باطل ، لأن هذه ليس تؤدي ان الضد اكثر مما تؤدي اليه ذلك ، بل هي متشابهة فيما تؤدي .

(ح ٤ ص ١٠١٢ ؛ ونص أرسطو هو ١٠١٢ b Gamma 1009) .

(ج)

« قال أرسطو :

ولما توهم في الحق ليس كل ما يظهر حق اولاً ان الكلب ليس جسماً بالحس : بل لفنطاسيا التي ليست هي بالحس شيئاً واحداً . ومع هذا فيحق ان نتعجب ممن يتحير في هذه الاشياء ويسأل : هل الأعظام والألوان هي على الحال التي تظهر من بعيد ، او على الحال التي تظهر من قريب ؟ وهل هي على ما يراه الاصحاء ، او المرضى ؟ وهل هي

في الدليل على ما هي عند الضعفاء ، او على ما هي عليه عند الاقوياء؟ وهل هي في الصدق والكذب على ما هي عليه عند العامين ، او عنـد الساهرين ؟ — وهو بيّنٌ ان هذا ليس ما يمكن ، فانه لا يقدر أحد ان يظن ' حينما هذا (... ... تقص من الرومية ... ...) مثـل الاطلون : كذلك ، وليس رأي الطبيب الماهر في حقيقة الامر شبيهاً برأي الجاهل في الذي سيشفى من المرض والذي لا يشفى .

التفسير

قوله : « وأما ما يظهر في الحس فليس كل ما يظهر بحق » — يريد : وأما قولهم إن كل ما يظهر ليس بحق فهو قول باطل .

ثم قال : « اولاً فان الكذب ليس خاصاً بالحس » ، بل لقطاليا التي ليست هي والحس شيئاً واحداً : — يريد : وهذا يبطل من وجوه: أما اولاً فان الكذب ليس خاصاً بالحس وإنما يقع له الكذب بالعرض، والذي الكذب به خاص هو الخيال ، فان هذا هو القائل ان يكون فيه: إن ما يكون منه ليس بحق ، وإنما قال هذا لأن بهذه القوة تتخيـل اشياء بقطع على امتناع وجودها .

ثم قال : « فيحق ان نتعجب ممن يتحير في هذه الاشياء ويسأل : هل الأعظام والألوان .. الى قوله : عند الساهرين » — يريد « ولما كنت ها هنا احوال يظن ان الحس فيها صادق : وأحوال يظن ان الحس فيها كاذب كالأمر من الأشياء التي تظهر للبصر عند القرب والبعد،

« الخاص في الرواني هو ما ترجمه : (وإنه لا يقدر أحد أن يظن) أنه ليس في الدواة ، وإنما هو في ليسانا ، يعني به الى الأعمى . وكذلك فيما يتعلق بالمستقبل ، كما يقول أيضاً الفارابي .

والتي تظهر للحس عند الصحة والمرض ، والقوة والضعف ، وأكثر من ذلك التي تظهر في النوم واليقظة . فينبغي ان نعجب من يشك فيقول: هل الحق هو ما يظهر من مقادير الاجسام كبيراً عند القرب وصغيراً عند البعد ؟ وكذلك من يسأل : هل ما يظهر من الألوان عند القرب هو الصادق ، او ما يظهر منها عند البعد ؟ او يسأل : هل الطعوم الحقيقية هي التي يدركها الاصحاء ، او التي يدركها المرضى ؟ وهل الشم الحقيقي هو ما يدركه به الاقوياء من الناس ، او الذي يدرك به الضعفاء ؟ وأكثر من ذلك أن يشك : هل الحق هو الذي يراه النائم ، او الذي يراه اليقظان ؟ فان الشيء قد يرى في النوم على خلافه في اليقظة .

وقوله - ، وهو بيّن ان هذا ليس مما يمكن ، فانه لا يقدر احد ان يظن حيث هذا .. ، واخرم القول .

ومعنى ما قصده هو ان صدقنا معرفة أول نفرق بها بين ما يكذب فيه الحس ، وبين ما يصدق ، وذلك انه لا نعتقد ان ما نراه من الاشياء على بعد هو بالحقيقة مثل ما نراه من قرب ، ولا ما نحسه من الطعوم ونحن مرضى بالحقيقة مثل ما نحسه منها ونحن اصحاء ، ولا ما نجده من الثقل ونحن ضعفاء مثل ما نجده ونحن اقوياء ، وأكثر من ذلك ان نساوي بين ما ندركه من الأشياء في اليقظة وما ندركه في النوم يريد : ان نمن شك في التمايز بين المحسوس الذي يعرف انه كاذب ، والمحسوس الذي يعرف انه صادق فنحال ان شك في هذه الاشياء ، اي : هل نحن الآن نائمون او ساهون ، ونحن يقظون او معاينون ؟ وكذلك لا يشك احد في ان حقيقة الحاضر للاجسام والألوان هو ما يظهر من قرب ، لا ما يظهر منها من بعيد ، وان ما يظهر للاصحاء من المحسوسات هو الحق دون الذي يظهر للمرضى ، وكذلك يقولون في

علاجهم . ولو كان كل ما يظهر حقاً ، كما يقول اناس ايضاً ، لم يكن فرق بين قول النبي في غاية الجهل والذي في غاية العلم مثل افلاطون . فكان كما قال رأي الطبيب الماهر في حقيقة الامر شبيهاً برأي الجاهل في المرضى الذين يشفون والذين لا يشفون ، وربما بشفيهم ولا بشفيهم . وهذا كله محال .

قال ارسطو :

وأيضاً نقول هذا في الحواس ايضا انه لا ينشابه في الحقيقة الحس الخاص للشيء والذي هو لغيره ، ولا يشبه الحس القريب من الشيء الذي هو له غيره البعيد الذي لغيره : فان حس البصر للألوان لا للطعوم ، وحس الذوق للطعوم لا للألوان ، وكل واحد منها يحس شيئاً واحداً في زمان واحد . ولا يوجب ابداً حس من الحواس ان الشيء هي حاله وعلى هذه تلك الحال مما ولا في زمان آخر ابداً . وأما المشاجرة في الأم كقوله : يظن ان الخمر من الشيء بعينه مثل الشراب في طعمه ، ويظن ان الخمر من قبل الاختلاف مزاج جسد المائت : فيظن في الشراب انه في وقت : حلو ، وفي وقت لبس بمر . وليس المشاجرة في الخلو نفسه ان كان حلواً ، ولا متى تغير ، بل اذ كان يصدق القول فيه وكان بالاضطرار حلواً الذي سيكون هي هذه الحال . وان كانت هذه الاقاويل كلها تنفي هي هذه الحال جميع الاشياء ، وكذلك تنفي الا يكون جوهر ابداً لشيء من الاشياء : ولا يكون شيء باضطرار البتة ، لان ما كان باضطرار لا يمكن ان يكون على نوع آخر ، فان كان شيء باضطرار فلا يمكن ان يكون على هذه الحال وهي خلافها . وبنوع آخر ان كان المحسوس من الاشياء ، لان المحسوس وحده ليس هو لشيء اذا لم يكن للحاسة لأنه لا يكون محسوساً ، وهو من نوع ما

لا تكون الأشياء المحسوسة أيضاً ، لأنها آلام الشيء الذي يحسها : ولا يمكن لا تكون الموضوعات الخاصة بالحس اذا لم تكن الحواس : لأن الحس بعينه ليس هو قابلاً لها ، بل شيء آخر غير الحس ، وهو قبل الحس بالضرار : فان المحرك هو قبل المحرك بالطبيعة . وان كانت هذه الأشياء تقال بقوع الاضافة فليس شيء منها موجوداً دون شيء .

التفسير

إنه يعتمد في هذا القول أن يحل لهم الشبهة التي عرضت هو من قبل الحواس . فقوله : « وأيضاً نقول منا في الحواس بعينها انه لا يتشابه في الحقيقة الحس الخاص شيء والذي لغيره » — يريد : وأيضاً نقول فنقول يشكون في الحواس ويجعلون كل ما يظهر منها حتى السواء في الصدق انه لا يشبه حكم الحس الواحد على المحسوس الخاص الذي له حكمه على المحسوس الذي لغيره ، وهو المشترك ، في صدقه في المحسوس الخاص به اكثر من صدقه في المحسوس المشترك له ولغيره .

ثم قال : « ولا يشبه الحس القريب من الشيء الذي هو له البعيد الذي لغيره » يريد : وأكثر من ذلك لا يساوي ادراك الحس لمحسوسه الخاص به اذا كان بالقرب ادراكه للمشترك اذا كان من بعد . وربما قال هذا لأن الغالط إنما يعرض في المشترك ، وخاصة اذا كان من بعد .

ثم أخذ يذكر المحسوسات الخاصة بحس حس ، فقال : « ذلك بعض البصر للألوان لا للطعوم » وبعض الذوق للطعوم لا للألوان » — يريد : ومحسوس البصر الخاص به الذي يصدق فيه أبداً هو اللون ، لا الطعم : ومحسوس الذوق الذي يصدق فيه أبداً هو الطعم لا اللون ؛ وكذلك الصوت للسمع ، والطعوم للذم ، والملموسات للمس .

ثم قال : « وكل واحد منها يحس طبعاً واحداً في زمان واحد » — يريد : وكل واحد من الحواس الخمس يختص بمحسوس واحد يدركه في زمان واحد ، أي دفعةً .

ثم قال : « ولا يوجب ابداً حس من الحواس ان الشيء على حالة وعلى ضد تلك الحالة معاً ولا في زمان آخر ابداً » — يريد : ولا نجد في وقت من الاوقات حساً من الحواس يحكم على محسوسه الخاص به بأحوال مختلفة في وقت واحد ولا في وقتين مختلفين .

ربما أن قد يعرض في هذا القول شك من قبل ما يخبر في حس الذوق في وقت مارض وقات الصحة ؛ ذكر هنا فقال : « وأما الشاهرة في الأكم كقولي انه يظن أن التغير من الشيء بعينه مثل الشراب في طعمه ؛ ويظن أن التغير من قبل اختلاف مزاج جسد الذائق » — يريد: وأما الشك الذي يعرض في الأكم الذي هو المذوق مثل أن يقول قائل إن الشراب الواحد بعينه قد يجده الانسان الواحد في وقت ما : حلواً ، وفي وقت آخر : مراً ، فهنا قد يشك فيه ؛ لانه يحتمل أن يكون ذلك من قبل تغير المذوق في نفسه ، ويحتمل أن يكون من قبل مزاج الذائق — فلا سبيل لنا الى القطع على أن هذا الشيء حلوٌ في طبعه ، لا في وقت دون وقت ، ولا ان هذا مرٌ في طبعه .

ولما ذكر هذا الشك أتى بالجواب عنه فقال : « وليس الشاهرة في الحلو نفسه اذا كان حلواً ولا من تغير ، بل لان كان يصدقه القول فيه كان باضطرار حلواً الذي يكون على هذه الحال » — يريد : وليس هنا الشك مما ينبغي أن يكون الحلو طبعاً ؛ لأنه إن وجد مراً من قبل تغيره فبيّن ان جميع الحلو قد انتقل وأنه لا طبع مخصوص ولا يوجد لغيره ، وانه سيكون حلواً اذا عاد اليه ذلك الطبع . وأما إن كان من قبل تغير المزاج الذائق فهو بين ، اعني ان للحلاوة طبعاً مخصوصاً

وليست هذه المشاجرة هي المشاجرة التي كنا بسبيلها ؛ وإنما هذه المشاجرة : هل تكون الحال حادثاً من قبل تغيره في نفسه ، أو من قبل تغير مزاج الذات ؟ وهو الذي دل عليه بقوله : « وليست المشاجرة في أمر نفسه إذا كان حلواً ولا في حسه » — يريد : وليست المشاجرة في أمر هذا المثل لك الفاكهة : هل ذلك من قبل تغيره في نفسه ، أو تغير مزاج الذائق . وإن كان من قبل تغيره في نفسه فمن تغير ؟ لأنه باضطرار يجب أن يكون حلواً ما كانت طبيعته هذه الطبيعة قبل أن يتغير ، وهو الذي دل عليه بقوله : « بل أن كان يصدق القول فيه أنه كان باضطرار حلواً الذي سيكون عن هذه الحال » — يريد : بل أن كان يصدق القول فيه أنه حلو في وقت ما : كان باضطرار حلواً كل ما كان على هذه الحال أو سيكون .

ثم قال : « وإن كانت هذه الأقاويل كلها تنفي على هذه الحال جميع الأشياء : كذلك تنفي ألا يكون جوهر أبداً لشيء من الأشياء ، ولا يكون شيء باضطرار البتة » — يريد : وهذه الأقاويل كما أنها تنفي جميع الوجودات ، كذلك تنفي أن يكون لشيء من الأشياء جوهر ، وتنفي أن يكون ها هنا شيء ضروري أصلاً .

ثم قال : « لأن ما كان باضطرار لا يمكن أن يكون على نوع آخر » — يريد : لأن هذه الأقاويل توجب أن يكون كل شيء بنوع آخر غير النوع الذي هو عليه ، وباضطرار لا يمكن أن يكون بنوع غير النوع الذي هو عليه .

ثم قال : « فإن كان كل شيء باضطرار فلا يمكن أن يكون على هذه الحال وعلى غيرها » — يريد : وذلك أنه إن كان شيء ما باضطرار فليس يمكن أن يكون على النوع الذي هو عليه وعلى نوع آخر .

ثم قال : « وان كان المحسوس من المضاف فان المحسوس وحده ليس هو شيء اذا لم يكن اضافة لأنه لا يكون محسوساً » — يريد : وذلك لأن المحسوس من المضاف ، أي ليس له طبيعة في نفسه إلا طبيعة الاضافة ، فانه يلزم ان تكون المحسوسات ليس لها وجود اذا لم تكن الحواس الخمسة موجودة ، لأن المحسوس ليس مضافاً لشيء آخر غير الحس ، واذا لم تكن الحواس لم يكن محسوس اصلاً .

وقوله : « وهو حق بنوع ما لا تكون الاشياء المحسوسة ايضاً لأنها آلام الاشياء التي تحسها ايضاً » — يريد : وهذا اللازم حق ايضاً بجهة ما ، اعني اذا فرضنا المحسوسات من المضاف ، لأنه يلزم ان يكون المحسوس هو الحس ، والحس ألم في الحاس ، لأي عرض ، فيجب ألا يوجد المحسوس ان لم يوجد الحاس ، اذ لا يمكن وجود العرض دون موضوعه .

ثم قال : « ولا يمكن ألا تكون الموضوعات الفاعلة للحس اذ لم تكن الحواس » — يريد : ويلزم على القول ألا تكون المحسوسات موجودة ان لم توجد الحواس .

ثم أتى بعلة ذلك فقال : « لأن الحس بعينه ليس هو قابلاً ما : بل الشيء آخر غير الحس » — يريد : لأن الحس ليس يكون للحواس بل الشيء آخر غير الحواس .

وقوله : « وهو قبل الحس بالضرار » — يريد : بل الحس للشيء الآخر هو قبل الحس بالضرار ، اي متقدم عليه بالطبع .

ثم اتى بعلة ذلك فقال : « فان التحرك هو ليس التحرك بالطبيعة » يريد : والعلة في ذلك ان المحسوسات هي المحركة للحواس : والمحرك متقدم بالطبع على المتحرك .

ثم قال : « وإن كانت هذه الأشياء تحتاج بنزع الإضافة فليس شيء منها موجوداً دون شيء » — يريد : ولو كانت الحواس والمحسوسات من الخلق ، وجدت المحسوسات دون حواس ، كما لا توجد الحواس دون المحسوسات .

(تفسير ما بعد الطبيعة لابن رشد ، جـ ١ ص ٤٣٠ — ٤٤٠ ؛ ونص رسطو هو ١٠٥٩ b 1-1011 a Comm 1020) .

الشيخ أحمد زروق

ذخيرة مخطوطاته

للأستاذ عبد المكون

جنيف - المغرب

اسمه ونسبه :

هو أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي عرف بزروق ، أحد كبار الفقهاء والصوفية المشهورين في العالم الاسلامي. نسبه في صدد قبيلة البرانس البربرية ، وهو بفتح الباء وسكون الراء وضم النون ؛ وأما لقبه زروق فهو بفتح الزاي وراء مشددة مضمومة: وقال فيه المترجم نفسه على ما نقل من كلامه « إنما جاءني من جهة الجد : كان أزرق العينين واكتسب من أمه ، فلما وكلت شريفة الكنى لم أخف لذلك لموت أبي وشرف الدار انما هو سلامة دينه وخلقه ومروءته ولا شرف أجل من تقوى الله (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ....»

ولادته ونشأته :

ولد زروق يوم الخميس ١٨ محرم ٨٤٦هـ عند طلوع الشمس. وتوفي أمه يوم السبت بعده ، وأبوه يوم الثلاثاء الموالي ، قبيل وكان ولده سماه محمداً فما توفي قيل سابعه سمي أحمد باسم والده .

وكانت جدته الفقيهة الصالحة أم البنين هي التي كفلته بعد وفاة والديه وربته تربية حسنة فحفظ القرآن وهو ابن عشر سنين ، ثم تعلم صناعة الحرز على العادة في أبناء الفقراء فانهم يحصلون على تعلم صناعة ما ليستعينوا بها على كسب معيشتهم ؛ ويظهر ان والده لم يكن له مال، كما أنه لم يكن من أهل العلم ، وربما استفدنا مهنته من قول ابنه في طالعة نظمه لفصول السلمي :

يقول راجي رحمة الغفار ... ابن عجل أحمد الخضار
البرنسي الأصل ثم الفاسي ... المشتهر زروق بين الناس

هكذا ثبت وصف الخضار في نسخة صحيحة جيدة عندنا من هذا النظم بنقط الخاء والضاد وهو وصف يطلق على بائع الخضر فتكون تلك هي مهنته ، وفي نسخة أخرى درتها صحة وجودة (الخضار) بخاء المهملة وكذا نقلها مصححة حتى أفادنا صديقنا العلامة السيد أحمد السباعي الشفشاوني التي أقام بقرية البرانس مدة طويلة ويعرفها جيداً ان الخضار بالتعريف اسم وادي يجري بالقرب من قرية تيزون بكثير أولاد وثابت وهي مولد الزوجة ومدفن والده في القبيلة المذكورة وعليه فقد تكون النسخة الثانية هي الصحيحة. والخضار بالتشديد صيغة نسب لمواضي المذكور، وزاد الفقيه السباعي ان على قبر والده بناية أنيقة تشتمل على مسجد جامع ومكان لسكنى الإمام وتعرف بزاوية سيدي أحمد زروق وله أوقاف وان

صريح والده يحظى بتعظيم واحترام من أهل القرية مما يدل على انه كان من أهل الولاية والصلاح .

ومع ظننا فيمن نظن ان هذه الزاوية انما بنيت بعد انتهار أمير الترجم وان والده لو كان من أهل العلم لرفعت الاشارة الى ذلك في ترجمة ابنه .

طلبه العلم ومشيخته :

وعلى كل حال فإن مترجمنا لم ينشأ في صحبة الخزانة بل أراد الله به خيراً حين ألهمه لطلب العلم وهو في سن السادسة عشرة كما قال : « ثم قضى الله بعد بلوغي سادس عشر الى القراءة فقرأت والرسالة على الشيخين عمي السقي وعبدالله الخمار قراءة بحث وتدقيق » ـ والقرآن على جماعة منهم القوري والزرهوني : وكان رجلاً صالحاً وناسكاً والأستاذ الصالح عرف نافع ، واشتغلت بالتصوف والتوحيد فأخذت الرسالة القشيرية وعقائد الصنوسي عن الشيخ عبد الرحمن المجدوبي وهو من تلاميذ الأبي ببعض التنوير على القوري وسمعت عليه البخاري كثيراً ووقفت عليه في كثير أحكام عبد الحق السنهري وجامع الترمذي وسمعت جماعة من الباركين لا تحصى كثرة بين نقيه وعسير » .

هذه نشأة زروق الأولى وتربيته البيتية والعلمية التي تشير الى بعد ما تربية صديقه وقرينه ابن غازي ، فإن كلاً منهما نشأ في حضن امرأة صالحة عملت على توجيهه توجيهاً نافعاً غير أثره في سيرته المقبلة وحياته العلمية الناجحة ، ولقد كانت والدة ابن غازي تحظى رائداً من الناحية التربوية فقط ، أما الناحية المادية فوالده كان كفيلاً به ، في حين ان جدة زروق كانت تكفل حفيدها من الناحيتين التربوية والمادية معاً ، لأن والده لم يترك له ثروة يعيش بها وتشغل عقله عن تعلم الصنعة بعد

حفظ القرآن الكريم ، ثم ما لبث ان عاد سيرة جده من طلب العلم والتفقه في الدين . وكانت جدته كما ذكرت فقيهة عالمة وبذلك تعلم ما للمرأة العالمة من الأثر الفذ في اصلاح المجتمع وتقويم خلق النشء حتى قيل : الأم هي المدرسة الأولى .

رحلته الى الشرق والسبب فيها :

ثم ان علماء الأعلام الذين ذكرهم المترجم هم مشيخته الذين أخذ عنهم بفاس في أول أمره ولقد أخذ عن غيرهم بعد ذلك بها وبغيرها من مدن الشرق والغرب لأنه كان كثير التجول في البلاد الإسلامية رحيج وجاور بالمدينة المنورة وأقام بمصر زمناً للإفادة والاستفادة فأخذ عن أعلامها الكبار وأخذ عن كثير من يشار اليه من أهلها ، ولئن حكي من شيوخه بفاس مطارحة وأفرقة ومصريين غير من ذكر : العلامة السراج الفيجي وأحمد بن سعيد المليك وأبو مهدي عيسى الغاوامي وعبد الرحمن الفاسي وابراهيم الفازي والشذالي وحلولو والرصاع والمقري وابن زكري الفساني والفشي ونور الدين السنوري والحافظان السخاوي والديمي وأبو العباس بن عقبة المصري وشهاب الدين الأبشيطي وغيرهم من مشايخ الصوفية والأول هو عمدته في طريق السلوك .

ولقد ذكر ابن غازي في فهرسه ان المترجم استجاز له بمصر الحافظين السخاوي والديمي فأجازاه وذلك سنة ٨٨٨ .

ومما نعلم ان رحلته كانت علمية وانه كان على صلة بأصدقائه وزملائه في الغرب الذين بقوا بأوطانهم وبمكنه العلاقات الأدبية بينهم وبين علماء الشرق ، ولقد شملت الاجازة التي طلبها لابن غازي من حافظي مصر المذكورين ، غير ابن غازي من مشايخه وأقرانه كأبي مهدي الفاسي وأبي العباس الونشريسي وقاضي الجماعة محمد بن محمد بن عيسى بن جلال

المسعودي : فلذا تبغي من نشاط علمي أكثر من هذا ؟...

ولكن القوم الذين اصطدم بهم في مجانه وأنكسر عليهم كثيراً من الأحيان التي لا يقرها الشرع أبوا الا أن يصوروا رحلته بصورة قاتمة وخروجه من المغرب في صفة طريد لا يقر له قرار الى أن يترجح من انكاره ويسلم قياده الى رجل من أهل التصرف في الغيب فيدخل في جواره ويأمن حينئذ على نفسه، وذلك نص الحكاية على ما عند ابن عساكر في الدرجة قال :

« حدثني شيخنا أبو الحجاج يوسف بن خليل وغيره ان الشيخ أبا العباس (يعني صاحب الترجمة) صحب الشيخ أبا عبدالله محمد الزيتوني ، وكان رجلاً أعمى ، وكان من رجال التصرف فدخل صاحب الترجمة في خيمه وادعى فيها نصب السوق فكان من امتحانه في ذلك ان جاء زائراً له فدق الباب عليه فسمع صوتاً بالاذن فدخل اشار فلم يجد أحداً فصعد الى غرفة في أعلى الدار فوجد الشيخ جالساً في وسط الغرفة وعن يمينه امرأة متربة وعن يساره أخرى وهو يلتفت الى هذه ويقبل عليها ويرجع الى الأخرى كذلك فقال أبو العباس ان هذا الرجل من الزنادقة وول راجعاً فناداه الشيخ الزيتوني : يا أحمد الكذاب ، ارجع ، فرجع مسرعاً فلم يجد أحداً ، فعلم انه امتحنه . فقال له الشيخ الزيتوني : أما اني رأيت عن يميني لهي الآخرة وأما التي عن يساري فهي الدنيا ، وأنت كاذب في دعواك ولكنك لا تبقى في المغرب ساعة واحدة . فخرج الشيخ أبو العباس من حينه وتوجه الى المشرق مشفقاً على نفسه مما اتفق له حتى انتهى الى الديار المصرية فوجد أصحاب الشيخ أحمد بن حقبة الخضرمي يعظمونه على غاية التبجيل لأن شيخهم المذكور أمرهم بذلك وأخبرهم بقدومه فسلموا عليه ورحبوا به وعرفوه معهم ، فما دخل على الشيخ ابن حقبة وسلم عليه قال له : يا أحمد ، يا زنديق ، ما جرأك على الأنس الصباك ؟ ويحي ما لحق عليك مني هذا ، فحمله

الى بيت عنده وأمره بلزوم الذكر فبعد الاثة أيام جمع الشيخ ابن عقبة زجة عظيمة وهو مع أصحابه ، فصاح « الله » ورفع يده ثم قال : قوموا بنا الى صاحبكم فقاموا اليه فوجدوا البيت الذي كان فيه أبو العباس قد صار دكاً فقال ابن عقبة : احفروا على صاحبكم فحفروا عليه الى أن وجدوه في ركن البيت وقد طاحت الخشب فجعلت عليه فرفع عنه الردم وقد أغمي عليه فلما أبصره الشيخ ابن عقبة قال له : الحمد لله الذي خلصك منه ، يا أحمد : هذه آخر عقوبة الزيتوني وقد ضربك ضربة من أقصى المغرب فالتقطها عنك يدي ، وها هي مكسورة من ضربه : وأخرجها من كمه مكسورة ، ثم لازمه الى أن انفصل عنه فقال له : « ارضى يا سيدي » ، فقال له منشداً :

مسلم لمدسي ومر حيث مارت
وانج رياح القضا وذر حيث دارت

وقد حكى هذه القصة غير ابن عسكر وزاد فيها بعضهم انه لما خرج من عند شيخه الزيتوني ألقي عليه شبه اليهود فصار الناس يتجنبونه ولا يرون فيه إلا يهودياً حتى شفع له بعض أصحابه عند الشيخ فقبل منه بشرط أن يخرج من المغرب .

رد المقولات عنه :

ونحن لا نرى في هذه الحكاية إلا تلفيقاً من قبل زيتوني لتوطيد أركان الملجأ الذي كان عليه ، ومن ثم كانت نهايتها (مسلم لمدسي) وإلا فالرجل رحل نطلب المسلم والأخذ عن الشيخ كما رحل ورحل كثير غيره من علماء المغرب وطلبته وقد استجاز الإكابر لنفسه ولغيره

من مشائخه وأقرانه على ما سبقت الإشارة إليه ؛ وقال ابن العباد : نسه أقام بمصر مدة واشتغل فيها بالعربية والأصول على الجوجري وغيره وأخذ الحديث عن السخاوي ثم غلب عليه التصوف ؛ فتاه إلى التصوف متأخر عن اشتغاله بالعلم حتى في مصر بعد رحلته ، ولو كان جاء فيها طريداً بالصفة التي ذكروها لما بقي له في الاشتغال بالعربية والأصول مأرب ، ولا في استجازة مشايخ الحديث له واستجازته من علماء المغرب مطلب ، وعلى كل حال فمن المزيد في هذه الحكاية ظاهر وهي أن كان لها أصل فهو ما يتوافق مع روح زروق العلمية من الإنكار على أهل الدعاوي الباطلة وتحكيم الأصول فيما يعرض من أحوال أهل الطريق ، ولعل زروقاً وقع له مع شيخه الزيدوني خلاف من هذا القبيل فنسج خيال المخترعين حوله هذه القصة .

ولا عبرة بما يزيدها بعضاً من زروق لم يتراجع قط عن إنكاره على المحق ولم يزده إلا حسبة في معالجة المبطلين ، ولقد عاد من رحلته هذه إلى فاس فكان أول ما بدأ به مستنبه من أهل العلم الإنكار عليهم فيما يتناولونه من أسباب العيش ، ولو كان خرج من فاس بسبب الإنكار لذلك الخرجة المنكرة وأرسله شيخه الخضيري في آخر ما أوصاه به ، بالتعليم لعلمي لكان حرياً أن يسكت ولا يخض الغرف على القذى فيما كان الأمر ، ولكن الأمر بالعكس فإن الرجل خرج ليتعلم بالعلم ويتقوى في الدين فلم يتكفف على عقبيه في علم ولا عمل وجعله حكايته مع علماء فاس على ما عند ابن عسكر أيضاً وعنه رواها غيره قال : حدثني الفقيه القاضي أبو عبدالله الكراسي الأنصاري قال : لما قدم الشيخ زروق قافلاً من البلاد الشرقية خرج الفقهاء إلى لقائه قال وكنت في جملة من خرج معهم فلما سلمنا عليه وجلسنا في خيامه صار يسأل الفقهاء عن أسباب تأخرهم فقال بعضهم انقرت من الأوقاف الباجية على قبور الموتى : فقال الشيخ : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ،

تعيشون من لحوم الموتى ؟ فأجابه الفقيه ابن الحباك بأن قال : يا سيدي الحمد لله الذي جعلنا نقتنص من لحوم الموتى وهي مسوغة عند الضرورة في الشريعة ولم يجعلنا نقتنص من لحوم الأحياء الممنوعة من كل وجه . فسح الشيخ متعجباً عليه . فخرجنا عنه وتركناه كذلك » .

فأنت تراه كيف سألهم عن أسباب معيشتهم اهتماماً بالأصل الأصيل في ملاءة الدين وهو أكل الحلال ولما أخبروه بامتهانهم بالإنكار على ما رضوا به من لحوم على الصفات ثم لما أجابوه وكان الجواب وجيه من الشرع لم يملك أن أعلنه حال من الغبطة التامة لنفسه عمل عادة أهل الواجد من خفقي الصيرفة ، وهكذا يكون زروق في كلا حاليه: حال الإنكار وحال التسليم . موافقاً للشرع عاملاً بمقتضى العلم الذي جعله الله به .

محتسب العلماء والأولياء :

ومن ثم أطلق عليه علماؤنا رحمهم الله « محتسب العلماء والأولياء » وهي صفة جليلة فخمة لم يظفر بها غيره من علماء الإسلام لا قبله ولا بعده . وأنى للمحتسب القائم بالفعل تلك الوظائف الشرعية المتعددة التي يعم اختصاصه ويشمل كل الولايات الشرعية حتى الخلافة العظمى والقضاء : ليست مهمته هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ ويقول علماؤنا رحمهم الله ان المحتسب إذا مر ببلد الأمير أو القاضي ووجد الناس مجتمعين حوله ينتظرون خروجه ، فان عليه أن يدخل اليه ويخرجه للناس لأن تركهم ينتظرون من المنكر وخروجه اليهم من المعروف في المحتسب افتئات على كل ذي منصب شرعي كبر شأنه أو صغر عظم أو حقر . ولا يد أعظم منها بهذا الاعتبار إلا يده زروق التي بسطها علماؤنا في سفرة الصفوة من أجل الاسلام بالتفافهم حوله «محتسب

العلماء والأولياء ، وذلك لما رأوه متبعاً لأقوالهم وأفعالهم وزناً لها بميزان الشرع ليصحح منها ما صح ويبطل ما بطل ؛ ولما تحققوا من رسوخ قدمه في الفقه وعلو مقامه في التصوف من غير أن يجوز فقهه على تصوفه ، فينكر الخاصات والأحوال أو يطغى تصوفه على فقهه فيهمل الشعائر والرسوم .

رأي ابن عجيبة ومناقشته :

على أن هذه التحلية لم ترق فيما يظهر بعض أئمة الصوفية ، فهذا الشيخ أحمد بن عجيبة يقول في أول شرحه لنونية العارف التلمساني : « وقد سبق لك شرحها العلامة الصوفي أبو العباس سيدي أحمد زروق رضي الله عنه ، فقصر فيه على حل ألفاظها وبيان ما يتعلق ببعض معانيها غير أنه لم يفض إلى تيار بحر أسرارها على فوائض أنوارها ولا فض ختام أسرارها ولا دخل ببرائس أبكارها ، وأملى شرحها قبل أن ينفتح عليه في أسرار الحقيقة فقد كان شيخ شيوخنا سيدي علي العمراني رضي الله عنه يقول ما فتح على الشيخ زروق إلا في نحو عشر عيث لم يؤت شيئاً بعد الفتح والله أعلم ، وكتبه قاعدة يفتك أن الكلام وصف المتكلم ومن تكلم عرف من مناحته فهو في علوم الطريقة إمام ، وأما في علوم الحقيقة وأسرار الأذواق فلم يتل منها شيئاً إلا في آخر عمره كاد أن يخرج منها صفر اليدين ، ولذلك كثر اعتراضه على أهل النسبة وظهر في كلامه التشديد والتضييق عليهم » ونفسه رأيته في نوم كاليقظة فقلت له قد شددت على أهل النسبة في سقيقة المريد ، فقال : وما قلت فيها ؟ فقلت له قلت كذا وكذا وذكرت له بعض ما انتقد به عليهم وما شدد فيه فقال ذلك لسوء مذهب منك فقلت له الصوفي الحقيقي لا يقلد مالكاً ولا غيره بل يأخذ الشريعة من أصلها والحقيقة من

بعدها فقال من بلغ هذا أو سمعه من بلغ هذا لا يتكلم معه فقلت له واقد لقد بلغناه وسمعنا من بلغه فغلب عني : وكان بعض الشاطين من الفقهاء يقول الشيخ زروق محسب الصوفية. قلت انما يكون محسب صوفية أهل الظاهر أهل العبادة الظاهرة والتمسك الظاهر أما أهل الحقيقة والسر الباطن فلا حسبة له عليهم اذا لم يخطأ خطأ يذمهم. ولقد صحبت شيخ مشايخ الزاوية في زمانه مولاي العربي الدرقاوي الحسني رضي الله عنه يقول الشيخ زروق عند أهل الظاهر شيء كبير وعند أهل الباطن شيء صغير :

لا يعرف الشوق الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

ومراتب الأولياء كطبقات الجنان الأعلى يعرف الأسفل دون العكس والله أعلم » .

هذا كلام ابن عجيبة في زروق ورأيه بخصوص الكتب التي أحرقها عليه العباد : ونحن لا نخوض في الرد عليه ولا في ابطال ما ذهب اليه ونلخص الكلمة لزروق فيه أولى بالدفاع عن نفسه . وليت ما قاله في هذا الصدد يكبر درجة لحزب البحر في التنويه الرائج :

« قد أولع كثير من فقراء الوقت بعلوم الأسرار ودقائق الأذواق ورقيق كلام القوم دون اعتناء بأحكام العبودية وآداب الربوبية فانصرفوا عن المراد ، وقنعوا بموجبات الوداد وحصل لهم التعريف في جنب الاعتناء السداد ، ومنهم من تسرب فيه الداء فهم الكلام فوقه ذوقاً ورعا ادعاه حالاً لفقد امكان حلوله ، فحق الصادق أن يشتغل بما به كماله من التخلق والتحقق مع الإعراض عن الأعراض» قال ابن عطاء الله في الحكم « تعرفت الى ما يطلق فيك من العيوب بحيث من تشوفك الى ما حجب عنك من الغيوب » وقد قالوا : اذا تكلم الجاهل في مقام لم يراعه حاله حرم

مثله اذ صار فيه صاحب علم ثم لا يأمن ضلاله به أو ان ينبه في بعض رموزه لان كان يأخذه من كلام الناس) الخ .

على ان ابن عجيبة بكثرة ما ينقل من كلام زروق في شرح الرسالة وغيره ، يرى على انه لا غنى له من الاعتراف من بحره : وان ما قاله فيه إنما هو شطحة من شطحات امرئية صدرت منه لما رأى شدة انكار زروق على أهل الطريقة أو هو مديح لشرحه على مسا جرت به عادة المؤلفين من تكثيت المتأخر على المتقدم كما فعل ابن مالك في الفيته:

فائقة الفية ابن معط

فجاء السيوطي بعده فقال :

فائقة الفية ابن مالك

والواقع انه لم يكن لكلام ابن عجيبة أثر في الأوساط العلمية بالنسبة لاطلاق هذا اللقب على زروق ، فما زال علماؤنا رحمهم الله ، رجالهم ان لم نقل كلهم من لهم بجوح الى التصوف ويعلق بسبب منه ، يحلونه بهذه الحلية ويصفونه بتلك الصفة ، وانما قلنا ان جلهم أو كلهم من ينتمي الى التصوف لأن المعروف من أهل القرن العاشر فمن بعده انهم ماليوا بكليتهم الى مسلوك الطريق ، ومن لم يمل منهم الى ذلك بالغلب والغالب فلا بد من أن يظهر هـذا الميل : مشاركة عن نفسه بما صار للطرق من الصولة والجاه وعظم النفوذ . وهذا قل ان قام في العصور المتأخرة فكاد صوفي من طراز زروق حتى انبلج فجر النهضة الحديثة .

والمقصود ان هؤلاء العلماء المتصوفين هم الذين اقبروا زروقا ويحسب العلماء الأولياء — فلا يقدح في ذلك من شذ عنهم .

وقد تورك ابن عجيبة على زروق في شرح الرسالة مرة أخرى حين نقله مباحة من سواحه فقال : وانما تعجل الفتح على الشيخ زروق نقلة صحبته لشيخه المغربي فقد قال عن نفسه انه صحبه أولا مدة أشهر

أو نحوه ثم انفصل عنه ثم رجع لزيارته فبقي معه نحو ثمانية أشهر فكان المجموع من صحبته خمسة عشر شهراً أو نحوها ، قال وانتفعت بها انتفاعاً لا يخفى اه . قلت هذه الدة لا تسلخ المريد عن طبعه بالكلية ولا تخرجه عن طبعه وعوائده لا سيما وقد كان متغلغلاً في العلوم الفلسفية ولهذا فلا يسلخه منها إلا طول الصحبة بالصدق والخدمة والتجرد التام كما هو مجرب في شأن المتأدبين وقد كان شيخه يكاتبه بشيء من الحقائق فلم يهتد اليها لأنها لا تؤخذ بمجرد العلم وإنما تؤخذ بالسراية مع خلق الصدق والتصديق ، واعلم ان كثيراً من الفقهاء صحبوا المشائخ العارفين ولم يأتوا من حقائقهم بشيء لأنهم كانوا يصحبونهم على نظر نفوسهم لا على نظر المشائخ فإذا أوردهم بشيء أو صدرهم عن شيء وزنوه بميزان (شريعتهم) قد وافق نظرهم قبلوه وما خالفه ردوه فشقوا مع أنفسهم ولم يخرقوا في بحر أسرارهم والله أعلم » .

انتهى كلام ابن عجيبة ، وفيه تعامل كثير على زروق وجدل عقيم لا سيما جملة وهو كلام لو لم يتم بجملة والله أعلم لكان فيه درك عظيم على قائله ، وبيانه منه الآن ما يحقق بزروق فقد زعم انه تحصل عليه الفتح آخذاً من الساعة التي أوردها له وهي كما ذكرنا في أغلب ترجمته انما تدل على الجهود التي بذلها زروق في الوصول إلى المعرفة ولا دلالة لها مطلقاً على ما قيمه منها ابن عجيبة ، وتعليله لتأخر الفتح بقلة مدة الصحبة ليس بجيد عندهم ؛ فقد جاهدنا نحن يقيناً ان بلالاً ذل من فلان بمجرد اذاه لضعف أو بنظرة رحمة ، وكثيراً ما يحدث ذلك عن جاه بغيبة سنة دهراً فاقتبس من المصباح وأشرق نوره في الحال ، وكون التغلغل في العلوم الفلسفية وغيرها عقبة في طريق الفتح هو مما يخشن في نظرنا مع ابن عجيبة وأشباهه من يقولون بمثل هذا القول ؛ فنحن لا نرى فتحاً حقيقياً حصل لو يحصل لأحد إلا مع هذا التغلغل في العلوم ، وإليك المثال في أقطاب الصوفية أنفسهم كالجيلاني والشاذلي وابن الفارض وابن سبعين

وغيرهم ممن لم يشتهر أمرهم في هذا الشأن حتى رسخ أقدامهم في العلوم، وابن عجيبة نفسه لو لم يكن ذا باع مديد في العلوم ما أدرك ما أدرك من هذا المقام .

وقد كان زروق ذا حساسية مرهفة وتذوق لكلام القوم يشهد بـه تحريه النصوص وتعقبه ما فيها من مآخذ وشرحه للحكم والعناية بالجوامع دون الأعراض فضلاً عن ورعه للخواطر بميزان الشرع وأخذه بالحيطة في مجال القول والعمل وإنما أعانه على ذلك تمكنه من العلوم النقلية والعقلية وممارسته لطريق سلوك الحذر اليقظ الذي أخذ الأهبة لكل طارىء واستعد لكل ما يفاجىء ، فلم يكن وصوله لمحطته من ظن وتخمين ، بل عن طريق المعرفة واليقين ولعمري ان هذا لهو الفتح المبين .

لم يكن الهادي من بان هديه أبدا وإلا فاهدني ذا الهادي

من أخذ عنه من المشايخ وثناء العلماء عليه :

وبعد هذا لا نرى داعياً لذكر ما كان لزروق وما لا يزال له من مقام كبير بين طوائف الصوفية وخاصة الشاذلية منهم فقد أقامه الجميع مقام الحكم الذي ترضى حكومته وأقروا له بالإمامة وأثنوا عليه الثناء العاطر وتداولوا جهده وتلقوا كلامه بالقبول وروجوا وظيفته وهي كلها أذكار لزروة كثيراً عن كثير ، وهذا فضلاً عن مشائخ العلماء وكبار الفقهاء الذين أخذوا عنه بالمشرق والمغرب .

فمنهم الإمام القسطلاني والخطاب الكبير والحريري الصغير وشمس الدين وناصر الدين الشانيان وزين الدين القسنطيني نزيل مكة والشيخ عبد الوهاب الشعراني والعارف أبو الحسن البكري وهما من عمد أهل التصوف وغيرهم ، وذكره وارد في سند الطريق في مرآة المحاسن وغيرها .

وذكر صاحب طبقات الشاذلية المهاة بجامع الكرامات انه لما قدم مصر وحمت بقدومه العلماء والفضلاء من أهلها وفدوا عليه ، ومثلوا بين يديه ، وكان يحضر درسه في الأزهر الشريف زهاء ستة آلاف نفس من مصر والقاهرة واحوازها وتولى إمامة المالكية وصار استاذ رؤائهم ونصبوا له كرسياً على الأركان بجميع الاتقان صار يجلس عليه للافادة : قال : وهذا الكرسي موجود الى وقتنا هذا بروق المادة المقاربة بالأرض الشريف ، وكانت له صولة ودولة عند أمراء المصريين والقبول التام عند الخاص منهم والعام .

ولعل هذا في غير القدمة الأولى التي تنسبها الى مصر وكان فيها لا يزال بصدد الأخذ من أعلامها : يدل عليه قول السخاوي في والضوء اللامع بعد ان ذكر نشأته وقراءته بقوص ، (وارتحل الى البلاد المصرية فحج وجاور بالمدينة وأقام بالقاهرة نحو ستة مديماً للاشتغال ، وقرأ على بارع المرام وبحث علي في الاصطلاح بقراءته والازمني في أشياء وأفادني جماعة من أهل بلاده والغالب عليه التصوف ، وقد تجرد وساح وجوده القاهرة بعقد اليمين ثم تكرر دخوله اليها وقطن بمكة في سنة أربع وتسعين وصار له أتباع ومريدون وكتب على حكم ابن عطاء الله) الخ .

وفي شذرات الذهب قال الناري في طبقاته وهو يعني زروقاً : (عابد من كبار العصر بفرق وعالم بالولاية متصدر للجلي بمفرد الدعاة والمغاث: وبرع في معرفة الفقه والتصوف والأصول والخلاف : خطبة الدنيا فخاطب سواحلها ، وعرضت عليه المناصب فردها وأباها) : وهذا مما يزيد ما قاله صاحب طبقات الشاذلية مما كان له في مصر من نفوذ وجاه عند خاصتها وعامتها .

استقراره أخيراً في طرابلس الغرب ووفاته بها :

ثم انه زهد في ذلك كله ورحل إلى قطر طرابلس واستقر منه بعصرانة لجهة تيكران منها حتى مات : قال ابن خلدون في تاريخه: وكان استوطنها وانخرط في سلك أهلها وتزوج بها من أولاد الشيخ الجعاظرة وولد له منها وبقوا بعد موته ثم سكنوا به ، وليس له بها نسل ومقامه مشهور : وتولى خدمته وأوقافه قوم من أهل سرت كانوا في سالف الزمن شبّه بالصالحين ونشأ من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات .. الخ .

وقد زار الشيخ أبو سالم العياشي مقام المترجم في طريقه إلى الحج وتحدث عن ذلك في رحلته بقوله : ومن الغد ارتحلنا ونزلنا بزاوية الشيخ المحقق القدم العلامة المعرف بالله الدال على الله صاحب العلمين وعقق الطرفين وحامل الدفترين ومرتضي الفريقين متقدمي أهل العلم الباطن ومتبوع أهل الظاهر ومرجوع الأسرار في مدار الظاهر قطب مغربنا وإمام نحلتنا سيدي أبي العباس أحمد بن أحمد زروق البرنسي القلعي حشر الله فيه أنسبتنا وخلص في حبه سريرتنا آمين ، وكان نزولنا بزاويته صبيحة يوم الجمعة وزرنا نهر الشيخ بما اقتضاه الوقت من أدب وتوقار وذل وانكسار وصلينا الجمعة بالمسجد الجامع وهو الذي كان يصلي فيه الشيخ وخطب امام المسجد من ورقة وليه أحسن الترجمة عنها فإنه كان يتوقف حتى في آيات من القرآن العظيم وأصغت لذلك المكان مع شرفه بجوار الشيخ وكونه واسطة البلد كيف يسد الأمر فيه إلى غير أهله : ويوضع في غير محله وقد الأمر من قبل ومن بعد .

ثم ذكر العياشي بعد ذلك ما يفيد ان الشيخ رحمه الله لم يكن من بني الزاوية على ما أخبره به نجيبها أبو العباس أحمد بن عبد الرحيم حفيد الشيخ قال :

(لطيفة) وقد أخبرني سيدي أبو العباس المذكور ان جده الأعلى سيدي أحمد الذي كان خديم الشيخ قال للشيخ في حياته الا نبني هنا زاوية ونتخذها أوقافاً ؟ فقال له يا أحمد نحن لا نخرج رائحة مسكنا إلا بعدما نتسوس تحت التراب ، ثم بعد موته وكثرة الواردين والزائرين وانتشار صيته في مشارق الأرض ومغاربها بنى ناديه المذكور المسجد يزاد قبره وسكن عنده بعد موته بعشرين سنة .

قلت وهذا هو الذي يعلم الشيخ رحمه وتمسكه بالسنة قولاً وفعلاً واعتقاداً أرجو الله ورضي عنه وجزاه عن إخوانه والمسلمين خير الأولى .

وكانت وفاته سنة ٨٩٩ في صفر .

ذكر الذي والأهلي :

وذكر الفيلالي أيضاً أنه وقف حين وفاة فيها زمام تركة الشيخ وعدد ورثته فساقها بالنص قال : « لما اشتملت عليه من الفوائد ، منها استفادة عدد أولاده وأين استوطنوا بعده فإني لم أجد ذلك بعد الفحص الشديد عنه ، ومنها التأسي به في قلة ما خلفه من الدنيا مع كونه ذا أولاد ونساء في بلد يشق فيها العيش ولا يحوزه لهم لو شاء لاتساع حبله وخلعة الدنيا وأقبلها له ربع ذلك لم يخلف إلا ما سترى » . وخلاصة ما في هذه الورقة أنه توفي عن زوجين وأربعة أولاد كل منهم بمن أحد ويتميز بكنية وبنت واحدة منهما حاضنة وخلف فرس وكانت تركته مع الفرس وبرنساً أبيض وجبة صوف وثوباً آخر وسبحة كانت لشيخه الخضري وأربعة عشر صفراً وكتاشة الخ فنظره ان شئت في الرحلة العياشية .

هذا هو تراث زروق المادي فليخجل عند ذكره كل شيخ يزعم التصوف وهو أغنى من قارون ، أما تراثه الأدبي فمجموعة من الكتب في الفقه والتصوف بمؤسسة القواعد عموماً فالمؤلف يميل فيها إلى الاختصار لكونه من ألفى فضول القول ، ويأتي فيها بالباب من العلم الذي يتناوله لأنه كان أنصح من كل يشغل قارئه بالقشور وليس تناوله إلا مذنباً متعقباً في الدين أو مريداً مترقياً في مقامات اليقين ولا تحق بالنصح منها ، ولربك حلقات هذه السلسلة الذهبية قبل أن تأتي بشذرات منها تقر أعين الناظرين ونص الشيخ أحمد بابا في نيل الابتهاج كان أحسن لو اقتناه من غيره فلنعتمد قوله في هذا الصدد ونصه : « وأما تآليفه فكثيرة جيدة فيها أن الاختصار مع التحرير ولا يخلو شيء منها عن فوائد غزيرة وتحقيقات مفيدة لا سيما في التصوف فقد انفرد بمعرفته وجوده تآليف فيه ، فمنها شرحان على الرسالة وشرح إرشاد ابن عسكر وشرح مختصر خليل وشرح الوغليسية وشرح القرطبية وشرح الخلاصة وشرح العقيدة القدسية للغزالي وثلاث وعشرون شرحاً على الحكم وشرحان لحزب البحر وشرح الحزب الكبير لأبي الحسن الشاذلي وشرح مشكلاته وشرح الحقائق لسعدي وشرح قطع الشتري وشرح أسماء الحسنى وشرح القواعد في التصوف لشيخه ابن عباد والنصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية وغيرها وأعانه التوجه للمكنن على طريق الفتح والتمكين وكتاب القواعد في التصوف وهذه الثلاثة في غاية النبل والحسن ، لا سيما الأخير منها لا نظير له ، وكتاب النصح الأتم والجنة ، للمعتصم من البدع بالسنة وكتاب عدة المريد الصادق من الباب الثالث ، في بيان الطريق وذكر حوادث الوقت ، كتاب جليل فيه مادة فصل بين فيه البدع التي يخصها الفقراء الصوفية ، وله تعليق على البخاري نحو عشرين كراسة اقتصر فيه على ضبط الألفاظ وتفسيرها ، وجزء صغير في علم الحديث ، وله رسائل كثيرة لأصحابه مشتملة على حكم ومواعظ وآداب ولطائف التصوف

مع الاختصار في أن توجد نظيره ، وبالجملة فقدره فوق ما يذكر وين تفرغ لذكر حاله وفوائده وحكمه ورسائله جمع منها مجلداً .. وهو آخر أئمة الصوفية المحققين الجامعين لعلمي الحقيقة والشريعة » .

ويزاد على ما ذكره كاشفه أني عد من أجل كتبه بالفوائد التاريخية وكثيراً ما ينقل عنه الشيخ أحمد بابا نفسه وغيره ، وتقدم ذكرها في زمام تركته . وله فهرست ذكرها ابن القاضي في ترجمته من درة الحجال وله أيضاً ما وقفت عليه ولم يذكره رسالة الأصول الشيخة وشموع أربعة ورسالة في أصول الطريق نظمها الشيخ أبو سالم العياشي وشرحها تلميذه الحوزي ، ونفثة فصيل السلمي في عيوب النفس ، وشرح لبيت الأصابة ، وكتاب لم يتم في علاج أدواء القلب — إلى غير ذلك .

كتابه عدة المريد وقيمته العظيمة :

وكتبه وإن كانت كلها جوزة مفيدة إلا أن عيونها هي الثلاثة التي ذكرها صاحب نيل الابتهاج وزاد عليها كتاب عدة المريد الذي لا نظير له في النصح من التصوف والتبع في وجوه ادعياته بالحجة والبرهان ، وهو في نظرنا عديل كتاب تلبيس إبليس لابن الجوزي وربما فاته لاختصاصه بهذا العلم ولكثرة مباحثه عند المتصوفة أنفسهم فلا يمكن أن يقارنوا فيه بما يشحنون به في تلبيس إبليس وانظر ما قاله ابن سي في المحاضرات بصدد الانكار على آخر الوقت فانه لم يجزه إلا لراسخ في العلم والعمل والانصاف كمترجمنا وهذا نص كلامه مختصراً :

« وأما استفاض أهل الزمان على ما مر فلا شك انه لا يصدر إلا لا يدخل في الغيبة المحرمة حيث لا يكون لمعين ... نعم ذكر ما يقع منهم من المناكر بالتعيين بقصد الاشتراك مع الانصاف كي لا يعمل

أبو العباس قدوق رضي الله عنه في النسخ الأتم وفي عدة المريد نافع مفيد غير انه صعب مفتقر إلى تحقيق المدارك واطلاع في العلوم وتجربة تامة ، الخ . وناهيك بها من مثل اليومي .

وها نحن أولاء نستعرض من كتبه الملكور بعض الفصول للتعريف بقيمته ولتتمة التعريف بمؤلفه أيضاً ، وقد صدره بكلمته لبيان الغرض من تأليفه هذا نصها :

« ليعم الناظر في هذا الكتاب ، التأمل لما فيه من حق وصواب ، فانا لم نقصد به الطعن على الناس ولا القدح فيهم : ولا الاشتغال بمساويهم ولا افشاء عيوبهم ، ولا أردنا الاستظهار بالبراءة عليهم ، وإنما قصدنا به التحذير من الوقوع فيما حذرنا منه ، والتحرير لما نبهنا عليه ، ليكون عدة للصادق في حبه : وامانة للمحقق في يقينه : ورحمة للمسكين في حاله ، فمن قصده لشيء مما قصدناه به فانه المسؤول في اعانته ونفعه ، ومن قصدك لغير ذلك فانه المسلمان على خلافه ومنعه : وان يعصمنا منه من يريد به هتك أستار الناس ويريد به اظهار المعص والالتباس ، ومن قصده لذلك فانه حسبه وكافيه وحسبي الانتقام منه لأن من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته ، والمؤمن يلتمس المعاذير والمنافق يتتبع العيوب والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه ويعلم الله لولا الشفقة على الاخوان الصادقين ما كتبت منه حرفاً مع ما أخذ على من علم شيئاً أن يبينه ولا يكتمه ، وما ورد من الوعيد في سكوت العالم عند ظهور البدع مع ما انضم إلى ذلك من أسباب خاصة وعامة ، وصلى الله المعتمد في عموم النفع به وان يجعله رحمة وبركة حيث ما حل .

ثم أرغب لمن كتبه أن يكتب هذه المقدمة في خير نسخته لئلا يبرأ من جهل الجاهلين وعلى الله ثوابه .

ولسنا بحاجة إلى التنبيه على ما يفيض به هذا التصدير من روح الانصاف والنصيحة والاخلاص . فتلك شيمة زروق التي عرف بها في كتبه وأحاديثه وآرائه بعامة، وهاك الآن الفصل الأول من الكتاب وهو في تعريف معنى البدعة وتقسيمها قال :

حقيقة البدعة :

« (فصل) في حقيقة البدعة وخواصها وأحكامها : أما حقيقة البدعة شرعاً فأحداث أمر في الدين يشبه أن يكون منه سواء كان بالصورة أو بالحقيقة لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد وقوله عليه السلام وكل محدثة بدعة كما تقدم، وقد بين العلماء رضي الله عنهم أن المعنى في الحديثين المذكورين راجع لتغيير الحكم باعتقاد ما ليس بقربة قربة لا مطلق الاحداث إذ قد تتناوله الشريعة بأصولها فيكون راجعاً إليها أو بفروعها فيكون مقيساً عليها قالوا : وبحسب هذا فلا تكون البدعة إلا محرمة أو مكروهة لأنها إن قويت شبهتها لا يصح أن يبلغ بها التحريم وإن ضعفت شبهتها جداً كانت محرمة لا سيما إن كانت في مقابلة منصوص من الشارع أو مخالفة لأصل الملة أو خارجة عن قواعد الأحكام الشرعية ، قال المحققون : وإنما قسمها بعضهم لأقسام الشريعة اعتباراً بمطلق الإحداث ومن حيث اللغة، ومنه قول عمر رضي الله عنه في شأن التراويح: نعمت البدعة هذه فسماها بدعة من حيث صورة الباتها ولا فهي سنة بفعل النبي صلى الله عليه وسلم في ثلاث ليال من رمضان في حياته ، ثابت اقامتها بقوله عليه السلام : اني خشيت أن يفرض عليكم ، فنبه على العلة المشعر بثبوت الحكم عند ارتفاعها كما أشبه عمر رضي الله عنه يرجوع من الصحابة في قبوله، فان قلت كيف تكون البدعة المكروهة صلاة مع ان المكروه

من قبيل الجائز والنبي صلى الله عليه وسلم قد حكم على كل بدعة بأنها ضلالة ؟ قلت الكراهة مصروفة للعمل بها ؛ واحدالها حرام لأنه تغيير على الشارع وتقدم بين يديه وتغيير لأحكامه مع وجود شبهة منه .

ثم من خواص البدعة ثلاثة :

أحدها أنها لا توجد غالباً الا مقرونة بمحرم صريح أو آيلة اليه ؛ أو يكون تبعاً لها . ومن تأمل ذلك وجده في كل ما قيل فإنه لا ينخرم بحال كما نبه عليه ان شاء الله تعالى .

الثاني أنها لا توجد غالباً الا في الأمور المستغربة غير المألوفة في الدين وهي في الكيفيات من العبادات وتوابع الأحوال وما تميل اليه النفوس وتتعشقه كالذكر والتلاوة والصلاة والصوم عما يدخلون عليها من الكيفيات ونحوها والمداومة ونحو ذلك ـ فتأمله .

الثالث أنها لا توجد غالباً الا مستندة لوجه من الشريعة أو معنى من الحقيقة يلتبس على قليل العلم فيتحير أو يسلم ويدرج على الجاهل فيظنه حقاً قياساً من حيث لا يدري . وما نره في ذلك إلا شبهة الأصل وتسليم من يعتقد فيه العلم والفضل ؛ ولكن لكل شيء ميزان يظهر به الحق من الباطل يعرفه العالم ويخفى الجاهل فيكون خطأ بفعله مضلاً بدعوى الخلق اليه غير معذور في أمره لعدم تبصره اذ الدين مبني على التبصر . وبالله التوفيق .

ولا يخفى تحرير هذا الفصل وتأمله على اختصاره جمع بين تحقيق النظر في معنى البدعة وتقسيمها الصحيح الى قسميها القبيحين الحرمة والكراهة ولم يجار اصطلاح الفقهاء في عصره على تقسيمها الى أقسام الحكم الشرعي الخمسة ؛ وان بين وجهة نظرهم في ذلك التقسيم ودليله ثم عرض ما يتوهم من أن البدعة المكروهة لا حرج فيها لبين ان الكراهة انما تتعلق بالعمل

بها وما أصل لحساب لحرام وبذلك حسم المادة في أمر الابتداع وأغلق الباب في وجه المبتدعين ومن ثم تخلص إلى الكلام على خواص المبدعة بما لم يدع في أمرها اشتباهاً. وهكذا حرر هذا الفصل تحريراً الجوهر وركزه تركيزاً بديعاً بحيث جمع للأرض .

وهناك فصلاً آخر بيّن فيه الأسباب التي تدعو إلى الابتداع وخاصة في الطريق وهو نظير سابقه تحريراً وتركيزاً : قال :

الابتداع وأسبابه :

(فصل) في أصل ظهور مدعي التصوف في هذا الزمن بالبدع واتباع الهوى هو عليها ، فأما ظهورهم بالبدع فله أصول ثلاثة :

أولها نقص الإيمان لعدم العمل بحرمة الشرع وفقد نور الإيمان الهادي إلى اتباع الرسول عليه السلام قال الله تعالى « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه الله الدليل لأبي والطريق واضح والداعي قد أسمع فما النجم بعد هذا إلا من أعمى وقال ابن عطاء الله رضي الله عنه في حكمه لا يخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك وقال أيضاً لكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال قال بعضهم تحت الجبال بالأشفار أيسر من زوال الهوى اذا تمكن قال الله تعالى أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله حسبك علم الآية وقوله تعالى فمن يهديه من بعد الله يعني ان الدليل والأسباب لا تفيد في هدايته لتمكن الباطل من نفسه ولفقدان نور الإيمان من قلبه ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ».

الثاني الجهل بأصول الطريقة واعتقاد ان الشريعة خلاف الطريقة وهذا

هو الأصل الكبير في ذلك وهو من مبادىء الزندقة ومنه خرجت الطوائف كلها وصار الفروعي الجامد لا يتوقف في سب الصوفية ، والمتصوف لا يتوقف في النفور من العلم وأهله ومخالفة ظاهر الشريعة في أمره ويرى ذلك كمالاً في حقه حتى لقد سمعت من بعض من تقشر من طلبة الوقت الله سمح حكاية من حكايات الخارجين أوجبت أثراً في الوجود فتعلق ناصبي زندقته وجهله بأن قال ظاهر الشريعة حرمان ، وهذا والعياذ بالله كفر وضلال أبرز له من جهله بالطريقة واعتقاده الفرق بين الشريعة والحقيقة وهذا هو الأصل الذي بنى عليه الزائغون أصولهم واستظهرت الطوائف بأعمال خارجة عن الدين وأصول موافقة للزائغين لحمل الصادق على الكاذب والمصيب على المخطىء ، ووقع الكل في جهالات لا يمكن تفصيلها ولا يضبط تأصيلها ودفع ذلك لا يكون الا بتقرير أصول القوم وسنفرد له فصلاً بعد ان شاء الله .

الثالث حب الرئاسة والظهور مع الضعف عن أسبابها والقصور فيضطرهم ذلك لاختلاق أمور تستميل القلوب لكونها مجهولة على استحسان الغريب مع جهلها بما يشين ويريب وحرصها على الخير وظهور هذا الشخص بصورة ذلك وحقائق منه مع ما يجري على يديه من خوارق شيطانية أو يلوح لبابه من لذة نفسانية أو يدركه من أذواق طبيعية يظنها فتوحات وأسباب وصول فينبذ لها الفروع والأصول مع ما يعينه على ذلك من اختلال الأمور للأنوثة واعتقاده ان المقام العجيب لا يدرك الا بالأمر الغريب، وان العبادة في صورها ووجوهها لا تفيد المقصود الا بإضافة أمر اليها فيفقد ذلك عند ظهوره ويعمل به فيجتهد الأمر له بذلك ويقوى عليه بما ظهر له من ذلك وما هو الا الجهل والانقياد للوهم وعدم التثبت والفهم نسأل الله السلامة بمنه وكرمه .

رأيه في المهذب المنتظر :

وعده جمل من فصول مبثة في نظره في أشياء مما عدت فيه آراء القوم ، فمن ذلك قوله في المهذب المنتظر :

« هذا مع أن كثيراً من الفقهاء يقولون بأن الفاضلي قد انتضى رأيه رأي عمر بن عبد العزيز أو ضربه على اختلالهم في ذلك ، والحق أن الأمر فيه مبهم وأن الاشتغال به مما لا ينبغي لاشتباه الأمر واضطرابه مع عدم الاضطرار إليه ، وهب أنه نزل بباب المدينة التي أنت فيها أليس في منزلك بيعة أميرها فلا يحل لك الخروج إليه لما في رقبتك من حق أميرك ، هذا إن تحقق فإن ذلك والأمر مفوض إليه صحة في أصله غير متحقق التأخير في وقوعه » .

الفقيه والصوفي :

ومن قوله فيه ، في عيبة الفقه من التصوف : « قالوا وما مثل الفقيه إلا كجواب الملك والصوفي المحقق صاحب سره فإذا حدث الصوفي عن حجابا بيت الملك نادى عليه الفقيه إنك لسارق أو كذاب أو مجنون فإن أتى بأمارة من الملك والا فحجة الجواب عليه قائمة وإنكاره مسموع فإن لم يصح انكسار الفقيه عند الصوفي ولم يصح انكار الصوفي عليه فاعرف ذلك » .

رأيه في كتب الحاجي ومشاكلها :

ومن قوله في كتب الحاجي ومن على شاكلته في أحد الفصول من

و هاما كتب الخاتي وابن سبعين وابن الفارض وأبي العباس البوني ومن جرى مجراهم فيها رجال ، فهم في الخفاش مجال ، وعندهم في التمييز مقال ، فلا يشتغل بها في البداية الا غوي ولا في النهاية الا غلي ولا في الوسط الا ذكي يأخذ ما يلقى رشده ويسلم ما وراء ذلك ايسلم من آفاته وما هو الا كما قيل :

من غل بحلية لبس فيه فتسحط خواطر الاعتدال

أخذنا الله من البلاء بمنه . .

أحزاب ابن سبعين ودعوات البوني :

ومثله قوله في أحزاب ابن سبعين ودعوات البوني في أحد فصول الكتاب ونصه :

« (فصل) في أمور أولع بها بعض الناس وفيها مغمز ما ، منها أحزاب الشيخ أبي محمد عبد الحق بن سبعين وهي عقوبة حسل حقائق ودقائق وأمور عالية بعبارات فائقة وشقاشق عظيمة بعضها في الاظهار وبعضها خارج عنه ، فلذلك وجب على المتعلم اتقاؤها وكان التعلم فيها أولى من العمل بها الا حزب السلام فله رتبة ما فيه العدول عن الألفاظ الشرعية الى عبارات أخرى لا ندري ما قصد بها ان لم يكن الايقاع في النفوس وباجتماعه فلذلك وقع له بحسب حاله ومقامه ونحن لا نأخذ إلا ما جمع المعرفة والأدب والأثر لا غير ذلك فافهم. ومنها دعوات البوني وأقسامه المرتبة على الساعات وغيرها ، وقد نص العلماء على ان ذلك بدعة مكروهة ويحرمون التعلم به فأما غيره من الجهال فلا حديث عليه وهو ممنوع منه بكل حال » .

كتب الصلوات المتداولة :

ومن هذا القبيل قوله في كتب الصلوات المعمولة من فعل الغير : « ومن ذلك تصنيف بعض الناس في الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم بكيفيات يعتمدها ويأتي فيها بألفاظ مستغربة وأنواع مستغلبة تألفها نفوس العوام وتتحرك بها نفوس الغافلين للصلاة عليه صلى الله عليه وسلم في الجملة ؛ والأولى بأهل التوجه الاقتصار على الألفاظ الواردة عنه صلى الله عليه وسلم فإن الخير كله في الاتباع والفتح الكامل في التقيد بألفاظه عليه الصلاة والسلام فلا تعدل بها شيئاً ولو قلّتْ فقليلها كثير ومعناه كبير » .

نصيحة لأتباعه :

وأخيراً استمع إليه فيه وهو يحذر أتباعه من الاقتداء به في أمور رغم صدورها منه عن غير قصد ولا إصرار ، ولكن الشريعة التي جعلها هيمنة وعلم النفس الذي هو عليه أمينا عليه هذه الجملة :

« وما زلت أحذر أصحابي من الاقتداء بي في خمسة أمور :

أحدها – العمل بالمباح والتبسّط في حظوظهم .

الثاني – التوسع في الأكل حقة ومقداراً فإن ذلك إساءة أدب .

الثالث – مخالطة كل أحد ومهما طه وذلك هيبة وقلة مروءة .

الرابع – كثرة المزاح والانبساط والتوسع في الكلام لأنه يجر إلى الشر والنقص .

الخامس – النظر في كتب الرقائق والعمل عليها دون غيرها .

فاني لا أعمل ذلك واقفا عن رؤية ولا اختيار وما كتبت المحذورات ها هنا إلا لكيلا أجعل حجة فيه وباقة التوفيق » .

هذه فصول ونقول من كتاب عدة المريد تقف على تحقيقه وتعرف منها آراء زروق في المسائل الصوفية الدقيقة ، وهي آراء موزونة بميزان الشرع ترد على المتصوف الاسلامي اعتباره وتعرد به سيرته الأولى التي كان عليها في عهد اجتهاده وعبادته من الصوفية الأخيار .

آراؤه وأقواله في السلوك والطريق من كتابه قواعد :

وقد احتوى كتابه قواعد التصوف التي بعد محجة في هذا الباب على كثير من هذه الآراء التي نظن انه جردها من كتابه الأول وأودعها في قواعد كما احتوى على حقائق أخرى لها أهمية كبيرة في الموضوع ؛ ونحيل لفائدة نورد بعضها هنا قول ذلك قوله :

لا يصح الكلام الصوفي على الفقيه :

« (فائدة) الفقه حكم عام في العموم لأن مقصوده اقامة رسم العبد وظهر مدره واظهار كلمته ، وحكم التصوف خاص في الخصوص لأنه معاملة بين العبد وربه من غير زائد على ذلك . فمن ثم صح انكار الفقيه على الصوفي ولا يصح انكار الصوفي على الفقيه ولزم الرجوع من التصوف الى الفقه والاكتفاء به دونه ، ولم يكف التصوف عن الفقه بل لا يصح دونه ولا يجوز الرجوع منه اليه بلا به وان كان أجل منه رتبة فهو أعم وأعم في مصلحة ولذلك قيل كن فقيهاً صوفياً ولا تكن صوفياً فقيهاً - وصوفي الفقهاء أكمل من فقيه الصوفية وأسلم لأن صوفي الفقهاء قد تمكن بالتصوف حالاً وعملاً وذوقاً بخلاف فقيه الصوفية المتمكن من

عمله وحاله ولا يتم له ذلك إلا بفقه صحيح وذوق صريح لا يصح له أحدهما دون الآخر كالطب الذي لا يكفي علمه عن التجربة ولا التجربة فافهم » .

تحديد ما لم يرد في الشرع بدعة :

ومنه قوله : « (قاعدة) تحديد ما لم يرد في الشرع تحديده ابتداع في الدين لا سيما ان عارض أصلاً شرعياً كتصيام يوم لغوات ورد ليشبه الذي لم يجعل له الشارع كفارة إلا الاتيان به قبل صلاة الصبح أو زوال اليوم وكذا قراءة الفاتحة قبل الصلاة وتوقيت ورد الصلاة ونحوه مما لم يرد من الشرع نص فيه لا ما ورد فيه نص أو اشارة لصلاة الرواتب واذكار ما بعد الصلاة وقراءة القرآن وصيام النفل ونحوه — فافهم » .

الشفاعة والوسيلة :

ومنه قوله : « وعلمه » لا يعلم عند الله أحد إلا بإذنه وتمام الانتفاع الوسيلة إليه قيل هي لا إله إلا الله وقيل اتباع رسول الله وقيل اتباع في العموم ليتوصل بالأعمال كأصحاب الغار الذين دعا أحدهم بالفضل عمله وبالأشخاص كتوسل عمر رضي الله عنه بالعباس رضي الله عنه في استسقائه وجاء الترغيب في دعاء المرء لأخيه مطلقاً وقال عليه السلام لعمر رضي الله عنه حين ذهب لعمرة لا تنسنا في دعائك يا أخي وذلك للتعليم والا فهو حي عليه السلام ومباح الوسائل وأعلى الخيرات والفضائل . وقد روي عن مالك لا يتوسل بمخلوق أصلاً وقيل الا برسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا كما قال أبو بكر بن العربي في زيارة القبر: لا يزار لينتفع به إلا قبره عليه السلام » .

ثانيا العلم بالعمل :

وقوله عنه : « (قاعدة) لا علم الا بعمل من الشارع أو من نائب منابه فيما أتى به فقال عليه السلام انما العلم بالتعلم وانما الحلم بالتحلم ومن يطلب الخير يؤته ومن يتق الشر يوقه ، وما تفيده النقرى انما هو فهم يوافق الأصول ويشرح الصدور ويوسع العقول ثم هو منقسم الى ما يشمل تحت دائرة الأحكام ومنه ما لا يدخل تحت دائرة العبارة وان كان مما تناوله الاشارة ومنه ما لا تفهمه الضمائر وان أشارت اليه الخلائق مع وضوحه عند مشاهده وتحقيقه عند مطالعه وقوفا فيه فهم لاثبات أصله لا غير فاعرف ما أشرنا اليه وبالله التوفيق » .

شذرات من شرحه للمباحث الأصلية :

ومن شذراته القيمة قوله في شرح المباحث الأصلية تعليقاً على قولهم: من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق: ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق .ومن جمع بينهما فقد تحقق: قلت : تزندق الأول لرفضه الحكمة والأحكام وتفسق الثاني لخلوه من صدق النية فيما هو به والعمل به وتحقق الثالث لقيامه بكل في محله فرجع كلام الصوفية في كل باب لأحوالهم لا تفاوت بين أقوالهم لمن تأملها وذلك خلاف مذاهب غيرهم فمذاهب الغير يتسلط عليها الابطال ومذهب القوم يرجع الى وفاق الحال فان لم يقبل ذلك فليس من مذاهبهم .

منع لبس الخرقة :

ومنها قوله أيضاً : « (تنبيه) الذي ينبغي أن يجزم به في هذا الزمن

منع الخروج والدخول عليها مما عليه الناس من الشح والاعتلال في المال واذا كان الغدر في النفوس طبعاً فالثقة بكل أحد عجز » .

وليعلم العالم لا يرفع عنه الأحكام :

ومنها فيه أيضاً وقد أورده في عدة لفرده مختصراً : « سئل شيخنا الفوري رحمه الله عن ابن العربي الحاتمي فقال احترق بكتبه فل من أهل كل فن . قيل له ما سألناك عن هذا ، قال الحشف فيه من الكفر ان القضية قيل له فما ترجح قال التسليم (قلت) وذلك لأن الغرض التكفير عظر واظهار المزية زجا أضى الخاطر للاقتداء به في الواقع او لاعتقاد ظاهره والله أعلم . ومن هذا النوع ما تقدم ذكره من جواب الإمام تقي الدين الفوي رحمه الله اذ قال الكلام كلام صوفي (وتلك أمة قد خلت لها ما كسبت) الآية وطريب بعض المغاربة المجاورين بمكة في تصويب معتقده في ابن العربي الحاتمي ليصل بعض الفضاة الى عقوبته وأذايته فكونه منكراً له ومكفراً فقال اشهدوا اني مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر وما كان من كلام فلان موافقاً بظاهر الكتاب والسنة فانا أقول به وما كان على خلاف ذلك فانا لكي صنعه ان أريابه فلم يجد له سبيلاً . ووقفت لأبي زرعة العراقي على جواب في شأنه وكذا ابن الفارض ذكر فيه كلام الناس من المنكرين وغيرهم ومال الى انه يعترض على الكلام ويترك فقائل لاحتمال توبته وغيرها ، وهذا وجه من السلامة أيضاً .

والحقيق في ذلك ان وجه الشريعة مراعى ومعنى الحقيقة محفوظ وحرمة العلم لا يرفعها عاطل ولا سهوه ولا خطوه ورتب من العلم والدين لا ترفع عنه الأحكام فتعتبر عباراتهم من حيث حقائقها بدأن

يؤخذ منها ما دلت عليه من المعاني الصحيحة السالمة من الاعتراض وينظر في الألفاظ من حيث ما يقتضيه موجب الحكم في حمله فلا يهمل حق الله فيه وحق الشريعة بالعمل به ولا يتحامل على صاحبه بأن هذا مذهب لأن دلائل انتقاله عنه أكثر من دلائل ثبوته وحسن الظن في حمله مقدم على سوء الظن والزمن يلتمس للمقدر والمتأني بتبع المصيب. وهذا الوجه الذي قلنا أسلم الوجوه وأحسنها شرعاً وحقيقة وبالله التوفيق ».

وهذا كلام نفيس وصدوره من عالم صوفي يزينه نفاسة ولعل خبر زروق من المتصوفة الذين أتوا بعده لا يمكن أن يحكي هذا الكلام، وإن حكاه فإنما ليطعن به في زروق ... أما أن يكون له رأي من هذا القبيل في الشيخ الأكبر فهذا هو الكفر أو أكبر . وبذلك تعرف مقام زروق في العلم والعمل ورسوخ قدمه في التحقق والشرع .

ومنها في شرح الحزب الكبير الإمام الشاذلي عند قوله (يا من هو هو يا هو) قال مبيناً حكم إطلاق هذا الضمير على الله تعالى ما نصه : « معناه الذي لا يمكن أن يشار لجلاله وعظمته فهو هو ، والناس في هذا الإطلاق بحث وانكار على الصوفية ، والتحقيق أن الإطلاق في مثل الإثبات المطلق أسامة أدب وفي مقام التعظيم بأسمائه واستشعاره وشواهده وقرائنه لا بأس به لأهله ».

الحج بالخطوة :

وتعرض في شرح الوغليسية الحج بالخطوة: الشائع ذكره بين أهل هذا الشأن: فتسأل هذا السؤال : « وانظر هل يجب على أهل الخطوة (يعني إذا عدمت الاستطاعة) وإذا فعل هل يجزيه أو لا بد من اعتبار فعله عليه السلام » .

قوله في كتب القوم :

ثم الى جانب هذا الاحتياط المشروع نجد له رشاداً عظيم الفائدة في تمييز كتب القوم لمن يريد أن يتناولها وهو ما أشار اليه في أحد شروحه للحكمة بقوله : « كتب القوم تحتوي على أربعة أنواع (فالذكر والوعظ) وهو حظ العوام والخواص منه نصيب وموادّه من كتب ابن الجوزي وبعض تعاليق المحاسبي وشيء من كتب الإحياء والقوت وتعبير القشيري وما جرى مجراها (والكلام والأحكام) أي أحكام تصفية الأعمال وتصحيح الأحوال من واجب وسنة ومندوب وآداب ظاهراً وباطناً وهو حق المتوجهين من كل فريق وبكل طريق وموادّه من كتب الغزالي والسهروردي ونحوهما (والكلام على الأحوال) أي تحقيقها وتحقيق المقامات والأذواق والمنازلات وهو نصيب المريدين وربما كان تنبيهاً أو تشريفاً لغيرهم وموادّه من كتب الحاتمي في المعاملات والقوني في المنازلات ونحوهما وفي رسالة القشيري مواضيع من ذلك : وفي الجميع مهاوي فاحذرها لصعوبة فهمها (والكلام على الحقائق) أي المعارف والعلوم الالهامية وهو نصيب العارفين المحققين ، وكتاب الحكم يجر على الأطراف الأربعة لا سيما الأخيرين منها فهو جامع لما في كتب الصوفية المطولة والمختصرة مع زيادة البيان واختصار الألفاظ » .

وننظر في القواعد الى هذه الكتب نظرة فنية فصنفها تصنيفاً آخر بحسب الأذواق والميول التي تكون لكل فريق ممن يسلك الطريق فقال :

(فائدة) تعدد وجوه الحسن بقضي بتعدد الاستحسان وحصول الخير لكل مستحسن فمن ثم كان لكل فريق طريق فطعامي تشرشه حوته كتب المحاسبي ومن نحا نحوه والفقيه تصوف زاده ابن الحاج في مدخله والمحدث

تصوف حام حوله ابن العربي في سراجه[1] ولعابه تصوف دار عليه الغزالي في منهاجه والمقريء تصوف نبه عليه القشيري في رسالته والحارث تصوف حواه القوت والاحياء والحكيم تصوف أدخله الحاتمي في كتبه والمنطقي تصوف نحا اليه ابن سبعين في تآليفه والطبائعي[2] تصوف جاء به البرزلي في أسراره والأصولي تصوف قام الشاذلي بتحقيقه ، فليعبر كل بأصله من هناه وبابه الطريق » .

ونظن ان هذا الاستعراض السريع لآرائه في التصوف والصوفية والحكامه عن أهمال القوم ومنازلاتهم يكفي للدلالة على صدق من لقبه بمحتسب العلماء والأولياء واصابته في هذا اللقب .

وكان بودنا أن نستوعب كل ما تخيرناه من كتبه واسوق نظرنا من آثاره وما استحسناه من رسائله الجامعة بين اخوانه ومريديه ، ونعقد بعدا للكلام على طريقته الفقهية وتآليفه في هذا العلم فانه كان علماً من أعلامه ومقامه فيه كمقامه في التصوف يأخذ ويعطي ويقبل ويرد ، ويستشهد بأقوال غير مالكية من علماء المذاهب الأخرى مما يدل على سعة أفقه وكثرة اطلاعه ، ولكن خوف الاطالة والخروج عن المقام في هذه الترجمة جعلنا نكتفي بما تقدم ونقف عند هذا الحد في التعريف بعبقرية الرجل والدلالة على مكانته العلمية الكبيرة .

---

1 الامام العربي سراجاً : سراج المهتدين وعمود بين منير لهديه القاصي ، وسراج الربانيين وعلم ابرار هنا .

2 يعني بالطبائعي صاحب علم أسرار الحروف وطبائعها المتصرف في عالم الطبيعة بما وهبه تركيب منها من الاتحاد على حسب ما يريد في خلقه .

مباغة من مواقفه :

ثم نختم بهذه المباغة الصوفية الجميلة من مواقفه ؛ التي كانت محل انتقاد من الشيخ ابن عجيبة هي ما سبقت الإشارة إليه وهي قوله : «وقفت مشارق الأرض ومغاربها في طلب الحق واستعملت جميع الأسباب المذكورة في معالجة النفس بقدر الإمكان في مرضاة الحق فما طلبت لوجه الحق شيء إلا كان مرهوناً ، ولا عملت في معالجتها بشيء إلا كان معيناً لها ، ولا توجهت لأرضاء الخلق إلا كان غير موف بالمقصود ففزعت الى الالتجا الله عز وجل في الجميع فخرجت بفضل ذلك على رؤية الأسباب ففزعت الى الاستسلام فطرح لي منه رؤيتي وجودي ؛ وهو رأس العلل؛ فطرحت نفسي بين يدي الحق سبحانه طرحاً لا يصحبه حول ولا قوة . فصح عندي ان السلامة من كل شيء بالبراءة من كل شيء والغيبة عن كسل شيء بالوجوع الى الله في كل شيء اعتراراً بالحكمة والقدرة وقياماً مع القطاع بشواهد الاضطلاع ، ولما يرد ت تعامل أمراً ونهياً وخبراً وظهراً وعبودية لا تصحبها رؤية : ورؤية لا يصحبها اعتزاء وانتماء لا يصحبه فريق وضيماً لا يصحبه انتماع متمثلاً في ذلك قول القائل :

لقد كنت أحسب أن وصلك يشترى ... بنفائس الأموال والأرباح
وظننت جهلاً أن حبك هيّن ... تكفي عليه كرائم الأرواح
حتى رأيتك تجتبي وتخص من ... تختاره بطرائف الأمداح
فعلمت أنك لا تُنال بحيلة ... فلويتُ رأسي تحت طي جناحي
وجعلت في غُمْض الغرام إقامتي ... فيه خُدُري دائماً ورواحي

ونعم ما نقاده من أقواله في الانكار على أصل الدعاوى العريضة

وردوده لا يصدر عن الفرم في شطحاتهم من الكلمات النابزة من منهاج الورع هو وحده كاف في رد هذه القصيدة الغاشية التي ذكر الشيخ أحمد بابا جملة منهـا في تكميله الديباج وذكرها كاتبـا ابن مريم في بستانه، لأنها مما يخالف طريقته واعتقاده ومقصده لنفسه وإمداده للدعاوى بالكناية ، ونظن ان أحد أتباعه المفردين هو صاحبها ووضعها على لسان الشيخ تنفيقاً لها وتدليساً على الضعفاء ؛ وكم للملك من نفير .

عبدالله كنون

الثقافة والتنمية والترجمة والنشر

للأستاذ عثمان الكعاك
تونس

ما هي الثقافة ؟.. الثقافة هي مجموعة المعلومات والآداب والفنون العلمية والشعبية التي اكتسبها شعب من الشعوب : أو جماعة الشعوب خلال فترة معينة ، أو طوال حقبة الفترات .

فالأدب اليوناني في عهد آل بطليموس المبين بمدينة فيرنى (الشحات) هو قسم من الثقافة الأدبية العلمية من العصور التي تشمل أيضاً الآداب الأجنبية والآداب الغربية وعلى الخصوص الآداب العربية .

وإذا نظرنا إلى مختلف جمع والأعمال الشعبية سواء بهيئات مرابطين أو بزوايا أو أربطة ، وإلى الأحاجي والشعر العامي (الشعر البرقي مثلاً) إلى نعرية بني هلال وقصة خليفة الزناتي أو حكاية الهلالية وجدنا أدباً شعبياً عريقاً غنياً لأن التعبير هو مصدر للذة عقلية وأدبية في حد ذاته وعنصر في قيام بشخصية ، وإلى جانب ذلك فهو مصدر تكوين

الشعب وينبوع إلهامه لكتاب الروائيين والمسرحيين والرسامين والمغنين والموسيقيين الحقيقيين .

هذا الأدب الشعبي هو الطريق الذي عاش به الشعب قرونا وما زال يعيش به ، والذي عبّر به عن أحاسيسه العراقية كما عبّر به عن عبقريته الروحي . هذا الأدب الشعبي هو جزء من الثقافة الشعبية العالمية التي تشمل أيضاً علم الأنواء والبيطرة والفلاحة والطب والسحر والشعوذة الشعبية .

وسواء أدرس هذه الثقافة الأدبية باللغات الكلاسيكية التي درت بالبلاد كالبربرية والبونيقية واليونانية واللاتينية ، أو التي انتشرت بها نهائياً كالعربية – وهي العربية – أو تدرس هذه الثقافة بالبهلوية والكردي بلسان عربي فصيح فإن هذه العناصر كلها هي جميع الثقافة الأدبية العالمية التي تجمع في أرجاء منعطفها بين الحكم والكيف .

وسواء درسنا الأدب البربري الأول المنقوش على صخور الجبال والحجارة والنقود والمصور بالنقش تصويراً رائعاً معبّراً حالياً ناطقاً بعبارة في صمت ، أو الأدب البربري الحالي الموجود عند المزابيين والأوجلين والقبائل والطوارق .

وسواء درسنا الأدب اليوناني بالكلمات المنبثقة من تلك الحضارة العالمية الإغريقية الكبرى التي بثتها أسرة آل بوس الوطنية فأنجبت أشعار فالينكس Tallinaeus أول من وضع علم دار الكتب وفن التدريس وعلم البيلوجرافيا (الفهارس) والنقد الأدبي وكتابة وضع المؤلفات (دوائر المعارف) وبني أربعين سنة مديراً لمكتبة الإسكندرية ، أو أسيفس الأديب المسرحي الليبي ، أو بريطوفينس أكبر الرياضيين في عصره ...

... سواء أدرست ذلك أو درست الأدب اليوناني والعاطفي بطرابلس في عهد آل سافروس .

أو سواء درست هذا الأدب اللاطيني اليوناني المتشر بجزء وطرابلس ابتداء من سنة ١٤٦ ق. م .

فإن كل هذه الآداب هي جزء لا يتجزأ من الثقافة الأدبية ليبية .

اللغة اللاطينية في ليبيا :

مرت اللغة اللاطينية في ليبيا من سنة ١٤٦ ق. م. إلى سنة ٦٣٢ ب. م. أي إلى سنة ٢٣ هـ حينما فتح عمرو بن العاص ليبيا وانتشرت اللغة العربية فيها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

واللغة اللاطينية هي لغة هندية أوروبية أصلها من السنسكريتية لغة الهند الأولى . جاءت هذه اللغة في صورة بدائية إلى أوروبا مع الأقوام الهندو الأوروبيين ، ولما جاءت جيوش شيوف وانتصرت على الجينيين في وادعة بجانة ومقر حكم أرومان بعد انتصارات على آخر ملك من ملوك البربر : فعادت ليبيا تابعة لهم . ونشر هذا أحدث لغة لاطينية درجة بين طبقات الناس في قطر الليبي الشقيق وسارت بعض لغوية يونانية وبربرية وسودانية ريفية في الخصوص وأصبحت جامعة قرطاجنة ، إلى جانب معاهد الكنائس والمعاهد الدينية بصراطه وبوبه (طرابلس) والبيس ماغنا (الخمس — لبدة) وبرنيق (بنغازي) وطوكره والمرج (برقة) والكنائس (قرطي) وبرقة (تاورغا) .

وتكونت أدب لاطيني أو يوناني انتشر بين الناس في قطر الليبي ، ونبغ فيه نبغاء الكتاب والشعراء والمسرحيين والخطباء ورجال الطب والخلق .

وتكاثرت المعاهد والمدارس والمعارض والنوادي الأدبية والفنية وعاش

العلوم والفنون وسمابع الموسيقى .

ومن اشهر هؤلاء الواقفين البيين الذين نبغوا في عهد الاحتلال الروماني :

١ - كورنوتوس البلي (البيسي) .

لم يكد يقضي قرن ونصف على الاحتلال الروماني فيبلغ القرن الأول بعد الميلاد حتى تكاثرت الآداب وازدهرت دولة البلاغة والديع وارتفعت أسهم الخطابة باليونانية واللاتينية واليونانية ، لاسيما على عهد أشهر الغربية الشهيرة من طنجة إلى الاسكندرية . تعلم ان الشاعر الروماني جوفينال كان ينصح أبناء روما قيقول : اذهب يا ولدي إلى اثينا ... اذهب اليها فانه يغدي الخطيب بماء المرارة ، اعلم ان تلك الأرض الطيبة إذا شئت أن تسهل مواجهك في الخطابة ...

على اننا لا نعلم - مع الأسف - أو لا نعلم إلا قليلاً من الخطباء الأولين الذين نشأوا ببلاد لاطيس من أوربة إلى الجيل الأخير . وقد ضاعت معظم تصانيفهم ولم يبق منها إلا كتاب واحد لي فن البلاغة ألفه باللغة اليونانية . تعلم ان معظم أسماء هؤلاء الخطباء مندثرة من الوجود ، ولم يحفظ التاريخ الصحيح إلا بالقليل : هذه حقيقة لا شك ، لحدمة كورنوتوس البلي والثاني سقاروس الجد ابن بلده .

وأبو كورنوتوس عمدة ليتيس ماغنا أي ليتيس الكبرى ، المدينة الأثرية المشهورة التي فاقت فيها عظمة الأقزام البربرية عظمة الرومان أنفسهم وفي نفس ميادينهم .

متى ولد ؟ لا نعرف على وجه التحقيق . ودرس تعاليمه الأولية والثانوية فتخرج في الآداب اليونانية واللاتينية والفلسفة والحقوق ؛ ثم انتقل إلى جامعة أثينا فأكمل بها دروسه بجانب الأرستقراطية

لمدة حتى مهر في الخطابة والفلسفة ، ثم انتقل إلى روما . ولا ندري متى انتقل إلى روما لكننا نجده هناك على عهد الإمبراطور نيرون والإمبراطور فلوفيوس[1] .

وكان يعتبر يومئذ كأحد أكابر محاماة العاصمة الرومانية التي كانت عاصمة العلم والآداب والفنون في العالم القديم في ذلك العهد .

وكان أحد أعمدة المدرسة الفلسفية الأبيقورية أو الرواقية التي تقول بالجلد والصبر وتجاهل العالم وتطلب الصواب لمصدرها .

قال فيه الشاعر برسيوس Persius أحد صحبه ومريديه :

« أنت يا كورنوتوس يطلب لك أن تقضي ليلتك ساهراً تطالع الكتب إلى أن يصير وجهك من الأرق والتعب . كل ذلك لتلقي إلى تلاميذك هذا الشباب المتعطش فتودع في صدره السليم بذور الهدى السامية التي جاء بها الفيلسوف كيانتوس .

تعالوا أيها الناس من شباب وشيب ، تعالوا فتفقوا أمامكم بحور الفلسفة وجواهر معانيه . تعالوا وانصتوا تعلموا ما هي الحرية من الحق وتزودوا زادكم من هذه العلوم تؤنس غربة نفوسكم في وحشة الشيخوخة المحزنة ... »

لا شك أن هذا الصديق شاعر : أعني به الشاعر اللاتيني برسيوس[2] .

---

1 فلافيوس ليصر الإمبراطور الروماني ولد سنة ٣٠ بعد الميلاد . وولي العرش بعد الإمبراطور نيرون وحكم من ٦٩ إلى ٧٩ بعد الميلاد .

2 برسيوس شاعر لاتيني روماني ولد بشتيرة (٣٤ — ٦٢) ، أقبل كورنوتوس وتتلمذ له . انظر : كتاب الفلاسفة ج ٤ الأرقام ٦٧ — ٦٨ ، وخصوصاً ما ورد في كتاب : حياة برسيوس : Vita Persii per O. Jahn — Berlin 1843

صار برسيوس تلميذاً لكيرنوتوس في السادسة عشرة من عمره ، فتعلق به منذ ذلك الحين وبذل آخر نفس من حياته . فأخذ يهذبه ويحببه بها وانبس أفكاره الفلسفية بزيد الحماس وطبعها في سلوكه وسيره وطرق تفكيره ، واتخذ منه ناصحه ومرشده ومدبر مصيره في الحياة . فما كان يفارقه أبداً .

وفي بيت أستاذه التقى برسيوس بشاعر رومانى آخر يسمى لوكانيوس . لكن برسيوس تأثر بشخصه أكثر من لوكانوس أو أي مريد آخر ، فكان يعبد أفكاره ومذاهبه الفلسفية حبادة . فكان يوليه إعجاب المخلص المتحمس واحترامه الصادق وثقته العمياء .

ثم ما لبث أن أهداه بعض أبيات قصيدته الفذة ليعرب له عن مشاعر حبه واعتزازه بجميله عليه . قال :

وأنى يا أستاذي الجليل أفتح لك قلبي بأكمله لكي أريك يا أستاذي بخليل وصديقي الحميم أي مكانة لك عندي وأني سأعمل كل ما في نفسي .

فأخبرني وجربني أنت الذي اعتدت بخبرتك الأشياء وفتشها بفهم ومعرفة الصادق من البهرج والحق من الباطل وما هو نافع حسناً وأدباً وأخلاقاً طيبة وما هو فارغ من فؤاد أم مرتجى .

أنت تعرف الفرق ولا مشاحة بين سداد المذهب والسلوك السوي بمذهب ، ثم قال :

« كنت في أول عهدي ومفترق طريقي الحياة حيال تساؤل النفس

---

* لوكانوس شاعر لاتيني ولد بمدينة قرطبة في ٣٩ ب . م . وانتحر سنة ٦٥ ب . م . كان معاصراً لنيرون الامبراطور والإسباني الأصل هو أيضاً . أشهر مؤلفاته ملحمة شعرية تسمى « فارسالية » .

مرعشة مضطربة أين مسلك نسلك . جعلتك دليلي ، واعتمدت بهديك ، فتكفلت وتكفلت بقود حطاب والسير به كيفما سواء السبيل . فقدت شعبي إلى ساحل السلامة وأودعتني راحة الفلسفة الشهية . كنت أتغذى من مائدة طعامك كما كنت أنهل من منهل علمك وكلامك وكنا نقضي الليل نرقب النجوم ونتفحص العالم ونتأمل الفهوم .

وتوفي برميرس صغيراً فبكاه أستاذه ونقح تأليفه ونشر الصالح منها وتكفلت بقية عمره .

ثم تبناه الامبراطور القاسي نارون . فلم تعم عنه شيئاً .

ترك لنا كورنوتوس عدة تآليف تحتوي مواضيع مختلفة جداً . فقد كان يتمتع بثقافة موسوعية وفكراً فسيح الأبعاد . كان فيلسوفاً وشاعراً وخطيباً وكاتباً وكاتباً في أغلب الموضوعات سواء باللاطينية أو باليونانية من باب الأولى .

من حيث انه فيلسوف ألف رسالة رد فيها على استنتاجات أرسطو من كتاب كاتيغوريامس .

ووضع كتاباً في اللاهوت اليوناني الميثولوجي القائم على الأساطير فبين مذهب الاسطوانيين في تأويل رموز هذه الأساطير والخرافات الدينية .

ومن حيث انه شاعر ألف عدة مسرحيات ناجحة .

ومن حيث انه بلاغي ألف كتاباً في العلوم البلاغية عند ايرناك القاسي .

ومن حيث انه نحوي (اختصاصي في الفنين اليونانية واللاطينية) ألف عدة تآليف باللاطينية منها شرح معجز للحنة فرجيل (الإنيادة ، الحاريات ، الريفيات الخ) . ووضع تأليفاً كبيراً في الصور الفكرية ، وثالثاً في علم الرسم (رسم الكلمات) في اللغة اللاطينية بلغنا منه ملخص

له كتب في عهد الامبراطرة الانطونيين .

ولم يبق لنا من كل تلك الكتب إلا تأليفه عن اللاهوت اليوناني ، وهو كتاب ليس بغريب ولا مبتكر من حيث الاصل ولكنه نافع مفيد للطالب.

ولم يسلم من ذلك المؤلف القيم القديم أي تأليف آخر في صورته الأولى على الأقل . وبذلك صار يتعذر علينا أن نحكم حكماً تاماً في بعض فضل هذا الكاتب ومزاياه وان نقدر مواهبه الكتابية حق قدرها وان نقيم لبيرغه اعتباره .

إنما نعلم انه كان عظيم النصيب في قائم حياته ؛ وان هذه السمعة الطيبة الذائعة عاشت بعد عدت . فبعد مضي قرون على قضاء نحبه كان لا يزال معروفاً في الاوساط الثقافية مقدراً أيما تقدير . حتى كان الكتاب اللاتينيون يتلقون كتبهم ويسيرونها اليه ما له من صيت أدبي عظيم .

لا شك أن أستاذ الشاعر ارفنيوس ومرشد برسيوس وصديقه الحميم كان فيلسوفاً بتاراً وعالماً فائقاً وشخصية نبيلة وفكراً مفتحاً نزيهاً مستنيراً متعلماً متفقهاً مثقفاً مهذباً .

فهو بموسوعية علومه وبتساع مواهبه ومضاء ذوقه كان مثالية الكتاب الاقوياء الذين سيتألقون في العصور التالية .

سيتيميوس سافارونس الجد . في المدة التي تلي فيها الامبراطور الشاعر كورنوتوس كان مواطنه الكاتب سيتيميوس سافارونس قد افتتح عيادته بالمحاماة لدى محاكم روما . وسرعان ما اكتسب صيتاً فائقاً واشتهر بالمحامي النزيه والخطيب المفوه .

ولد سيتيميوس بمدينة لبتيس ماغنا التي سيصبح حفيده الامبراطور تفاخر روما الكبرى بجمالها وكمالها ورجالها ومعاصرها بمدارسها ومعالمها .

ولد متحدراً من عائلة برجوازية بونيقية مشهورة بتلك المدينة ذات الآثار الباهرة إلى الآن . وهي من تلك العائلات البونيقية العريقة التي عاشت في لباسها وطعامها ومعارفها وآدابها وفنونها وعلومها منذ القرن الرابع قبل الميلاد ، لكن حافظت إلى جانب ذلك على بونيقيتها التي لم ترض بها بديلاً . ثم لما فرضت روما الرومانية سلطانها على هذه الأصقاع تزوجت تلك العائلات في نخبتها وعاداتها وفنونها وآدابها . فكانت سباقة إلى احتضان الحضارة الرومانية . وليس عجيباً في ذلك كثير كلفة فيه الحضارة الرومانية إلا مزيجاً عجيباً نسجه العناصر مركباً من الحضارة اليونانية ومن الحضارة البونيقية التي أخذها الرومان من صقلية وسردانية . ولما كانت هذه العائلات البرجوازية بونيقية الأصل يونانية الثقافة فلم يكن عجباً عجيباً احتضان الحضارة الرومانية : حضارة هذا القادم الجديد .

درس ماثاروس بقسطه وافٍ أولاً ، ثم سرعان ما انتقل إلى روما في سن مبكرة .

كتب له في ذلك الشاعر ستاسيوس[1] أحد أصدقائه : «أنت عظيم الحظ يا صديقي حيث انتقلت منذ نعومة أظفارك إلى روما فلم تعرف الجو الإفريقي . نزلت بأحد أغنى أعيانها ورضعت لبان الآداب والفنون اللاتينية من ثديها العميم . وقد أحسن الذي تبناك فقد جعلك تقوم ثابت التوازن في غمار العلوم والفنون بولاية نومكانة التي هي بلادها الحبيبة . كبرت بين أبناء أعضاء مجلس الشيوخ الروماني ونعمت برتبة فارس الشرف والقسم . واجتهدت كل الاجتهاد وواصلت ليلك بنهارك في العمل المتحمس .»

---

[1] ستاسيوس أحد الشعراء الرومانيين المشهورين في عهد الإمبراطور تراجان . ولد بنابولي (٤٠ ب . م - ٩٦) كتب ملحمة شعرية عنوانها «طيبة» وأخرى عنوانها «أخيليد» لم يتمها لأنه توفي . يمتاز أسلوبه بالبريق والتكلف فيه تصنع . وترجم فيها لمعاصريه .

وأتم سافاروس دراسته بروما . وصادق ذلك الشاب اليافع الروماني المتحفز المثقف الطموح . وبقي على عهدهم فيما تلا من الأيام وبقوا على جهد ، فرومن كل الرومن . وتخرج أحسن تخرج في اللغة واللاتينية والخطابة والفنون والحقوق ، حتى طاب في نفسه : « أريجور أن تكون ولدت هكذا بغياً في أحياء بلاد البرت عشيقة لبيبس ؟ » : استفهام انكاري ، أي لا يجوز ولا يكاد يصدق به .

فمن سمع تلك اللغة اللاتينية الفذة ، تلك الخطابة التي ضاعت خطابة شيشرون ، وذلك التحضر الروماني الذي يحكي أيام الجبر (أيام روما السعيدة) لا يشك في أنه رد على قمة الجبل الذي بنى عليه رومولوس روما ، وأنه ما أدرك مجد القمم حتى شرب من ينابيع ليونورس فتروس أحسن تروس .

كان سيسيرون خزاناً ، فصيحاً ، سيد اللحظ جميل الإدارة حلو الشكاهة عبّ لجميع حسن المباشرة يرغب الكل في صداقته والاجتماع به . عش هذا الخطيب اللاتيني اليمي في أوساط رجالات الأدب من الحصوص ، تلك الأوساط التي كان يختلف إليها كوتيليانوس إمام البلاغة اللاتينية . والتي كان لا يفارقها العالم الطبيب بلينيوس الكبير والمؤرخ سنيت .

نحن نعرف سافاروس الجد من خلال ما مدحه به الشعراء معاصروه الذين كانوا يعيشون معه بروما . فمن ذلك أن الشاعر مارسيال مدحه أثناء أربعة مدائح . نقول في أحدها : لقد دعوتك لعشاء على مائدتي . ولعلك تعجب أيها العالم الفاضل من أن أمدحك بهذه الأبيات . فأنت أهل منه فكيف تجازي تقريظا ؟ لربما علمت أن جزيرة الإلاه الأعظم قد شبع من الخمر الأعتقة وشرب أطيب الريق ، ومع ذلك لا تزال تقرب لها الخمر الجيدة والخمور التي لم تذق ؟

بين عينيك ، لكنه بكل المزايا وأفرغوا عينيك حتى الكمال فوق لم تقبل هدايا الزوجة بعد بقي لك أن تقبل ؟

ذلك لأن سافاروس كان شخصية من قوات الوزن في هذه البيئة الرومانية الممتازة ، وكان يمثل في بيته مجتمعاً منتخباً حسب الكلمة أدق حساب . خذ لك مثلاً لا الحصر مارسيال أهدى إليه أحد كتبه ، وأحضر عند التقديم باقة يقدم شيئاً تافهاً لرجل عظيم ، فهو يضيع عليه وقتاً ثميناً في مطالعة سفاسف لا معنى له .

وفي يوم آخر عاتب شاعرنا مارسيال صديقه البلاغي العتيد على أنه أبطأ في مطالعة كتابه الجديد وتصحيحه وملاحظاته عنه . فقال : « علم يا الآن واستحثني في نشر كتيباتي الجديدة . ما بالك يا صديقي ؟ لا أزال نطالع منها مضجعين حتى تستوعبها بأذنيك حتى تحيل طالباً منها النوم . ويسرعان ما يغادر إليك كتاباتي السأمة والقلق ، ومع ذلك فهي في عينها الفضائل التي كنت تطلب مني إعادتها على مسمعك والتي كنت تبدي إلي تسجيلها في ورقات ، وهي التي كنت تحفظها عن ظهر قلب من سماع وتنقلها إلى الشاعب والمسارح » .

* * *

لقد عاشت كتب سافاروس التي ألفها ، فلم يبخل منها شيء ، لكن المهم شخصيته المرتسمة بوضوح في مدائح مناسيوس ومارسيال .

كان خطيباً مصقعاً ممتازاً محترماً موفور الكرامة في نبوغه وفي سيرة حياته .

قال له مناسيوس : « يا سافاروس افارس الحوار والخطيب المصقع والبليغ ، تحمل فتبرع ، ويزاحم الناس على قامة الشعبة الأشراف

اليك : تكفل لا تبيع بالاغنك ومبلغ لا تحتاج إلى مداورة عملك » .

لقد كانت ثروته ومرتبته الاجتماعية السامية يسمحان له بأن يعمل مستقلاً . فلم يكن يتهافت على القضايا ولا يتذلل في المحاكم . بل كان يوفر لنفسه فراغاً يتفق مع ميوله في إصاغة الفكر وإدارة الذكاء والفصة .

فكان مع أصدقائه يتجاذب أطراف الحديث في شؤون الأدب ، فإن ديسنه دائماً في روما وكلما سنحت له الفرصة هجر إلى البادية المزينة . فيتنقل إلى حقول ايتروريا أو سابين ، وهناك بين الظلال وأنهار والحيوان والزروع والغابات ، على خفيف الأوراق وحرير المياه وتغريد الطيور ودغدغة أشعة الشمس التي ترسل شعاعها الذهبية إلى الأرض .. يتأمل مناظرها على الدراسة . ويوسع القلم تأليف الكتب الكثيرة التي صنعها . منها كتاب « ملاحظات عن فن البلاغة » الذي لم يعثر والذي اعتمد عليه كوانتيليانوس البلاغي الروماني الكبير ، مثلما اعتمد ابن رشيق في كتاب العمدة على تصانيف شيخه عبد الكريم النهشلي .

ونراه أحياناً يقرض الشعر ، حتى قال فيه الشاعر متسيوس أحد ما يطلب اليك أن تعيش بالأرياف ، وأن تستجم بالبادية ، وهناك تألف تحيك الشعر . لكنك أحياناً تنازل إلى شعرنا . فبذلك في عزلتك القاصية توقع على عود الشعر أبدع النبرات : فتخرج السورة الصادقة من صدقها .

هذا قال أصدقاء مناظروس : « ذلك أطلت الإقامة بروما منذ نعومة أظفارك حتى لم يبق منك من الأعرقة شيء . فلست فرطاجياً ولا يونانياً ولا ليبياً . فلا ترى في نفسك ولا في ملامحك شيئاً من القرطاجيين ، فأنت رومانى أصيل من صلب ايطاليا . ويوجد بروما من ضمن الرومانيين أبناء ليبيا يشرفون بفضائلهم وبلاغتهم وآدابهم وسلوكهم مستظل رئيسهم » .

إذا كان المغاربة يأخذون في تقصير الخطابات فطبيعة غلابة على أمرها . وأدركت مناظروس الشيخوخة ، فرجع إلى مسقط رأسه ليقيم

مثلاً بالأهرام والمجد والعلوم والآداب . واستوحت قرطاجة الدارجة مناعتها وتلك بضاعتها ردت اليها . وهناك حضر ماناروس الشيخ الخطيب الفارس ولادة حفيده الخطيب الامبراطور .

وصارت أسرة ماناروس قرطاجية من جديد منذ الله في أرضه ، حتى أن حفيدة الامبراطور الشيخ لم تكن تعرف حرفاً واحداً من اللاطينية ، وأن حفيده الامبراطور الكبير حافظ إلى آخر أيامه على تركن رومة على اللهجة البونيقية .

سبتيميوس ماناروس الحفيد :

من قلب القارة الافريقية وعلى الغرب منها أتى رجال سياسة ناجحون من صميم التربة الافريقية الحقيقية جلسوا على عرش رومة .

ومن هؤلاء البونس السوبي . ولد بمدينة سوبه بتونس . وكانت تسمى شروميتوم ، ومنهم آل غورديانوس الشهيرة الملاك الذين كانوا أدباء بقدر ما كانوا محترفين ، وكانوا معاصرين لقدر ما كانوا رجال دولة ، فاصبح انهم بنوا قصر الجم بين سوسة والقيقاس الذي يضاهي الكولوزيوم برومة العظمى .

ومن هؤلاء الأباطرة العظماء سبتيميوس ماناروس الحفيد وأخوه الاصغر وكلاهما من أبناء ليبس وحفيد لماناروس الشيخ الفارس الخطيب .

ولد مدينة ليبس التي أحبها وجدد شبابها ورمم رابتها وشيد معابدها وأبنية منبتها ، ودرس بها منذ البداية وارتفع في سلم الطلب درجة درجة من الدرك الأسفل إلى القمة . وتخرج في سلك المحاماة كفؤ بسيط

واكتسب بفطرته درجة درجة إلى أعلى الرتب .

ولد بقرية لينيس سنة ١٤٦ ب. م. وقضى فيها طفولته وشبابه ، وأثر بها إلى آخر أيامه كما تأثرت به إلى آخر أيامها .

قلنا إن عائلته عائلة بونيقية برجوازية عريقة ، وبها نشأت ثم تربت وتغيبت مع ذلك على بونيقيتها وافريقيتها ، لكنها كانت تحب الجداسيق وحب العلم . فاهتمت بتربية سافاروس الصغير كل الاهتمام وحرصت على أن يقضي كل مراحل التعليم .

ذلك لأن العائلة لا تزال مسموعة وتقاليدها تقاليد طموح والشباب هو أيضاً كثير الطموح ، رأي عجب في ذلك ؟ فلا ضير عليه ولا ضرار .

ومع أن عائلته ما زالت تتكلم البونيقية وتكتبها وتحرص على نفسها والمحافظة عليها منذ نزوح فلك نحو البونانية واللاتينية ذلك لأن العائلة قد ربت سافاروس وقد تغلب كثير من أفرادها في وظيفة قاضي فصارت البونيقية لغة الوطن ، واليونانية لغة الثقافة ، واللاتينية لغة الجهة .

ولما بلغ فتى سافاروس الخامسة عشرة كان يشرب من الآداب حسب التقاليد الجارية يومئذ . فكان يلقي الخطب الرنانة في السجالات العامة بمدينة لبتيس ليتمرن في الخطابة أحسن تمرن بالتدرب عليها في كل يوم حتى تزول عنه الخشمة ومعها الجموع والكلفة وضعف الاستعداد . كان متيقن اللسان باليونانية ولكنه لا يزال يومئذ قليل المعرفة باللاتينية .

ثم لما صعد ماركوس اوريليوس (صاحب خزان الرخام ، الآتي الرومي الجليل جنية موايلس) عرش روما انتقل سافاروس اليها وهناك تعاطى دراسة الحقوق على حبة أساتذتها في القوانين مثل مكينولا Scaevola . ثم لما أتم دراساته هناك انجه إلى آسية ، عاصمة اليونان والثقافة اليونانية ، فأكمل هناك بضعة الأدبية والفلسفية والعلمية :

وكان يتدرب في الآن ليواجه عن خفايا الأساطير والميثولوجيا عند الاغريق .

ثم نقل راجعاً إلى رومية الكبرى ، وتعاطى بها عدة مهن . باشر أولاً مهنة استاذ بلاغة وخطابة في اللغتين اليونانية واللاطينية ، ثم سجل عند قسم فئة المحامين لدى المحاكم الرومانية وزاول الدفاع عن القضايا الجنائية . ثم مرعان ما تبين له ان هذه المهن قليلة الربح فنزل إلى ميدان السياسة .

ففي سنة ١٧٢ ب. م. دخل محسن الشيوخ كرقيب ، وكان يوشك في السادسة والعشرين من عمره ، وبعد مراتب التعليم السياسي ، فصار خطيباً عسكرياً رزيناً حربياً ومعتمداً لدى بروقنصل (نائب الحاكم) بافريقيا ، وقاد عدة معارك في كثير من الحملات العسكرية واضطلع بأعباء عدة وظائف ، ونبغ في كل واحدة منها .

وبعد ذلك لم تمض عليه إلا سنتان حتى بويع امبراطوراً على عرش رومة سنة ١٩٣ وبقي فيها إلى سنة ٢١١ . وكان ديدنه طول الحياة العمل ، فلما أخذ يحتضر كان آخر لفظ تلفظ به Laboremus (لنعمل) : فقد أحب شعاراً !

كان يعمل كل أيام حياته ، فإذا صرف عنايته أولاً وبالذات لتوطيد الدولة فانه لم يهمل أمر الآداب والعلوم . فكان إذ آخر أيامه يذكر أنه ابتدأ عمله كخطيب وعالم .

كان خطيباً مصقعاً وعصرياً اتخذ لاذعاً لاذعاً بين الذرات في خطبه الموجهة إلى الجنود ، أما خطبه في اقاعة محسن الشيوخ فقد أفرغ عليها شيئاً من جلالة الكسروانية شيئاً ، فبلاغته بلاغة رجل والد لأمم ويريد أن يطاع .

وكان إلى جانب ذلك طبيباً درس الطب وحذقه . فكان يعالج أصدقاءه ويخدمهم وقد زاد المصائر من الأدوية والعقاقير التي وصفها جالينوس .

وقد تعمق في دراسة الفلسفة وخصوصاً الرياضة والخطابة والآداب ولكن حسبه ذلك . فذكر لنا أنه كتبها باليونانية وأورد فيها حياته الخاصة وعلاقته بأبيه صداقة إلا أن كان يحاول أن يعتذر عن هفواته لأنه مثل مزاجه البلغمي الذي كان يرجحه على عرق روما .

قال عنه المؤرخ جون كاسيوس الذي كان يعرفه عن قرب : « كان شغوفاً بمعرفة الأدب أكثر مما كان يتبجح فيها فكنت تجد لديه كثيراً من الأفكار وقليلاً من العبارات الجميلة » .

وقد رد بعضهم عن ذلك بأن سامونيكوس لم يكن يعرف طلاقة لسان كاسيوس . فإذا حكمنا عليه من خلال خطبه التي ألقاها مجلس الشيوخ نجده سلس الأسلوب قليل الرصانة عديم الصناعة . ليس هناك إلا قوة وعزيمة واقتدار وإيجاز يتردد ويرد .

كان سامونيكوس يحب أن يعيش به رجال الأدب ، لكنه لا يعجب كثيراً أهل روما ولا يتذوقهم . لهو يصر أن يربي أبنه لتيس ، قد تزوج أمه سوريه من حمص . لقد وآداها يونانية . وهو هو الذي يعرف أسرار اليونانية ولم يعرف اللاتينية إلا قليلاً . فكان في قصر حسن بالاتينوس يعيش في نادٍ أدبي يختلف إليه الأغريق واليونان . فترى فيه كثيراً من الكتاب والعلماء المشهور ، مثل الشاعر اوبيانوس الذي تغنى في معروفاته : علاقات لتيس فهو مثل الشاعر لوكريط العربي في طرقه أو أبي نواس في طروقاته : وفعلات سامونيكوس : والمقرئين لوبيانوس وبيبانوس وقد كان جميلاً في القراءة وكلاهما من أهل سوري : وفيلوسوف ديوجينس لاكرتيوس والخطيب الغربي ابليوس والشاعر الفرنسي فورجيانوس الذي كان إذ ذاك شاعراً ربما يتسنم عرش روما وبين مسرح الجم

الشهير ، والقصاص ابوليوس المقب بلسان العسل لعذوبة قصه وجمال حكايته وموسيقية ألفاظه .

هي هذا البلاط الأدبي والعلمي والفني والسياسي كان الناس يتكلمون اليونانية لغة الامبراطورة السورية الجميلة ، وهي أيضاً لغة لمحبية قلب سبتيموس . وذلك لأنه نشأ على معرفة اليونانية لغة آبائه وأجداده وكانت دراسته يونانية وما جاء اللاتينية إلا مؤخراً .

فهو برنيقي أساساً . ومنذ طفولته كان متيمل شاه الاعلى في جهاته وحبله العسكرية واخلاصه لافريقيا والغرب . وما جلس على عرش روما أول أرطانه لافريقية اهتمامه وعنايته . ففي وشيه وعصر وانجا وعمتر الدنون لواحد على الجميع وأبل الأمن وأسس شرطة قوية فعالة ونظم البر المصري وفتح الأرضين لابناء جلدته وبني الطرقات والجسور .

وأكثر برونة للوطنين الافارقة فكان وزيره بوليانوس من أبناء مدينه .

وكان بلاطه عامراً برجال العلم والأدب من الافارقة .

هنا هو الرجل العظيم والسياسي الماهر والكاتب المشهور والخطيب المصقع والرجل المثالي الذي قال عنه مرحوم : « كان الافريقة يعبدون عبدة الآلة . »

الاسكندر سالاروس :

هو أيضاً من هذه العائلة من الزيجرة الافريقة وخاصة من آل سالاروس ، جلس على عرش روما وأكمل مهمة سبتيموس . كان

خطيباً مصقعاً وشاعراً وناقداً أثرى نفسه حياة المعاصرة .

رغم عن الخصوص بالجامعات وتأسيسها وتنظيم التعليم فيها . فأجرى منح الدراسة الوفيرة على العدد العديد من الطلبة الأفارقة الفقهاء وأسس بورسة والزاويا والأعراف عدداً وفيراً من المكاتب العمومية لتدريس البلاغة والنحو والطب والعزالة والتنجيم والرياضيات وعلم الأثقال .

* * *

الأدب العربي

إذا أطلنا في الحديث عن الأدب الليبي قبل الإسلام وبعدت عن العربية فلأن مجهول كثير في الغالب وهو أكثر مدعون لا تستجيب له ولا تستند له .

أما الأدب العربي فمع احتياجه الأكيد لمعرفة معالمه بل أقطار ليبيا العزيز ومع شدة شوقنا إلى توضيح ملامحه فهو مقسوم بالجملة .

نشأ هذا الأدب سنة ٢٢ حينما فتح عمرو بن العاص ليبيا . وتستمر بدون انقطاع إلى يومنا الماثل هذا والمستقبل له ، بل مستقبله أعظم وأبقى . وقد أصبح هذا الأدب على بعده بالجملة فوجدنا له رجالات هذا الأدب باللسان الفصيح لا يقلون عن مثيلاتهم رجحان . وليس هذا بالشيء القليل في ظل قليل المكان بالإضافة إلى مساحات : ولكنه هذا معقول بالنسبة إلى الدور الثقافي الذي قامت به ليبيا بين الشرق والغرب خلال العصور الإسلامية الزاهرة .

وبدراسة هذا الموضوع الطويل العريض هي التي سنهتم بها أولا وبالذات .

لنقول :

أولاً ـ المسح الثقافي في ليبيا :

كل دولة تطلع إلى النهوض وترمي بسهم مصيب في ميدان الحضارة تبدأ بالمسح الثقافي : أي بإحصاء تراثها الثقافي الذي هو تراث فصيح وتراث شعبي . وإذا كانت هذه الدولة قد بقيت حيناً ما تحت الاستعمار البغيض : فإن مصادر البحث عن ثقافتها وعلومها وآدابها وفنونها تكون متوالى تلك الحقبة بلغة الأجنبي المحتل ، أو بلغات أجنبية مختلفة .

وهذا عام في الأقطار العربية ولا يزال قائماً إلى الآن فمصادر البحث عن شؤون المغرب الأقصى الشقيق المسمى قديماً بإفريقيا الذي كان تحت نير الاستعمار الإسباني وقد كتبت كلها أو معظمها باللغة الإسبانية . وأكثرية مصادر البحث عن الجزائر والمغرب الأقصى (المنطقة التي كانت فرنسية) وتونس وسوريا ولبنان هي بالفرنسية . وأغلبية المصادر المتعلقة بالجمهورية العربية المتحدة أو الأردن أو السودان أو فلسطين أو العراق أو الكويت هي بالانكليزية . وغالب المصادر المتعلقة بتاريخ ليبيا وجغرافيتها وجيولوجيتها وحيوانها ونباتها وأحوالها الصحية وصحاريها وبحارها وطبقات سكانها وعاداتهم وفلكلورهم ولهجاتهم وآدابهم قد كتبت باللغة الإيطالية .

بحيث أن العلم العربي الآن يعاني أزمة ببليوغرافية ولا يشعر بها لأن غالب العارفين والباحثين يعرفون لغة الأجنبي التي بها المصادر والتي كانت لغة المحتل فلا يرون غضاضة عليهم أن يتجهوا إليها مباشرة . وقد تريد أن يفعلوا غير هذا ؟

إذا لم تكن إلا الأسنة مركباً ... فما حيلة المضطر إلا ركوبها

إلا أنه حملت أزمات للأمة جديدة .

الأزمة الأولى تتمثل بكرامة الأمة الوطنية التي هي اللغة العربية لغة القرآن الكريم والشريعة الغراء والحضارة الإسلامية والشعوب العربية واللغة الموحدة والمجاهدين الذين استشهدوا في سبيلها .

فأصبح الناس يشعرون كل يوم ازداد فأزداد بأن لا بد من التزود مع معرفة لغة أو لغات أخرى وجوباً .

تكون معرفة العربية تقتضي تحويلها من جديد إلى لغة مصادر تكفي بنفسها ولا تستند إلى غيرها .

وهذا يذكرنا بالأزمة التي وقعت في أواخر أيام الأمويين وأوائل العباسيين : فإن المسلمين بعد ظهور الإسلام وجهاد الفرق المجاورين وجدوا أنفسهم في رأس امبراطورية عظمى استوعبت أقاليمهم الوطنية وحدها وأضافت إليها معظم الأمبراطوريتين السابقتين : الأمبراطورية الايرانية (بنو ساسان) والأمبراطورية البيزنطية والرومانية . دولة وجيوش ودواوين حكومة وولاة وهيكل كسروي كامل . وتكون الكل يعتمد على كتاب من السريان أو من اليونان يكتبون بالسريانية أو باليونانية . وما تعريبهم إلا النصيب القليل . فكانت لغة المراسلات السياسية والعسكرية والادارية . ولم تكن لغة الحرف والرياضيات والحساب والطب والنبات والحيوان . إذ ذاك أدرك المسلمون فظاعة هذا الفراغ فأقبلوا على عملية من مثالية :

العملية الأولى : المسح الثقافي : أي احصاء الحالة الثقافية . فأحصوا رواة اللغة بجمهرة اللغة ، ورواة الحديث بجمهرة الحديث ، ورواة الأخبار بجمهرة السيرة والمغازي والحوليات .

العملية الثانية : انشاء العلوم الإسلامية الضرورية للإسلام نفسه كعلوم

العقيدة والعبادات والمعاملات . الاحتاج إلى إيجاد علوم آلية لفهم العلوم الأصلية . فلا نفهم القرآن الكريم أو الحديث الشريف إلا بمعرفة اللغة . ولا تعرف اللغة إلا بجمع مفرداتها وتحرير معانيها ، ولا يتيسر معانيها إلا من جمع الشعر ونقد معانيه وضبط موازينه ، ولا نهتدي إلى ضبط الحركة الأخيرة ومعرفة صلة الكلمة بالكلمة من معاني الإعراب إلا بالنحو ولا جمال الألفاظ والمعاني إلا بالبلاغة . فأسس المسلمون وبلوروا استمداد من الخارج كتب اللغة والمعاجم والبلاغة والعروض والقوافي والنحو والصرف وعلم المعاني وعلم الشعر والنقد الأدبي .

ثم أسسوا علوم الحديث من علم رجال وطبقات ومصطلح حديث ونقد سند بالتجريح والتعديل ونقد المتن . ووضعوا علوم القرآن ، إلى غير ذلك ، ثم استخرجوا من الكل العلوم الإسلامية من فقه وفرائض وحسبة وعقيدة وميقات .

المسألة الثالثة : وجد المسلمون الشعوب التي احتلوها من يونان وهند وبيزنطيين وروماك وغيرة العلوم كثيرة الكتب فكانوا أرقى منها سياسة وأعظم منها دولة وأقل منها علماً . وهل توازن علمٌ تعيش فيه الدولة الإسلامية في عصر عظيم . فترجمت كل تلك الكتب في عامة المواضيع . لدا مضى قرن إلا واللغة العربية التي لم تكن لغة مصدرية بيليوغرافية بالإضافة حتى إن نفسها قد صارت لغة مصدرية عالية بل هي اللغة المصدرية العالمية الوحيدة . وذلك بأن كل لغة كانت مصدرية بالنسبة إلى نفسها : فما ترجم العرب من كل اللغات صارت العربية مصدر المصدر ولغة العلم ولسان العلم والأدب والفن والسياسة والرئاسة . وأضاف العرب إلى فتوحات العقيدة فتوحات السيف ، وإلى فتوحات العقيدة والسيف فتوحات القلم ، وأقاموا دولة السياسة بدولة العلم .

والعملية الثالثة : هي تهذيب الترجمات والمعربات وتحسين اللغة والتركيب .

العملية الرابعة : شرح هذه التآليف .

العملية الخامسة : الإقبال على التأليف الأصيل باللسان العربي . وتقدم العلوم واختراع الاختراعات والآلات والتآليف في المستحدثات التي احدثها المسلمون في علم الدين والأدب والفن والملاحة والعسكرية والزراعة والصناعة وغيرها .

العملية السادسة : جمع ما تفرق من العلوم في موسوعات . أرسل رسائل اخوان الصفاء ، وذلك لضبط ما وصل إليه العلم وتحرير مسائله وتقرير أصوله وتقريب مطالبه .

ثم جمع ابن خلدون التاريخ وقدم له مقدمة في العلوم الطبيعية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وجمع ابن فضل الله العمري العلوم الجغرافية وجمع ابن منظور العلوم اللغوية وجمع النويري العلوم الأدبية في كتابه نهاية الارب في فنون الأدب . وجمع القلقشندي العلوم الانشائية وعلم جرا .

لهذا هو المسح الثقافي الذي تم في الدولة الإسلامية والذي يجب اعادته الآن في جميع الدول الإسلامية .

لحالة العلم الإسلامي اليوم بهذا الاعتبار هي حالته في عهد الأمويين : دولة سياسية عظيمة تحتاج إلى استقلال علمي ومصطري وإلى أن تكون دولة علم إلى جانب دولة سياسية . فالعملية الوحيدة هي إعادة العمليات الست التي ذكرناها والتي تم بها للمسلمين في عصر قرن الجمع بين دولة السيف ودولة القلم : والسيادة السياسية والسيادة الثقافية في العالم .

إن الباحث اليوم يجد نفسه أمام لغات مصطرية لأنه قد درست

مراضيع بلاده التركية ثم الايطالية ثم الانكليزية هي حسب توالي لغات الدفة التي تعاقبت على البلاد . وقد عمل المترجمون بالتركية . وتفاضل محمد الدين بمعرفة الايطالية . وصار لعربية مركز الرموق في التعليم فالتخص لسبب الانكليزية .

فإذا كان الباحث القديم يستطيع أن يقرأ المصدر في لغته الاصلية من تركية أو ايطالية أو انكليزية فإن مهمته في اللغات الاجنبية في المستقبل لن تسمح له بالتبحر في المصادر وتناولها مباشرة . فلا هو يستطيع قراءتها باللغة الاصلية الأجنبية ولا هو بعدها بالعربية مترجمة . بحيث أصبحنا في ورطة وعلى بوابة أزمة . وحل هذه الازمات بالقطر الليبي لا يكون إلا بذلك المسح القدي الذي تم بالعالم الإسلامي في صدر الملة . وعمليات المسح الثقافي هي الآتية :

العملية الأولى : عملية ترجمة . والترجمة تكون حسب الأصول الثلاثة :

الاصل الأول — ترجمة العلوم والآداب والمسرحيات والتواريخ الليبية التي باللغات الليبية القديمة من يونانية ويونانية ولاتينية . ولا ضرورة لمعرفة هذه اللغات لتقل منها فتوجد مترجمات لها بالانكليزية والايطالية والفرنسية يمكن الاستقاء منها مباشرة . غالب هذه الكتب موجود في المكتبة المركزية بمتحف الشحات .

الأصل الثاني — ترجمة المصادر الليبية التي كتبت بالايطالية أو الانكليزية والتي تعلق في الغالب بالعلوم الآتية :

١ً — الحيوان الليبي .

٢ً — النبات .

٣ً — الزراعة .

٤ – طبقات الأرض .

٥ – الري .

٦ – الأدوية .

وكل هذه الكتب أو الرسائل أو المقالات مصورة في مجلة العلوم الطبيعية الليبية الموجودة نسخ منها بمكتبة جامعة بنغازي ومكتبة الآثار بطرابلس . وقد أفادت هذه اللجنة بملاحظات نقدية بالمؤلفات في صفحة العنوان .

ثم :

٧ – اللهجات .

٨ – الفولكلور .

٩ – طبقات الأجناس الليبية .

١٠ – تاريخ ليبيا .

١١ – الفنون الليبية .

١٢ – الصناعات الليبية .

هذه المواضيع قد ترجمتها الكتب الإيطالية الخاصة بالمصادر الليبية ولا سيما كتب الأستاذ استور بانيا Enrico Danelli ودانيلي المعارف الإيطالية Enc. Ital. في مواد المدن الليبية : طرابلس – بنغازي غات الخ ... وكلها معقبة ومذيلة بالمصادر ..

الأصل الثالث – التعريب القصصي والأناشيد والروايات والمسرحيات والرحلات وكتب التاريخ التي كتبت باللغات الأجنبية الحديثة والتي تناولت مواضيع ليبية . وهي كثيرة وتعطي صورة لأدب ليبي أعيد بطرقة أبناء ليبيا من هذا الشباب الناهض .

المرحلة الثانية : وهي مرحلة مسح للمادة البيبة وتشمل الأصول الآتية :

الأصل الأول – وضع معجم مختصر للشؤون البيبة فيه دراسة قصيرة لكل فصل وتذييل الدراسة بأوفر المصادر المتعلقة بالموضوع مهما كانت لغتها .

والمواضيع على ثلاثة أضرب :

الضرب الأول : أعلام الأشخاص من رجال أدب وعلم وسياسة وصناعة وجهاد واقتصاد وعسكرية في أي عصر من العصور عاشوا . فنأخذ شخصية عمر المختار مثلاً ونترجم لها في نصف عمود وتذييل بالمصادر .

ونستخرج هذه التراجم من :

الأعلام للزركلي . معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ، كتب التراجم البيبة ، تاريخ الجاني عياض ، الديباج المذهب لابن فرحون ، ومؤلفات الأستاذ علي مصطفى المصراتي الخ ...

الضرب الثاني : أعلام الأمكنة البيبة من مدن وقرى ومدائر وولايات وجبال وسهول وأنهار وخلجان وبرزخ إلى غير ذلك .

نستخرج هذه الأعلام من كتب الجغرافيا القديمة والحديثة مثل اليعقوبي والادريسي والبكري وليون الافريقي (محمد الوزان) والتجاني وكتاب : جغرافية ليبيا : وتذيل كل كلمة بالمصادر بأوفر ما يكون .

الضرب الثالث : الكلمات الحضرية مثل سوسيبة ، جهاد ، حرب ، توسيقى ، طعام ، لباس ، مسكن ، مهر ، أدب ، أدب شعبي ، زواج ، ختان ، طريقة ، إلى غير ذلك . هذه الكلمات على اختلافها من أعلام أشخاص وأعلام جغرافية وكلمات حضارة ترتب ترتيباً أبجدياً وتوزع على الاختصاصيين من البيين والعرب والأجانب ، وترجع إلى

لجنة مركزية تمول نشرها .

الأصل الثاني – يشمل ما يوجد في كتب التاريخ والجغرافيا والأدب والقصة والترجم الإسلامية ما يتعلق بليبيا وينشر في مكتبة على حدة تسمى المكتبة الليبية على غرار المكتبة العربية اللاتينية والمكتبة الاندلسية ومكتبة الحروب الصليبية . نفترض اذا أخذ القسم المتعلق بالتاريخ فنقل فيه ما ورد عن ليبيا في ابن خلدون وابن الأثير والطبري ومعلم جرا . وفي قسم التراجم نقل ما جاء في مدارك القاضي عياض والديباج لابن فرحون والحريدة الاصفهاني ووفيات الاعيان والوافي الصفدي وهلم جرا .

الاصل الثالث – يجمع المجموع المتعلقة بالآثار والموسيقى والنبات والحيوان والأمثال والعادات والفولكلور واللهجات بطريقة علمية .

مثل جمع قصور ليبيا : وجمع النقوشات البونية واللاتينية والعربية والتركية ، وجمع الاغاني الليبية : وجمع الاحاجي ، وجمع عادات العمر من ولادة وختان وزفاف ووفاة : وجمع الامثلة ، وجمع الصناعات التقليدية الليبية ، وجمع اشعار الليبي . وجمع القول على اختلاف اللهجات بل خير ذلك .

الأصل الرابع – جمع المخطوطات الليبية الموجودة في الداخل والخارج ونشرها نشراً علمياً مع التعليقات اللازمة

الأصل الخامس – جمع ما يوجد في خزائن الدول من وثائق دبلوماسية وتاريخية وغيرها وتصويرها لفصها بل دار المخطوطات الليبية ونشرها في مجاميع .

الأصل السادس – جمع الصحف الليبية التي توجد في متاحف الخارج وتصويرها لنقل صورة منها المتحف الليبي بطرابلس .

* * *

كل هذه الاعمال تحتاج إلى هيأة تشرف عليها وتنجزها . فلتسم هذه الهيأة معهد الدراسات الليبية أو المجمع العلمي الليبي ، فالأمر مرده إلى اخواننا الليبيين أنفسهم . ولكنه من الأهمية بمكان وهو طويل النفس فالبادرة أولى . وفوق كل ذي علم عليم .

عدنان الخطيب

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

آراء في تفسير طبيعة الأصالة

عند الفنانين والعلماء

للدكتور سلوى جعفر

أستاذ بكلية الآداب بالمنيا

لقد عرفت ظاهرة الأصالة او الابتكار او الخلق او الابداع في العمل الفني : بما فيه الشعر ، وفي العلم : انتباه الباحثين منذ أقدم العصور . غير ان الباحثين القدامى لم يستطيعوا ، لعوامل اجتماعية وعلمية معروفة ، ان يفسروا طبيعة هذه الظاهرة السايكولوجية تفسيراً مقبولاً بمقاييسنا الحاضرة . ويبدو ان المحاولات الجدية التي بذلت في هذا السبيل ، في شتى المعرفة الانسانية : لم تبدأ إلا في النصف الثاني من القرن الماضي . وقد ارتبطت اصالة التفكير : منذ ذلك الحين ، بالعبقرية : لدى كثير من الباحثين بدراستها وان اختلف هؤلاء ، الى درجة التناقض احياناً ، في تفسير طبيعة العبقرية وكيفية حدوثها عند بعض الاشخاص دون غيرهم . وعقدت مؤتمرات علمية : عدة وعلى الصعيد الدولي : لدراسة

هذه الظاهرة دراسة غاية في العمق بالنظر لأهميتها في نظر الفرد والمجتمع على حد سواء[1] . فنجد في مجرى البحث الآراء التالية :

أولاً ، رأي لمبروزو :

وضح لمبروزو (١٨٣٥ — ١٩٠٩) الباحث الإيطالي وجهة نظره في العبقرية في كتابه : «مذهب العبقرية» في الفصل الذي عنوانه «العبقرية والجنون»[2] الذي نشره في أعقاب دراسة خاصة تناول بها بعض الشخصيات العامية التي اتصلت بالإصابة واضطراب السلوك في آن واحد. ولهذا نجد لمبروزو يعتبر الشخص العبقري فئة متميزة من فئات الطبيعة لأن العبقري يختلف عن الشخص الاعتيادي : بنظره ، بفقدان اتزان تركيب دماغه من الناحية التشريحية الباثولوجية ؛ وان عدم الاتزان هذا يظهر عند العبقري ، على ما يقول لمبروزو : اما بتضخم مفرط في حجم الدماغ أو بتصور ملحوظ كما هي الحال عند المصابين بالصرع ، الداء المقدس ، على ما يسميه بعض الباحثين . وقد أرجعت العبقرية بالجنون من قبل الباحث . ولما كان رأي لمبروزو هذا مرتبطاً أوثق الارتباط برأيه في تفسير طبيعة الاجرام وبالنظر لكون الباحثين العرب قد أولوا ذلك عناية كبيرة فلا نرى مسوغاً للدخول في تفصيل هذا الرأي بل نكتفي بالقدر الذي ذكرناه .

ثانياً ، وجهة نظر كالتون :

شرح السير فرانسيس كالتون (١٨٢٢ — ١٩١١) العالم البريطاني

وجهة نظره في تفسير طبيعة العبقرية في كتابه «العبقرية الوراثية»[٣] الذي نشره عام ١٨٦٩ : وفي ابحاث اخرى لاحقة في اعقاب دراسة تحليلية مقارنة اجراها على طائفة من رجال الفكر البريطاني في حقل السياسة والاقتصاد والقضاء والعلم الذين تربطهم روابط القربى والمصاهرة . توصل الى تعريف العبقرية على أساس أنها : « قدرة عقلية عليا فطرية فريدة » أو أنها « ذكاء خارق يتمتع به بعض الاشخاص دون غيرهم » . ثم اضاف كالتون ، في سنى حياته الاخيرة ، الى « الذكاء الخارق » : في تفسير طبيعة العبقرية ، صفات اربعاً اخرى اعتبر ثلاثاً منها فطرية وعزا الرابعة الى عوامل بيئية[٤] . هذه الصفات الأربع هي :

١ ــ الطلاقة او التدفق : بمعنى جريان الصور الذهنية والافكار عند العبقري جرياناً غير عادي يحدث تلقائياً او بصورة حرة . والعقل المبدع المليء بالافكار الحية الجديدة قادر ، من وجهة نظر كالتون ، على جعل تلك الافكار تنساب خارجه بيسر وتتابع وانسجام وتكامل دون ان يصدها عائق من اي نوع كان .

٢ ــ التلقي او الاستقبال او التسلم : بمعنى استجابة الذهن العبقري بيسر لما يجري حوله من مؤثرات بيئية غير محدودة المقدار والنوع .

٣ ــ الاحكام : الذي هو ، عند كالتون ، حسن تلقي يشرك الخبرة الماضية المتعصية بشكل مباشر دون الاستعانة بأداة حسية أو واسطة ناجية .

٤ ــ الحماسة التي تبدو في المثابرة ومواصلة الجهد الفكري المضني والتحمل الصعاب بجلد وكفاية وثقة بالنفس .

اما طريق « صنع » العبقرية ، عند كالتون ، فهو تحسين النسل Eugenics الذي يتم عن طريق تزاوج افراد الأسر التي تتصف بالعبقرية.

وقد أدى انتشار مبدأ : تحسين النسل ، الى نشوء جمعيات خاصة تدعو الى تطبيقه وتطريبه في اوربا الغربية وفي الولايات المتحدة : فتشأت اول تلك الجمعيات في الولايات المتحدة في عام ١٩٢٦ ، ثم اتسع نطاق هذه الدعوة فاشتغل في الجمعيات ومعاهد البحث العلمي في فرنسة وانكلترة والولايات المتحدة التي صدرت فيها تشريعات خاصة اهمها ، قانون التعقيم ، الذي وضع موضع التنفيذ في ولاية كاليفورنيا قبل اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية . وأخذ مجلس هذا البلد ينشرون مجلة شهرية تنطق باسمهم منذ عام ١٩٢٨ . كما ان مؤتمرات دولية متعددة قد عقدت لمناقشة قضايا ، تحسين النسل ، اشهرها مؤتمر نيويورك في عام ١٩٣٢ الذي أوصى بضرورة اتقاء العناصر ، الأصيلة ، من السكان وتشجيع تزاوج افرادها : وبحرمان الاوساط الاجتماعية ، الفريدة ، أو ، المذعورة ، من التناسل وذلك عن طريق العزل والتعقيم وعن طريق التشريع الرادع . وقد استعمل ذلك كله على اوسع نطاق في الالمانية النازية . كما انبثق عن رأي كاتلون في ، العبقرية الوراثية ، مبدأ ، الذكاء القطري ، الذي تزعمه منذ مطالع هذا القرن شارلي سبيرمن عالم النفس البريطاني ، ومبدأ ، الاختبارات او مقاييس الذكاء ، التي نادى به ، في مطلع هذا القرن ايضاً ، الفرد بينيه (١٨٥٧ — ١٩١١) الطبيب الفرنسي .

ثالثاً ، رأي كريتشمر :

شرح كريتشمر ، عالم الامراض العقلية الالماني ، في اعقاب الحرب العالمية الأولى ، رأيه في تفسير طبيعة العبقرية بكتابه ، علم نفس ذوي العبقرية ، الذي نشرت ترجمته الانكليزية في عام ١٩٣١ ، بالاستناد الى وجهة نظره في تفسير طبيعة الامراض العقلية التي شرحها في كتابه ، البنية الجسمية والخلق ، الذي نشرت ترجمته الانكليزية في عام

١٩٢٥ (١) . وإذا كانت وجهة نظر كريتشمر في تفسير طبيعة الامراض والعلاقات المتبادلة التي تقوم بين تكوين الجسم وبين مظاهر سلوكهم : وهي أساس رأيه في تفسير العبقرية : قد تلقى العناية التي تستحقها لدى الباحثين العرب فقد آثرنا شرحها ، بشيء من الايجاز غير المخل ، تمهيداً لتوضيح جوهر العبقرية عند صاحبها .

ينقسم البشر عموماً ، من وجهة نظر كريتشمر ، الى ثلاث مجموعات او انماط كبرى من حيث الملامح البارزة في تركيب اجسامهم ، هذه الانماط هي :

اولاً : النمط النحيف Asthenic الذي يتصف وجهه بالطول والانفراج القليل في نهايته السفلى ، مع فك اسفل غائر بعض الشيء : ويوجه على شكل الجسم يتصف بالنحافة والامتداد من طراز ابراهام لنكولن احد زعماء جمهورية الولايات المتحدة في القرن الماضي .

ثانياً : النمط القوي الجسم Athletic من طراز المتخصصين برفع الاثقال من ذوي العضلات القوية والوجه الذي يتسم ببروز عظامه وقوة حنكه وبأنفه الشامخ Remarque .

ثالثاً : النمط المتوسط الجسم القصير القامة Pyknic صاحب الوجه المستدير الذي تبدو عليه امارات الصحة والانشراح ، مع رقبة غليظة قصيرة .

ينقسم الناس جميعاً من ناحية امزجتهم الى نمطين ، كما يقول كريتشمر ، هما النمط المنكمش على نفسه والنمط المنبسط الذي يجتمع نحو الاختلاط بالآخرين . يتصف اصحاب النمط الانطوائي Schizoid ، عند تعرضهم للامراض العصبية ، بظهور الوساوس والاوهام وهم المصابون بالزرلوبتا . اما في حالتهم العقلية Schizophrene فيشعرون بالضعف

والانزواء والتهيب والحذر والوفاء ودماثة الاخلاق والتأمل في مظاهر الطبيعة . ولوحظ مثال على هذا النمط ، هتلر كريتشمر ، ابراهام لنكولن وذي فلير الرجيم الايرلندي ومعظم ملوك انكلترا من اسرة ستورت والعالم الميزابالي روبرت ماير الذي اكتشف مبدأ حفظ الطاقة .

ب النمط المبسط Cycloid فيتصف افراده ، عند تعرضهم للاضطرابات العصبية ، بنوبات عصبية متكررة متعاقبة تتراوح بين الكآبة والزهو . أما في حياتهم السليمة Cyclothyme فيتصفون بالمرح وروح الدعابة والتفاؤل ورقة القلب والتأرجح بين الحب والبغض السريع الانفعال . ويعتبر كريتشمر غوتي الشاعر الالماني افضل من يمثل هذا النمط وقد حلل حياته تحليلاً مفصلاً لا نرى لزوماً لبحثه .

ج الصفوية ، في رأي كريتشمر : فهي انحراف بالولوجي عصبي وراثي موجود لدى بعض الأسر المصابة بالشذوذ العقلي . ويتشهد بالمرة بتقوقر وخولي ودبورت ، وباخ وبيتهاثل انجيلو . وقد حلل كريتشمر صفات عقلية معينة تميز حالة المباقرة الرضى الذين هم من نمط Schizothyme تميزهم عن المباقرة الرضى الذين هم من طراز Cyclothyme . كما حلل ايضاً صفات خلقية خاصة ومظاهر سلوكية معينة تميز تصرفات المباقرة الرضى الادباء والفنانين تميزهم من المباقرة الرضى العلماء في كل من التحفيز على الفراد . فالمباقرة الأدباء والفنانون الرضى من نمط Schizothyme يتصفون ، على وجه العموم ، بنظر كريتشمر ، بميلهم نحو الرومانسية والشكلية عموماً . في حين ان المباقرة العلماء الرضى ، من هذا النمط ، يتجهون نحو الاهتمام الميتافيزيقية والنسقية المجردة . أما الأدباء والفنانون الرضى من نمط Cyclothyme فهم : بطيء ، واقعيون ومزيدون في المادة وكذلك المباقرة العلماء الرضى ، من هذا النمط ، فهم واقعيون أيضاً يهتمون بدراسة الخصوصات ولا يكترثون بدراسة النظريات والقضايا الفكرية المجردة .

يعتبر كريتشمر ان غوتي (جيته) افضل من يمثل النمط المبسط وان جسمه من النمط المخيط القصير ، وان حياته كانت مسرحا لتوترات عصبية متبادلة تصيبها الكآبة او الغم احياناً وتغمرها البهجة والزهو احياناً اخرى . ولقد بدأت نوبات الزهو عندما بلغ غوتي الثانية عشرة من عمره في عام ١٧٦٢ الناء وقوعه في غرام فتاة تدعى كاثرين سكولتكوف. ثم انتهت نوبة الزهو هذه نوبة غم وانكماش ونزوات في الحب استمرت سبع سنوات تشهد بعدها غوتي في عام ١٧٨٠ لتركه عند إرفي ، دون ان يخبر رئيسه او يحصل على اذنه ، وظهر فجأة في ايطالية حيث ارتمى بلحضان الحبور الذي قاده الى ان يتزوج فتاة خادمة من اسرة تنتمي الى السمعة المحترمة . ثم عاد من جديد الى حياة الركود . واخذ يتارجح بين الحالتين بفترات متعاقبة تفصل بين كل منها سبع سنوات حتى عام ١٨٣٠ . وكانت قد سبقت ذلك فترة عجيبة بدأت في عام ١٧٩٤ عندما اقام غوتي علاقة صداقة مريبة مع الشاعر شيلر بعد جفوة استمرت بينهما سبع سنوات ، وكان يقع في نهاية كل فترة من الفترات الاربع الواقعة بين ١٨٠١ و ١٨٣٠ بغرام لحسن الحظ . كل ذلك لاحظه كريتشمر. كما لاحظ ايضاً ان اسرة غوتي كانت تتصف بالانحطاط العقلي الذي هو اقرب من العبقرية التي هي من النمط المبسط . فأمه كانت ذات جسم من النمط القصير الغليظ ، ومزاجها من طراز Cyclothyme . اما ابوه فكان غريب الاطوار . ومن اخوته الخمسة فكانوا ضعاف الاجسام : مات اربعة منهم في سن مبكرة إلا اخته كورنيل التي كانت من نمط Schizoid وتوفيت في السابعة والعشرين من عمرها بعد ان عانت مضطربة الاعصاب غير سوية مصابة بالارهام والوساوس .

ومن الطريف ان نشير هنا الى ان كريتشمر يستبعد النساء من حضيرة العبقرة إلا في الحالات التي تتصف فيها بعضهن ببعض صفات الرجال ، كما يقول ، مثل الشاعرة الالمانية دروسته وملكة بريطانية

اليزابيث الاولى والامبراطورة كاترين الروسية وملكة السويد كريستينه .
ويعزو بروزهن التاريخي الى كونهن ، بنظره : رجالاً ، بزي نساء .

رابعاً : العبقرية من وجهة نظر مدرسة التحليل النفسي :

أ ـ رأي فرويد (١٨٥٦ ـ ١٩٣٩) :

اعرب فرويد عن وجهة نظره في تفسير ظاهرة العبقرية ، في المجال الفني بصورة خاصة ، في اماكن شتى من اعماله في التحليل النفسي تأتي في طليعتها دراسته المستفيضة لحياة ليوناردو دافنشي وملاحظاته العامة المتعلقة بحياة دوستويفسكي وبعض روايات شكسبير . وقد جرت هذه الاعمال في اطار نظريته العامة في تفسير جميع مظاهر السلوك والاحلام من حيث هي رغبات مكبوتة في اللاشعور ، جنسية المحتوى في الاصل ، تتخذ ميدان الرموز وجهته او متنفساً لتسربها الى الحياة الشعورية تفادياً لاصطدامها بتقاليد المجتمع والقيم الدينية التي لا تسمح بها بالتعبير عن نفسها إلا بالطريق الرمزية المقنعة[١٧] .

التقط فرويد خواطر عارضة او اشارات عابرة وردت على ألسنة الشخصيات الأدبية التي درسها واعتبر تلك الاشارات مفاتيح يفك بها المستغلق من حياة أصحابها بعد ان فسرها بالشكل الذي يرتضيه في ضوء نظريته العامة لأن غرض التحليل النفسي ، عنده ، هو الكشف عن المحتوى او المضمون اللاشعوري او الاساس الذي تستند اليه الواجهة الرمزية للتغلغل في اعماق الفنان والكشف عن الرابطة بين هذه الواجهة الرمزية وبين الواقع الذي يعيش الفنان فيه .

اما العبقرية الفنية ، عنده : فهي « قدرة فطرية » او « طاقة حيوية » libido تساعد صاحبها على تحويل خبرات اللاشعور الى عمل

في واقع يشاركه الآخرون التمتع به . والفنان المبتكر او الاصيل مزود كالعالم الخلاق ، بإرادة « فطرية » خاصة او « طاقة حيوية » تفسر جذورها في « ارض » اللاشعور وتمتد اغصانها وفروعها نحو « ضوء » الواقع الموضوعي او البيئة التي يعيش فيها الفنان . معنى هذا ان « الطاقة الحيوية » — الجنسية المحتوى في الاصل — الطاقة الكمنة الموجودة فطرياً لدى بعض الاشخاص — المبدعة — من الممكن ان تتجه ، في آخر التحليل ، نحو مجرى الحياة ، الى حقل الفن او الى مجال العلم فيبرز صاحبها في المجالين مع تغلب أحدهما على الآخر وفق الظروف البيئية المحيطة والتكوين الذي يميز هذا العبقري أو ذاك في أحد المجالين المذكورين . فقد تزاوج ليوناردو دافنشي بين الفن والعلم وبرز فيهما معاً في فترة من فترات حياته لكنه انتهى بالعلم في أواخر ايام حياته على حساب الفن . اما غوتي فقد سار بشكل معاكس فانتهى بالفن وقاوم العلم وتنفر منه الى درجة أصبح فيها من مناوئي نظريات نيوتن في الفيزياء .

يقول فرويد[17] ان الابداع الفني شكل من أشكال الاحلام اليقظة تحب العالم الخارجي لا نحو الذات . والاحلام ، عند فرويد ، وثيقة الصلة بالفن وان كانت تختلف عنه في الهدف او الغرض : فغرض الفن البحث عن اللذة . وغرض الحلم تجنب الألم . أي ان الحلم يسيطر على جميع مظاهر الحياة بما فيها الفن . ومن الجهة الثانية فان العصاب والفن يجران أيضاً ، بنظره ، عن دوافع مكبوتة بسبب عدم السماح لها بالتعبير عن نفسها شعورياً وبشكل صريح . ولهذا يجدهما يتحدان الرموز ، على ما يقول فرويد ، لساماً للتعبير عن مشاعرهما . والفنانون جميعاً ، بدون استثناء ، نرجسيون : بمعنى أنهم يحبون ذاتهم حباً جنسياً ؛ — اي انهم ذوو صفات جنسية على غرار ما هي عليه عند الطفل Auto-erotic : حيث لا يتجه الدافع الجنسي نحو الاشخاص الآخرين بل نحو الذات نفسها . معنى هذا ان الابداع الفني حالة جنسية بالوجهة شاذة مثل

وجهة نظر فرويد، وان الفن ، في ملامحه السايكولوجية الكبرى ، وسيلة من وسائل الهروب من الواقع المر الذي لا يستطيع الفنان ان ينسجم معه. وهذا يعني ، بعبارة اخرى ، ان الفنان يقنع عن اشباع ميله الغريزي الاصيل بالاسلوب الطبيعي للألوف وذلك باستعمال اسلوب آخر يخلق الفن ميتداً له مستعيناً بالخيال باعتباره وسيلة التعبير عن نفسه . اي انه يتخلى بالخيال المجتمع او الجامع بعيداً عن الواقع المر ليعود من جديد الى نوع طريف من الواقع .

ب وجهة نظر يونك (١٨٧٥ – ١٩٦١) :

بحث يونك موضوع الاصالة في العمل الفني والادبي في مقال عنوانه « علم النفس والادب » نشره في كتابه « الانسان الحديث في بحث عن الروح » . [١٨] تناول يونك بالبحث المفصل اصالة الشاعر الالماني غوتي . كما بحث له تلك الاصالة في رواية فاوست التي شرحها في ضوء افتراضاته السايكولوجية الأساسية الثلاثة (« الطاقة الحيوية » Libido والانموذج البشرية أو الاخطاط واللاشعور الجمعي) وناقش مرتكزاً وجهة نظر فرويد التي مر بنا الحديث عنها .

افترض يونك ان لدى كل شخص « طاقة حيوية » واحدة لكنها تأخذ اشكالاً متعددة تختلف عند الافراد حيث يعبر كل فرد عن « طاقته الحيوية » بأسلوبه الخاص . اما الانماط فزائدة ، عنده ، من صفات اربع متوجة تختلف مقادير بعضها بالنسبة لبعض باختلاف الافراد . هذه الصفات الاربع هي الاحساس والانفعال والفكر والالهام . والناس عنده : يقسمون ، من حيث اتجاههم ، الى قسمين متغايرين : احدهما اجتماعي النزعة يحب الاختلاط بالآخرين ويرغب في العمل الجماعي المشترك : extrovert . في حين ان القسم الآخر ينحو منحى معاكساً فهو منطو على

يسمى introvert يميل نحو الانزواء او الانكماش . ويقسم كل من هذين النمطين الكبيرين ، بدوره ، الى اربعة انماط فرعية تظهر في كل منها الصفات الاربع المذكورة ممزوجة بسبب غير متكافئة الامر الذي يؤدي ، بنظر يونك ، الى نشوء ثمانية انماط فرعية اربعة للنمط الاجتماعي وشبيها لنمط المكمل . هذه الانماط الفرعية الاربعة بالنسبة للنمط الاجتماعي هي :

اولاً : النمط الاجتماعي النزعة الحسي الذي يدرك ظواهر الطبيعة والمجتمع ادراكاً حسياً بالدرجة الاولى وذلك لطغيان الجانب الحسي عنده على الجوانب الثلاثة الاخرى . وهو نقيض النمط المفكر .

ثانياً : النمط الاجتماعي النزعة العاطفي الذي يدرك ظواهر الطبيعة والمجتمع بعواطفه ومشاعره الصفاضة بالدرجة الاولى وذلك لطغيان الجانب العاطفي عنده على الجوانب الثلاثة الاخرى . وهو نقيض النمط المفكر .

ثالثاً : النمط الاجتماعي النزعة المفكر الذي يدرك ظواهر الطبيعة والمجتمع بتفكيره بالدرجة الاولى وذلك بغلب التفكير عنده على الحس والعاطفة والالهام .

رابعاً : النمط الاجتماعي النزعة الملهم الذي يدرك ظواهر الطبيعة والمجتمع والالهام اللاحسي بالدرجة الاولى وذلك لتغلب الالهام عنده على الحس والعاطفة والتفكير .

اما الانماط الفرعية الاربعة الاخرى بالنسبة للنمط الانطوائي فهي على نسق ما ذكرناه لكنها تشترك جميعاً بنزعة الانطواء على النفس .

ذلك ما يتصل بالافتراضين السايكولوجيين الاساسيين الاول والثاني ، عند يونك . اما ما يتصل بافتراضه الثالث فان الممكن تلخيصه بالشكل التالي : يقصد يونك باللاشعور الجمعي ما حواه : الاوهام او الاساطير والتذكرات الموروثة ، فطرياً ، لدى كل من منتسبة اليه بالولادة

البيولوجية عبر الاجيال المتعاقبة منذ اقدم العصور الى اليوم . ولهذا فانها خليط غريب لشكل من الخرافات التي نشأت لدى اسلافنا الاقدمين الذين عاشوا في الماضي السحيق . وان الحياة الشعورية لدى الانسان تشتد : كما يقول يونك : الى مخلوقات الاشعور الجمعي التي تطفح على الحياة الشعورية .

يقول يونك " : على فرويد : درن وجه حق ، انه مر على اكثير العمل الفني الاصيل في اعماق الفنان فانه دون النظر الى الاشعور الجمعي . واستمر يقول : لقد ارتكب خطأ فاحشاً اذ حاولنا ان نشتق عضلة الفن من العوامل الشخصية مع اهميتها في الفن من حيث اختيار موضوعاته . وان تركيز الاهتمام في الجانب الشخصي هو في الواقع اعاقة لتطور الفن وحتى جريمة ترتكبها بحقه . وكلما زاد اهتمامنا بهذه العوامل الشخصية او الثانية زاد بعدنا عن الجانب الفني الأصيل . ان ما هو اساسي في العمل الفني الخلاق هو ، على ما يقول يونك ، ان هذا الجانب الشخصي او الذاتي لا بد ان يرتقي الى مستوى الحياة المثلى التي يشتهيها النوع الانساني معبراً بها على لسان الفنان . معنى هذا ان الخبرة الاشعورية الاصيلة primordial المتجسدة لدى كبار الفنانين من مكونات الاشعور الجمعي ، هي مصدر الابداع الفني عندهم ومعينه الذي لا ينضب . وبما ان كل عصر من العصور التاريخية له طابعه الخاص وتشابهاته العصبية : على ما يقول يونك : او مرتبه السايكولوجي الذي يستلزم تكيفاً تعويضياً تماماً كما هي الحال عند الافراد فان ما هو اهم خاصة للدراسة الفن الاصيل ، في هذه التعبيرات الاشعورية الجمعية : هو انه يوافق تكيفية تعويضية من الحياة الشعورية . معنى هذا انها تحيج نحو الانسجام مع حالة شعورية وحياة للجانب او مبتورة غير متكاملة او منحرفة كلياً وخطرة تبدو كأنها حالة طبيعية . ونستدل على ذلك : بنظر يونك : من كون الفنان الفائد الرشد يسمح لنفسه بأن تتولد : وغالباً بصفة خفية

غير معبّر عنها انبثقت من روح العصر الذي يعيش الفنان فيه فتجعله ينجه ، بالقول او بالفعل ، نحو تحقيق ما يسعى اليه كل شخص بعاصره بشكل اعمى ويصرف النظر عما اذا كان ذلك السعى المرغوب فيه شراً او خيراً : يخفف آلام ذلك العصر او يزيد من متاعبه .

يقول يونك ^ ان العملية التكيفية التعويضية المشار اليها تظهر بوضوح بارز : بجانبها الايجابي : في الاحلام وتظهر ، بشكلها السلبي ، واضحة لدى الفنانين المصابين بالاضطرابات العصبية . وهنا تبدو ، على ما يقول يونك ، وجاهة افتراض فرويد الذي مفاده ان الفنانين : بدون استثناء ، نرجسيون وغير متكاملي النضج الجنسي وانهم اقرب الى الخطاء او الاطفال المهملين — بفتح اللام — الذين تلقي الحياة الاجتماعية بعبئها وضغوطها على كواهلهم الطرية منذ نعومة اظفارهم فيزداد احتلامهم بذاتهم وتنشأ لديهم مزايا اجتماعية رديئة ، بنظر المجتمع ، فيتعثرون طوال حياتهم اطفالاً في تعبيراتهم الانفعالية ضعفاء امام متاعب الحياة الامر الذي يجعل لهم خرق شرائع الاخلاق والخروج على مبادىء القانون بشكل اجابة واضحة .

الفنان الخلاّق ، عند يونك ، هو الذي يسمح للفن ان يعبر من نفسه بوساطته فيحوله بنظره الى انسان « جمعي » او شخص يمثل الحياة اللاشعورية الجمعية لنوع الانساني عبر تاريخه الطويل ويجيد صوغها وفق مستلزمات روح العصر الذي يعيش فيه . ولهذا فان فاوست ، من وجهة النظر هذه ، هو الذي خلق غوته لا العكس كما يقول انصار النظرية الشخصية . بمعنى هذا ، بعبارة اخرى ، ان الفنان المبدع مزيج متكامل متناسق من اتجاهين متناقرين لكل منهما حياته الخاصة وثانيهما عملية الابداع الفني اللاشخصية . وان الاصالة الفنية نوع من انواع الميول الفطرية المخزنة تجعل صاحبها يتحمس في الفن باعتباره ذاته ، وان هذه القدرة الفنية الخاصة تعني صرف

او استنزاف مقدار كبير من « الطاقة الحيوية » في حقل الفن دون سواه الامر الذي يؤدي الى إثراء الجانب الفني على حساب إفقار جوانب الحياة الاخرى . ذلك لان كل فرد قد مزود ، بنظر يونك كما سلفنا ، بقدر معين من « الطاقة الحيوية » وان هذه « الطاقة الحيوية » تقتصر عند الفنانين على الفن وحده .

يتخذ يونك غوتي موضوعاً يستدل به على صحة وجهة نظره تلك كما فعل كريتشمر بطريقته الخاصة بالشكل الذي تحدثنا عنه . غير ان يونك جعل فاوست محوراً لتحليل شخصية غوتي وقسمه قسمين هي اولا الجانب السايكولوجي وهما الآخر الجانب الخيالي واعتبر الفرق بينهما بان الذي يميز الابداع الفني السايكولوجي عن الابداع الفني الخيالي . فالجانب السايكولوجي المستمد من واقع الحياة بما فيها من صدمات انفعالية وازمات نفسية قد حبّر غوته غوتي لروح تحير بحيث يعثر هو نفسه عاجزا من بعده ان يضيفوا اليه شيئاً جديداً او ان يعيدوا صوغه . بينما يترك غوتي ، على ما يقول يونك ، « مجالاً هاماً للعمل لآخرين مزيد من التحليل السايكولوجي الا ما يتعلق بالكشف عن الاسباب الخفية التي جعلت فاوست يهيم بغرام كريتشين والعوامل التي دعت هذه لقتل طفلها . وهنا يبدأ الجانب الخيالي في الابداع الفني للتفوق فاوست ومفراه ، ويبدأ الاستفسار عن علاقة الجزء الاول من فاوست بروح العصر الذي عاش فيه غوتي . اما الجانب الثاني فيستلزم شرحاً وتفسيراً لمضمونه الهام ولكثير الغرة من غرائبه على الفراد . ولا يرى يونك اي مبرر لاعتبار ان القسم الثاني من فاوست يناقض او يعدو ان يمسخ ما هو موجود في القسم الاول ، كما لا يرى مبرراً ايضاً لقول النقاد بان غوتي كان شخصاً سوياً عندما كتب القسم الاول من فاوست في حين انه اصيب بالاضطرابات العصبية عندما كتب القسم الثاني منه .

خامساً : وجهة نظر بونكاريه (١٨٥٤ – ١٩١٢) : شرح هنري بونكاريه ، عالم الرياضيات الفرنسي ، وجهة نظره في الاصالة ، في حفل التفكير الرياضي ، في محاضرة القاها في الجمعية السايكولوجية في باريس عام ١٩٠٨ عنوانها « الابتكار الرياضي » نشرت بعد ذلك ، مع مقالات اخرى ذات علاقة ، في كتاب عنوانه « العلم والاساليب » [٩] . وضح بونكاريه ، في تلك المحاضرة القيمة ، كيفية توصله الى اكتشاف بعض المبادىء الرياضية الهامة التي ارتبطت باسمه وامامه القاء من الظروف الاجتماعية التي احاطت به اثناء ذلك .

كتب بونكاريه [٩] ، فيما يتعلق بتوصله لاحدى معطياته الرياضية في موضوع Fuchsian Function ، القصة الطريفة التالية : كنت اجلس يومياً في مكتبي واصرف من وقتي ساعة او ساعتين بغية نصف شهر اقوم اثناء ذلك بوضع معادلات رياضية متعددة لاتوصل الى الحل الصحيح لمسائل الرياضية التي بين يدي . ولقد تناولت مساء احد الايام فنجاناً من القهوة ، بخلاف عادتي ، فحرمت على الرقود وبدأت ، وانا مستلق على الفراش ، اتصيد ذهناً في افكار رياضية ومعادلات لا حصر لها ، اثارت على ذهني اثناءاً – اثناء ارقي – بشكل مترابط احياناً ومتفكك مبعثر احياناً اخرى . وصادف ان حصلت في ذهني ، في مجرى ذلك كله ، ارتباطات منطقية مستقرة نسبياً بين بعض تلك الافكار . وعندما انبلق الفجر اسرعت الى مكتبي وبادرت بتدوين ذلك في بضع ساعات . وفي مناسبة اخرى بشأن موضوع Elliptic Function و Theta Function ذكر بونكاريه انه تعذر عليه الوصول الى حل رياضي مقنع فتوقف موقتاً عن مواصلة الجهد . وصادف انه اشترك في سفرة علمية جيولوجية ، مع نخبة اختيرهم مؤسسة المناجم الفرنسية ، وفي اثناء السفر ، كل شيء يتعلق بعمله الرياضي السابق وشغل ذهنه بأمور السفرة . وعند وصولنا ، كما يقول بونكاريه [٩] ، قريباً من الموقع المطلوب (وكان

علينا ان نركب احدى سيارات النقل الكبيرة للوصول الى ذلك المكان) ورد الى ذهني الحل المطلوب بمجرد وضع قدمي على سلم السيارة بعد ان نسيت كل شيء اثناء السفر . وبعد عودتي الى منزلي في نهاية السفرة تعقبت بالفعل من صحة ما ورد الى ذهني ودونته على الورق . وفي مناسبة اخرى تحول انتباهي ، على نحو مفاجئ بونكاريه : الى معالجة بعض المسائل الرياضية فسببت الى البعد زمناً جهد فكري متواصل ولكن دون جدوى . فصرفت النظر عن مواصلة الجهد مؤقتاً وشغلت ذهني بامور اخرى عندما قررت قضاء بضعة ايام على شاطىء البحر ، وفي صباح احد الايام ، عندما كنت اسير على الشاطىء وروداً مستمتعاً بمنظر البحر ، وردت الى ذهني فجأة طريقة الحل المعضلات الرياضية التي تركتها دون حل ونسيت كل شيء عنها اثناء وجودي على شاطىء البحر . وعندما عدت الى منزلي تناولت القلم والورق ودونت الحل الصحيح بدون عناء . ويستمر بونكاريه في محاولته الطريفة هذا ويذكر ان باستطاعته ان يستمر في الاستشهاد بأمثلة من هذا القبيل كان قد اختبرها في مجرى حياته العلمية . وقال ان الشيء البارز ، في ذلك كله ، هو هذه الومضة المضيئة الخاطفة التي هي ثمرة عمل لاشعوري متواصل طويل لا شك فيه .

يتضح اذن ان بونكاريه يتحدث عن ، ويضرب الامثلة على ، كيفية ورود الحل الصحيح للمسائل الرياضية المستعصية بشكل مفاجيء وعفوي وفي ظروف انشغال الذهن بأمور اخرى ، وانه يعزو ذلك الى نشاط اللاشعور او « النفس الخفية » . اي ان نشاط الخلايا ، في مخ هذا العالم الرياضي الكبير المأزوم في عالم الرياضيات : هي ان الاكتشاف الرياضي هو في جوهره ترابط خلاق بين الافكار البعيدة او الذي تأليف بين ما يبدو ظاهرياً كأنه منفصل منها عن بعضه . وقد شدد بونكاريه كثيراً ، في وصفه عملية الابتكار في مجال الرياضيات ، على الجوانب اللاشعورية التي تظهر بشكل مفاجيء عند نضجها . وذكر ان

الترابط الاكثر خصوبة ، ينتقيه الذهن من بين حشود متزاحمة من الترابطات العقيمة والاقل خصوبة ، هو ذلك الذي يستمد مقوماته من مجالات متباعدة بعضها اللاشعور او « النفس الفاعلية » (subliminal self) اما كيف حدث ذلك ، بالضبط ، فهو على الشكل التالي : توجد دائماً امكانيتان لدى الشخص هما الشعور واللاشعور اللذين بمستطاعه ان يميز بلباقة وبراعة بين الاشياء من حيث قربها لبلوغ اكثرها ملاءمة مما لا يرقى اليه الشعور شريطة ان نسبق هنا وتستند لفترة قيظ شعوري تزود الذهن بأداة الانتقاء البدائي او التمهيدي الذي نشكك انه لو تعذل الارتباطات القديمة عن بعضها . ثم تبدأ ، بعد ذلك ، ارتباطات جديدة لاشعورية وتستمر الى ان يلوح او يلمع في الذهن الترابط الجديد المطلوب الذي ينفسن الحل الصحيح لقضية موضوع البحث ، ولكن كيف تتم الغربلة العكرية لهذا القدر الهائل من الارتباطات لغرض الوصول الى أخصبها وطرح ما كان خارج لصدد منها والسياق ، بعد ذلك ، الحل الصحيح ان يتسرب الى الشعور من جديد ؟ يسأل بونكاريه " : ان الاساس الذي تستند اليه هذه الظاهرة السايكولوجية هو : الاحساس بالجمال ، او بالابداع او الخلق . بمعنى هذا ان الارتباطات السليمة او المجدية هي ، بالضرورة ، اكثر جمالاً او اكثر قدرة على ، حسب تعبير المختص في الموضوع من غيرها من الارتباطات الاخرى الكثيرة العدد .

وفي ضوء ما ذكرنا نستطيع ان نؤكد مرة اخرى ان الاصالة في حقل الرياضيات ، من وجهة نظر بونكاريه ، هي في « ان نبرهن على تجرد قيام الذهن بتكوين ارتباطات جديدة في القضايا الرياضية المعروفة ما دامنا لان هذا العمل يستطيع ان ينجزه اي شخص له ادنى إلمام بالرياضيات ومن الجهة الثانية فان عدد الارتباطات التي تحدث بهذا الشكل يكون هائل المقدار يتعذر حصره ، وان معظمه لا يثير الاهتمام لبتاتا . بمعنى هذا ان الاصالة ، كما يراها بونكاريه ، تقتصر على الابتعاد عن

الارتباطات الثانية او العقيمة لافسح المجال لحدوث الارتباطات « الجيدة » المفيدة لزيادة الخصيلة المخزن . اني لا اصادق اكتشاف ، اختراع او تعبير . كيف يحصل حسدا الانتقاء ؟ يجيب بونكاريه « ان الحقائق الرياضية ، التي تستحق الدراسة ، هي التي ، عند موازنتها بحقائق اخرى ، تظهر قدرتها على ارشادنا نحو معرفة قانون رياضي تماما كما ترشدنا الحقائق المختبرية الى الكشف عن القانون الفيزيائي مثلا ، انها تلك الحقائق التي تكشف علاقات مستمرة معقولة من بين حقائق اخرى معروفة منذ امد طويل كان يظن ، دون سند علمي ، انها مفككة او معزلة عن بعضها ، وهنا فان الارتباطات التي يختارها العقل من بين حشد لامتناه منها هي تلك الاكثر ثراء جماليا بمشاعرها الفعل من عناصر مألوفة من محاولات متعددة متفرقا . غير ان مجرد الجمع بين عناصر متباعدة ، وان كان شرطا لحدوث الابداع الرياضي ، كما يقول بونكاريه ، الا انه بمفرده لا يكفيه . ذلك لان الجميع يشتمل على ارتباطات كثيرة عقيمة . فلا بد اذن من طرح هذا العقيم جانبا ، وهذا فان عملية الانتقاء في عملية الخلق الذهني ، واختيار عند بونكاريه كما ذكرنا . غير ان كلمة « انتقاء » او « اختيار » قد لا يكون التعبير الدقيق عما يقصده بونكاريه لان الاختيار يتم في العادة بين نماذج حاضرة للحاضر وجاهزة مسبقا كما هي الحال مثلا في البضائع التي يشتريها البائع لمخزنه لانتخابها هذا الاخير واعادة بعد الاخرى لكي تتم عملية الاختيار . في حين ان الباحث في موضوع الرياضيات لا يتمتع بهذه الحرية في الصنع والنوع والنمط ، حيث ان حياة الانسان بأسرها لا تكفي لتحقيقها كما يقول بونكاريه . ولا بد هنا من توافر عقل فعال لانتقاء افضلها . ويكمن لزوم هذا الانتخاب العقلي الى اعماق الجواهر العلمية كما قال نيوتن مثلا عندما شاهد تفوق الجاذبية في حديقة منزله فاستدعى الى وضع قانون الجاذبية بعد دراسة عميقة شاملة مبنية تلك الظاهرة التي لم تكن سوى

الخلاق الباشر مع ان كثيرين قبله شاهدوا ظواهر عائلة دون ان يستنبطوا شيئاً ذا قيمة علمية . معنى هذا ان اصالة التفكير ، على ما يقول بوانكاريه : تجيء صاحبها ان يقوم ذهنه بلمحة عبر ، بعمل ارتباطات بين عناصر مألوفة ، وأن يؤلف بين تلك العناصر بوضع كل منها بمكانه المخصص له باعتبارها اجزاء في بناء عام مشترك . ويعزو بوانكاريه هذه المقدرة الذهنية الخاصة الى « النفس الخلاقة » كما سلف ان بينا . كما يعزو ايضاً الاحساس الذي يتم حسب مستلزماته : انتقاء الارتباطات الجديدة ان ، الاحساس بالجمال ، على الشكل الذي المعنا اليه .

فذلك هو باجمال رأي بوانكاريه في قضية اصالة التفكير العلمي في حقل الرياضيات اضطرنا إلى التبسط فيه لانه يكتسب قيمة الاولى لقراء العربية على ما نعلم ، وهو رأي صائب من حيث حدوث عملية الابتكار في الاساس : كما سنرى ؛ ولكنه يفتقر الى اسناد الفسيولوجي الذي يدعمه . ولو استبدل بوانكاريه بمصطلح « اللاشعور » او « النفس الخلاقة » الغامض المصطلح الفسيولوجي : الدماغ او « القشرة المخية » لاستكمل عمله العميق غزارة علمية . ويجري مجرى رأي بوانكاريه رأي عالم الرياضيات الامريكي المعاصر جاك هادامارد ؟ الذي تطرق بتوسع الى ان القاعدة في العمل الذهني الرياضي الاصيل هي العمل اللاشعوري . ويذكر ، من جملة ما ذكر ، انه استيقظ فجأة من نومه في احد الايام على الرسيب في الكتاب المجاور وفي ذهنه ، دون سابق تهيئة شعورية ، حل مفاجيء لاحدى مسائل الرياضيات التي حاول عبثاً ، قبل ذلك ، ان يتوصل اليه . واستشهد ، في مجرى دراسته لظاهرة الابداع في حقل الرياضيات ، بآراء طائفة من الرياضيين العاملين في الولايات المتحدة لتأييد وجهة نظره هذه التي تستند ، بلورها ، وجهة نظر بوانكاريه . غير أنه اضفى اسم « الالهام المفاجيء » على ما سماه بوانكاريه « النفس الخلاقة » .

وقد جرت ، في الاطار العام الذي أوضحه بونكاريه ، تجربة علمية سابقة طريفة سجل بعضها أمبير (١٧٧٥ - ١٨٣٦) ، الذي كان لتوتر الكهربائي بالجد ، في مذكراته عندما دون في يوم ٢٧/٤/١٨٠٢ الظروف التي احاطت بتوصله الى حل مكتشفاته الرياضية عندما ورد في ذهنه حل مفاجيء لأحدى المسائل الرياضية التي استعصى حلها عليه زهاء سبع سنوات [١] . ووصف كوس (١٧٧٧ - ١٨٥٥) الرياضي الالماني ، وأحد واضعي الهندسة اللاإقليدية ، في رسالة بعثها الى احد اصدقائه ، كيفية توصله الى البرهنة ، بشكل مفاجيء ، على صحة احدى نظرياته بعد ان اخفق في ذلك طوال اربع سنوات صرفها في البحث الفني [٢] . وذكر كيكولي ، عالم الكيمياء الالماني الذي عاش في القرن الماضي ، الكيفية الطريفة التي توصله الى احد مكتشفاته الكيميائية الكبرى : بينما كنت جالساً في احد ايام الشتاء عام ١٨٦٢ قرب الموقد ، اختلجني سبات ، فرأيت الذرات تقافز في الحلم ، المجموعات الكبيرة تتراص امام عيني بهيئات متعددة وبتصفوف غير متناهية لتتقوس في آخر المطاف على شكل ثعابين تتحرك بانحناءات متعددة وقد تطوى احدها على نفسه والتف ذيله حول جسمه فأصبح كأنه يدعى ذيله . فاستيقظت مذعوراً وفي ذهني ، بشكل مفاجيء ، حل لأحد اعوص قضايا الكيمياء العضوية ، حيث بدا لي ان جزيئات بعض المركبات العضوية المهمة ليست تركيبات مفتوحة بل هي سلاسل مغلقة على نفسها التي تشبه ذيل الثعبان [٣] . ولقد سجل كثير من المفكرين في مختلف الاختصاصات حوادث مماثلة من حيث توقد الحل بشكل مفاجيء ، فمنهم عالم ولغوي موسوعي من طراز ما سجله موزار (١٧٥٦ - ١٧٩١) الموسيقار النمساوي ، والاديب الفرنسي بول فاليري (١٨٧١ - ١٩٤٥) [٤] .

أما الآن ، وقد تهيأ من استعراض اهم الآراء العلمية التي تحدد طبيعة الاحداث في العمل الفني والعلمي ، نرى ان نناقش اسسها العامة

تمهيداً لعرض وجهة النظر الحديثة الجديدة المستمدة من العلوم الفسلجية التشريحية التي انبعثت في اعقاب الحرب العالمية الثانية والتي ما زالت بعيدة عن متناول المختصين بعلم النفس باعتبار ان هذه العلوم ، بنظرهم ، اكثر التصاقاً بالطب منها بعلم النفس . وفي مقدمة العلوم المشار اليها : علم تركيب خلايا الدماغ Cyto - Architectonics [11] ، و علم انسجة الجهاز العصبي Histological - Neurology [12] ، ودراسة القشرة المخية بالمايكروسكوب الالكتروني الذي يجعل حجم الخلية العصبية التي لا ترى بالعين المجردة تصغرها بزهاء (١٠٠) الف مرة : Electronmicroscopy [13] .

لقد اصبح رأي لمبروزو في متحف التاريخ بعد ان انهارت اسس العلامة امام زحف العلم الحديث في ميدان التشريح . فقد ثبت بشكل لا يقبل الجدال او الشك ، ان الاختلافات الموجودة في حجم ادمغة الراد النوع الانساني باجناسه المتعددة وفي ادمغة افراد كل جنس على انفراد لا تدل على اختلاف مستوى امكانياتهم الفسيولوجية ولا صلة لها اطلاقاً بتفاوت انتاجهم الفكري : فقد بلغ مثلاً حجم دماغ العالم الطبيعي الفرنسي كوفيه ، (١٧٦٩ – ١٨٣٢) والكساتب الروسي تورجنيف الذي نشر روايات سايكولوجية واجتماعية في القرن الماضي والشاعر الانكليزي بايرون [14] (١٧٨٨ – ١٨٢٤) زهاء (٢٠٠٠) سم٣ ويبلغ من هذا المستوى ايضاً حجم دماغ السياسي الالماني بسمارك (١٨١٥ – ١٨٩٨) [15] . في حين ان حجم دماغ الفيلسوف الالماني كانت (١٧٢٤ – ١٨٠٤) والكاتب الفرنسي الكبير فرانس لم يتجاوز نصف ذلك المقدار [16] . وبلغ حجم دماغ الفيلسوف لايبنتز (١٦٤٦ – ١٧١٦) زهاء ١٤٢٢ سم٣ . ولم يكن كانت وانا تول فرانس ولايبنتز اقل بروزاً في مجالات تخصصهم من كوفيه وتورجنيف . وحجم دماغ الجنس المقابل اكبر من حيث معدل من حجم دماغ الجنس الفلاني دون ان تترتب على ذلك نتائج

بايولوجية تطورية أو فروق في مستوى التفكير والانتاج العلمي لعالم الجنس المغولي ويرى كاتل العكس هو الواقع لأن هذا التقدم الحضاري الذي يميز الجنس القفقازي في الوقت الحاضر اجتماعي الجذور كما سنرى. وقد ثبت علمياً في الوقت الحاضر ان الوراثة البيولوجية للوجود لدى الانسان الحديث كانت قد نشأت في الاصل لدى الاسلاف الانسانيين نتيجة لاثر ظروف العيش منظوراً اليها من الناحية التطورية . اي انها نشأت لدى الاسلاف الاقدمين بالاكتساب البيئي في مجرى وجودهم التاريخي اثناء عملية التطور والارتقاء البايولوجي في اول الامر ، والاجتماعي بعد ذلك وعلى اساسه . ثم اخذت بالانحراء الديناميكي طوال عشرات الملايين من السنين لتلائم ظروف الحياة المتبدلة بصورة عديدة الانقطاع . فالبيئة غير المستقرة تجعل بعض الصفات البايولوجية القديمة يفقد تعبيره في التطور اللاحق ليعتريه الضمور او الاندثار ليفسح المجال امام صفات جديدة ملائمة تحل مكانه بالتدريج . ولهذا فان دراسة تاريخ النوع الانساني ، من ناحية تطوره البايولوجي ، يجب الا تجري بمعزل عن دراسة الظروف المعاشية التي مر بها الانسان في مجراه التاريخي الاجتماعي . والعكس صحيح ايضاً . وما يصدق على النوع الانساني في اوائل نشوئه ، يصدق ايضاً على الاجناس البشرية كل على انفراد ، وهذا يعني ان الاختلافات البايولوجية المعينة الموجودة بين الاجناس البشرية المعاصرة كانت قد حدثت في الاساس بتأثير ظروف جغرافية واجتماعية متعددة اقسم النوع الانساني ، منذ نشوئه ، بسببها الى جماعات متعزلة متعزلاً نسبياً عن بعضها وتخللت اختلافات جسمية وفكرية متحولة ، غير ان تلك الاختلافات مع هذا ، لم تؤثر بعمق في اسس التركيب البايولوجي للنوع الانساني بأجناسه المتعددة وفي تكوينه الفكري وتطوره الاجتماعي اللاحق . فنشأت الاجناس البشرية مثلاً في مظهرها العام وفي تكوناتها الداخلية من الناحية البايولوجية لانها ذات اصل مشترك وليست مراحل تطورية بيولوجية

بحقيقة مرّ بها النوع الانساني ولأن انعزالها عن بعضها لم يكن تاماً او دائماً . وما يصدق على الأجناس البشرية يصدق ، وإلى الحد الأكبر ، على افراد كل منها .

اما وجهة نظر كالتون فتستمد جذورها من استنباط مغلوط توصل اليه في الشق الأخير من القرن الماضي في أعقاب دراسته طائفة من رجال الفكر البارزين في مختلف الاختصاصات . وقد نتجت عن استنباطه المغلوط هذا نتائج ضارة على الصعيدين التعليمي والاجتماعي ما زلنا نئن منها الى اليوم . يتجلى جانبها الاجتماعي في مبدأ « تحسين النسل » (eugenics) . ويظهر الجانب التعليمي في مقاييس او اختبارات الذكاء . يستند مبدأ « تحسين النسل » الى فكرة مغلوطة مفادها ان الفوارق الذي نشاهده بين الأمم وداخلها ، فيما يتصل بمستوى التفكير والثقافة ، راجع الى تفاوتهم السايكولوجي ، اعني ، لا الى تفاوت ظروفهم الاجتماعية . وفي هذا الادعاء صدى لداروينية ناتج عن دعوة اصحابه الى ان يحل مبدأ الانتخاب الاصطناعي في المجال الاجتماعي محل مبدأ الانتخاب الطبيعي البايولوجي الذي توقف عن العمل في حياة الانسان الحديث بالنظر لتقدمه الثقافي . وقد أدى هذا المبدأ المغلوط الى نشوء جمعيات لتحسين النسل انتشرت في كثير من الاقطار الراقية لاسيما الولايات المتحدة في مطلع هذا القرن والى السماح بالتشريع دون تزاوج ذوي العاهات . كل ذلك تجلى بأوضح اشكاله في المانيا النازية .

ذلك ما يتصل بمبدأ تحسين النسل . اما المبدأ التعليمي المغلوط الذي اشرنا اليه والذي مفاده اننا نستطيع ، عن طريق قياس قدرات الطالب الفكرية « النظرية » ، ان نحدد سلفاً اهليته لتلقي نوع معين من التعليم وممارسة نوع خاص من النشاط المهني يوجه لمهنة معينة يمارسها في المستقبل دون سواها . معنى هذا ان اختبارات الذكاء تدل حسب أو تشير الى

وجود « قدرات » فطرية محدودة المقدار ، منذ الولادة ، لدى كل شخص ، وان نوع تعليمه وعداده يتوقفان على مقدارهـا التي تكشف اختبارات الذكاء . فكأن هذه الاختبارات ذريعة سايكولوجية للدفاع عن النظام التعليمي السائد بكل نواقصه أو لتقسيم المواطنين ، داخـل الامم وبينها ، الى مراتب وفئات متميزة عن بعضها في مستويات ذكـائهم الفطري المزعوم . وقد اصبح الطلاب المتخلفون في دراستهم ضحايا ، وتبين تخلفهم بأنه ناتج عن بلادتهم « الفطرية » بدلاً من بلادة مواد المنهج واساليب التعليم ونظم الادارة المدرسية .

فقد ارتبطت عـادة البلادة « الفطرية » المشار اليها نزعة سايكولوجية خبيثة واعية بتزعمها ، في انكلترا مثلاً ، السير كوتفرتوسمون بلداجز من ثلاثين عاماً : مفادها ان ذكاء سكان انكلترا آخذ بالتناقص ، على وجه العموم ، بسبب هبوط معدل حاصل ذكاء اطفال المراتب الدنيـا في المجتمع ، رغم أعلية اسكان ، بشكل يؤدي الى هبوط او تدهور معدل الذكاء العالي الذي يتمتع به ، نظرياً ، أطفال المراتب الاجتماعية العليا . أما على الصعيد الدولي فقد اتخذت مقاييس الذكاء أساساً لتصنيف الشعوب الى راقية ورائدة من ناحية ذكائها الفطري المزعوم . فقد اعتبر ذكاء الشعوب المتخلفة (بسبب الاستعمار والاضطهاد) التي تقطن آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية نوعاً من مستوى ذكاء الشعوب المتحضرة التي تسكن الولايات المتحدة والاقطار الاوروبية لاسيما المانية وفرنسة وانكلترة وفي هذا صدد ، بشعار جديد : الى تدمير وردتا الى بعث حرفة ورسالة الرجل الأبيض » . ومن المريب ان يساهم في هذا الاتجاه السايكولوجي اللاعلمي والاستعماري بعض علمـاء المسلمين المعاصرين وفي مقدمتهم مكدوكل احد اساتذة جامعة لندن البريطانية ، حيث يقول : « لقد اصبح واضحاً ان الامم ، كالأفراد ، تتكون بطء بعيدة عن الحياة البربرية القديمة لتعمل على مستويات من الرقي لم يتوصل اليها الانسان البدائي :

هذه الأمم تمر بمراحل عنيفة — بعضها منحط عن الركب وتحتل مركز القيادة فيؤلف الطليعة الإنسانية الرائدة . وقد أدى اهتمال هذه الناحية بالديمقراطية الى مواجهة متاعب كثيرة تجسمت حسن الاختلاف في فهم العامل الوراثي الذي يميز بعض الأمم عن بعض . ان الاساءة بين البشر تتضح بأجلى صورها في المجال السايكولوجي . وليس من قبيل الصدفة ان يولد بعض الأشخاص مرضى وحطابين ويولد آخرون في أعلى المراتب الاجتماعية . ! ! ! ؟

وأما وجهة نظر كريتشمر ونظرية التحليل النفسي ، فجديرتان بالنظر لذاتيهما : بالتقييمين العلميين الحديثين اللتين سبق ذكرهما ، ولما سوف لا نتعدى لذاتيهما . غير اننا نود ان نشير هنا الى ان الاضطرابات العصبية تمس شخصية الفنان والعالم الذي تعذبه وتذوي قدرته على الخلق والابتكار وغربتها عن مجراها الطبيعي . وتقدم لنا حياة الرسام البريطاني نوبس وين مثلاً حياً على ذلك . فعندما انتاب مرض الزوفرينيا العقلي في رسم أي شيء يكشف عن قدرته على الابتكار والابداع ، بل ذلك ، يرسم القطط دون غيرها . ومع ان المرض العقلي قد يعجز احياناً عن صرف القدرة على الابتكار عن مجراها الطبيعي غير ان القدرة على الابتكار ليست مرضاً عقلياً بأي حال من الأحوال . كما اننا سوف لا نناقش وجهة نظر بوتكاريه بل نكتفي بالاشارة الى غرض المبدأ السايكولوجي الذي انحنت منطلقها منه وان نقسمها الاساسي التصحيحي كما ذكرنا . وسوف نعنى ، أثناء مواصلتنا البحث ، بمناقشة وجهتي نظر كريتشمر والتحليل النفسي خصيصاً ويتضح ضعف رأي بوتكاريه في ضوء معطيات العلوم النفسية المتشعبة التي سبقت الاشارة اليها . وقبل الدخول في صميم ذلك لا بد من ابداء الملاحظات التمهيدية التالية :

يولد الطفل ، كما هو معروف ، خصيماً من الناحيتين الفسلجية

والاجتماعية في مجتمع يضم منجزات النوع الانساني عبر تاريخه الطويل ، مع تفاوت صارخ بين المجتمعات وداخلها من حيث مستوى تقدمها المادي والثقافي . ولا يضاف الطفل الى المجتمع كما يضاف مصباح جديد الى هذه البنية ؛ ولا يوجد الطفل في المجتمع على نحو وجوده في هذه البنية . بل هو يعيش فيه ويعمل داخله وبه ومعه . ويوجد فيه كما توجد جذور الشجرة في التربة أو بد الانسان في جسمه بشكل غير قابل للانتزاع إلا لاغراض الدراسة النظرية . ولا يبقى الطفل عابداً او متفرجاً على ما يجده في المجتمع من منجزات مادية وفكرية ؛ بل هو يتفاعل مع ما هو متوفر له منها ويعبر بوسائله ويعبر عن نشاطه باستجابته على نحو ما يفعله الراشدون المحيطون به . فتنشأ لديه بالتدريج قدرات فكرية بالاستناد الى الاساس الفسلجي الذي ينتمي الى جميع الافراد الاسوياء. يعني هذا ان قدرات الطفل الفكرية تنشأ وتتطور في مجرى حياته باعتبارها ظواهر اجتماعية جديدة نشأت لديه لا قوى فكرية كامنة في طبيعته البيولوجية . ومعلوم ان الطفل يسيطر في أول الأمر أو يستجوذ حسي الادوات المادية والفكرية (نقصد بالادوات الفكرية اللغة والمعرفة) المتوافرة في الأسرة التي يترعرع فيها . وتتنوع قدرات الاطفال وتختلف مستويات تطورها وفق المستوى المادي والفكري الذي بلغته الأسرة التي يترعرع كل منهم فيها . ثم ينتقل الاطفال الى المجتمع الاكبر ، بما فيه المدرسة في حالة وجودها ، فيزداد تنوع قدراتهم وتتفاقم اختلافات مستوى نموها . وهذا يعني ، بلغة الفسلجة العصبية ، أنهم يستثمرون مقداراً مختلفاً من رصيدهم الفسلجي الموّل من جهة وفي أوجه مختلفة من النشاط الذهني من جهة أخرى . عندئذ تبدأ الفروق الفردية الفكرية بينهم بالظهور . فالبطاء أو الاغبياء هم الذين يستثمرون الحد الأدنى من رصيدهم الفسلجي في الموضوع الذي أمامهم بالاضافة فيه ؛ ويحدث العكس لدى المواهب الفكرية الأخرى التي تضع على افرادها صفة الاصالة بمختلف مستويات

تسلسلها الصاعد من المهارة فالأمية فالعبقرية . ولا شك في ان للصفات الأنثوية والذكر نسبية لا مطلقة : فليس هناك خير في جميع الموضوعات والاختصاصات . كما ان من يقوم بتدريج العبقرية يفزعه تفكيرهم الضحل ، وحتى البليد احياناً ، في الموضوعات التي تقع خارج دائرة اختصاصهم .

يتضح اذن ان القدرات او الوظائف العقلية لم أثناء نموها وتطورها حتى الفرد بمرحلة خارجية لأنها في الأساس عند الفرد يعني انها اجتماعية النشأة . ثم تتحول ، بعد ذلك في مجرى حياة الفرد ، الى وظائف داخلية لتصبح عقلية او سايكولوجية . اي انها في الأساس علاقات اجتماعية بين الافراد ثم يمتلكها كل منهم باعتبار ان الوسيلة او الاداة الاجتماعية التي يؤثر الشخص بها في نفسه هي في الاصل وسيلة التأثير في الآخرين . فالكلمة مثلاً : من حيث هي اداة التعبير الاجتماعي عن قوى الفكرة : يجب ان تكون ذات معنى بالنسبة للشيء الذي ترمز اليه عندما يكتسبها الطفل للمرة الاولى في حياته مع الآخرين ؛ اي لا بد من توافر علاقة موضوعية بين الكلمة وما تعنيه لأن فقدان ذلك يجعل منها مقولاً جامداً لطور لاحق فيها من حيث صورتها استعمالها وارتباطها بغيرها من الكلمات . ويستمر الراشدون المحيطون بالطفل ذلك الارتباط الموضوعي بين الكلمة ومدلولها استمراراً وظيفياً باعتبار ان ذلك هو اداة الاتصال الفكري بالطفل . عندئذ تصبح الكلمة ذات معنى بالنسبة للطفل . معنى هذا ان الكلمة : من حيث وجودها ومن حيث مضمونها: ظاهرة اجتماعية خارجية بالنسبة للطفل في أول الامر ثم تتحول بعد ذلك الى ظاهرة داخلية او سايكولوجية . وبهذه الطريقة تتحول بالتدريج جميع اشكال الاتصال اللغوي الأساسية بين الراشدين والطفل الى وظائف عقلية أو قدرات فكرية . فالقدرات العقلية اذن ليست قوى موروثة مسجلة في صفحة الدماغ . بل هي نشأ وتنمو وتتكامل في مجرى حياة الفرد على

أساس الامكانيات الفسلجية الهائلة الموجودة لدى جميع الافراد الاسوياء غير ان ذلك النمو لا يتم دفعة واحدة بل يمر بسلسلة من المراحل المتسلسلة ويعبر عن نفسه على هيئة « اعضاء عجبة وظيفية » او حلقات فكرية مترابطة . لكن بعضها لا يتكون احياناً عند بعض الأشخاص أو بعض الموضوعات لعوامل اجتماعية معرفة . وقد يتكون بعض آخر بشكل ناقص أو مسرع لبدو آثاره السيئة في النمو الفكري اللاحق . والأشخاص الذين نعوزهم « اعضاء عجبة وظيفية » في موضوع معين فانهم يرغبون عنه ولا يبذلون فيه الجهد الفكري المطلوب اي انهم يصيرون فسلجيا : يستنفدون الحد الأدنى من رصيدهم الفسلجي فتاوح عليهم إمارات البلادة الاجتماعية الجدير . ومعلوم ان مخ الطفل ، من الناحية السايكولوجية ، مرده ان تخلفه الفسلجي الاجتماعي . فقد ثبت ان دماغ الطفل يبقى غير مكتمل النمو قبل السنة السابعة ، وان القشرة المخية تستمر على النمو ، بعد ذلك ، ولا يتكامل نموها عند الشخص السليم إلا عندما يصرح عمره زهاء ثماني عشرة سنة[١٨] والقشرة المخية التي تبلغ أرفع درجات مرونتها في السنوات الخمس الاولى مكنة التحجر عند فقدانها الظروف البيئية الملائمة . فالطفل الذي لا تتخذ الاجراءات الاجتماعية الكفيلة بتوجيهه ، طوال السنوات الخمس الاولى من حياته ، يصبح ، بعد ذلك ، صعب التدريب . ويعزى تعذر ارتفاع تفكير الأشخاص البدائيين الراشدين الى مستوى معين من الثقافة الى ان قشرتهم المخية ، لم تجد في فترة نموها الفسلجي الغذاء المطلوب : الظروف البيئية الملائمة التي تؤثر تحت اقرانهم في الشعوب الراقية . ومما يزيد الطين بلة ما يعرض له هؤلاء البدائيون من نقص في التغذية من حيث مقدارها ومن ناحية تنوعها . ولا شك في ان خلايا القشرة المخية تحتاج الى كمية كبيرة من الغذاء المتنوع الذي هو مصدر طاقتها الحسية . ومتى عجدها مجهزة بشبكة من الأوعية الدموية وانها اكثر اجزاء الجسم تأثراً بنقص الغذاء الذي يعوقها لخمول والتباطؤ في اداء

مهمتها الفكرية .

لقد مر بنا الحديث عن مرتبة الأنبياء أو المرتبة التي هي من مراتب أفراد المجتمع من الناحية الفكرية . ولقد تحدثت عن الأسلوب الذي يتبعه من تصفهم بالمهارة والذكاء والعبقرية لاستثمار إمكاناتهم العقلية على أفضل وجه . يجمل بنا أن نوضح ما يميز الماهر أو الحاذق أو البارع عن الموهوب أو الذكي أو العرقي أو الجهبذ والعبقري أو النابغة . يكمن الفرق الرئيسي بين الأول والثاني منهما (الماهر والذكي) في ظاهرة الابتكار الواضحة عند الذكي لأن الماهر يردد بإتقان ، في الأعم الأغلب ، ما ابتكره غيره . ومع ذلك فإن تاريخ العلم والفنون الرفيعة والتطبيقية يسجل مهرة مبتكرين يجيدون الأصل في إطاره العام ولكن بأسلوب يغرقه في الرتابة . كما أن الكثيرين من يشتغلون بفن الرواية في الأماكن الأثرية وبالمتاحف والمخطوطات قد يطلق عليهم اسم Restorers هم أبعد من أن يكون ما ينجزونه مجرد نسخ طبق الأصل Stereotype أو تقليد ، لأنهم يضفون على ما يريدون إعادته إلى وضعه القديم ديباجة جديدة تدل على البراعة أو الأصالة . وفي الشعر العربي أمثلة رائعة على ما ذكرناه . استمع إلى هذا البيت الرائع الذي يصف به صاحبه الليل الطويل بازميج :

كليني لهمٍّ يا أميمة ناصب ... وليل أقاسيه بطيء الكواكب

ثم وازن بينه وبين الليل الأروع الذي صاغه في شاعر جاء بعده :

خليليَّ مرّا بي على أم جندب ... لنقضي حاجات الفؤاد المعذب

ألمّا على البيت القديم فحيّيا ... وما بال ضوء الصبح لا يتوثب

ألم تر أن النهار المستنير طريقه ... أم الدهر ليل كله ليس يذهب ؟!

وأول حالات الذكية استعمال خيال خصب بارع الصنعة في موضوع

التخصص . ولا يقصر الفرق بين الالمعي والعبقري في سمة الابتكار او مداه وعمقه وانما هو يظهر ايضاً ، وان بالدرجة الاهم : على ان لفكر العبقري جانب دوراً ايجابياً فريداً في مجال تخصصه بالنسبة لتاريخ العلم والنظريات الاجتماعية . ويلوح ان الالمعي والعبقري يحتلان مزايا نسبية ندرة ما زال البحث مستمراً ، على ما نعلم ، لكشف النقاب عنها .

وبقدر ما يتعلق الامر بدعم الملاحظات العديدة التي اشرنا بوصفها دعماً فسلجياً في ضوء المعرفة العلمية الحديثة نستطيع ان نقول : ان الاساس الفسلجي لعملية الابتكار هو ان تركيز الانتباه لفترة طويلة من الزمن في موضوع معين ، بالاستناد الى الالمام الواسع العميق به ، نشاط عصبي يقوم به خلايا القشرة المخية التي بلغ فيها الاهتمام اقصى درجات ارتفاعه. هذه الخلايا تؤلف ، في لحظات اقدامها ، الجانب المبدع او المبتكر في القشرة المخية . ذكر بافلوف (١٨٤٩ — ١٩٣٦) : قبل زهاء نصف قرن ، لو ان عضواً شفافاً يحيط بالقشرة المخية ، بدل الجمجمة ، ولو ان بالامكان ان نسلط عليها ضوءاً ساطعاً من داخلها ، لرأينا خلاياها التي بلغت ذروتها او نشاطها او تركيزها اعلى الدرجات تلمع على هيئة بقع مضيئة متناثرة وسط حشد مسالم من خلايا القشرة المخية الاخرى التي تبدو شبه منسية او بادنة الخور . ومن الطريف ان نذكر هنا ان بعض الباحثين متطلع ، قبل بضع سنوات ، ان يجعل جهازهم بعض الخلايا شفافة يرى الباحث بعينه ما يجري داخلها وذلك بتركيب ثوائق زجاجية دقيقة Electrodes فيها . وأطرف من ذلك ان ابكر وسكوب الالكتروني ، عندما سلط على خلايا قشرة ايشتين (١٨٧٩ — ١٩٥٥) المخية قبل وفاته واثناء انشغاله على بعض المعادلات قد سجل بدقة صورة عن غرار ما ذكرناه . وعندما لاحظ المختصون حدوث تغيرات غير مألوف في تلك البقع الضوئية بعد حين ، بعد ذلك ، ان أينشتين كان قد تذكر في مجرى عمله الذهني ، اخطاءً رياضية ارتكبها في يوم مايو فاشعر

ذهنه بتصحيحها مما أدى إلى حدوث الشرخ الذي ذكره .

لقد مر بنا القول ان الابتكار : من حيث هو عملية ذهنية تستجيب منظورة اليها من زاوية تركيز الانتباه لفترة طويلة من الزمن في موضوع معين : بالاستناد الى الالمام الواسع العميق به ، هو نشاط عصبي تقوم به خلايا القشرة المخية التي بلغت إثارتها حدها الاقصى ، ومعنى هذا ، من الناحية العلمية ، نشوء عملية عزل عصبي تستدعي ، في حالة التركيز ، إقصاء الانقباضات العضلية والمؤثرات البيئية التي هي خارج اهتمام عدد من خلايا القشرة المخية الاخرى لكي تنتشر تلك الاثارة فيها . وعندما تقترن أو تلتقي او تلتحم الارتباطات العصبية في النقطة المشتركة من القشرة المخية فان ذلك يعني ميلاد الفكرة الجديدة او الابتكار . يحدث هذا الاقتران لبعيد الوقت او الابتكار في اعقاب دراسة عميقة مستفيضة تستغرق سنين طويلة ، يشكل مفاجيء عند نضجه : بين المراكز المخية الحسية المتشرة في ارجاء القشرة المخية باستثناء مقدمتها "تماسٌ" كما يحدث بين المراكز المخية المتباعدة الموجودة في القسم الامامي من القشرة الأمر الذي يؤدي الى التقاص فكرة طرية أو صورة شعرية قبل ان تمر من الشحن . ثم انبثاقها في حقل الفن كما فيه الشعر في حالة حدوث الاقتران العصبي بين المراكز المخية الحسية . وفي حقل العلم في حالة حدوثه بين المراكز المخية المتباعدة . ويبلغ الصراع المخي اعلى مراتبه ، في الحالتين : بين الخلايا المخية المتيقظة وبين الخلايا التي ما زالت بحاجة الى نور . وتظهر في مجرى هذا الصراع صفات مخية جديدة يجوز لنا ان نسميها « مخاض الابداع » الذي يتصف به المبدعة — وهو حالة خاصة من الصراع المرير الحاسم الذي يحصل بين المجاري المخية التي تحمل الفكرة الجديدة لقذفها خارج الرحم وبين تلك التي تحاول الاحتفاظ بها : من طراز الصراع الذي يحدث بين عوامل دفع الجنين خارج الرحم وبين عوامل الاحتفاظ به . وعندما يتكامل الوارد الجديد مستلزمات وجوده المستقل فانه يرى النور في

الخاتمين في الصفة الخاصة بشكل حتمي لا مراء فيه . يحسل ذلك بشكل مفاجيء كما ذكرنا . وقصة ارخميدس (٢٨٧ ـ ٢١٢ ق . م) معروفة عندما توصل اثناء استحمامه الى حل مسألة علمية أعياه . حلها فخرج الى الشارع جذلاً يصيح بأعلى صوته « يوريكا ، يوريكا » ، غير ان هذا الاشراق الفاجيء وليد عمل فكري سابق مستفيض وعميق كما بينا . حتى نيوتن (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧) كيف توصلت الى وضع قوانينك العجيبة فاجاب « ركزت انتباهي زمناً طويلاً فيها » . كل ذلك دفع العالم الطبيعي الفرنسي بوفون (١٧٠٧ ـ ١٧٨٨) الى ان يعتبر العبقرية بأنها « المثابرة على مواصلة البحث والاستقصاء[١٠] » . كما ان كوفيه (١٧٦٩ ـ ١٨٣٢) العالم الطبيعي الفرنسي عرف العبقرية بأنها « انتباه مركز لا ينضب في موضوع معين » .

يتضح اذن ان للمواهبة الواسعة العميقة في موضوع التخصص في اطار الثقافي الاول الذي لا بد من توافره بدرجة عالية الابتكار في حقل العلم بصورة خاصة . ومن يتتبع حياة العلماء يجد ادلة لا تحصى تؤيد ذلك . فقد صرف كوبرنيكس (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣) طلاً زهاء ربع عاماً للوصول الى آرائه في علم الفلك على بساطتها بقدرتنا العلمية الحديثة ولم يوفق الى نشر كتابه « حول حركة الاجرام السماوية » ، الا عندما بلوغه السبعين من عمره وتحت ضغط اصدقائه والمحيطين به ، ولم تصل النسخة الاولى الا وهو على فراش الموت[١١] . ومن الطريف ان نذكر هنا ان الباحث الفرنسي مولن[١٢] قد اجرى دراسة لتعداد السن الذي بلغ فريق من قالوا بجائزة نوبل فوجده (٥١) سنة : وكان معدل عمر الامريكيين الذين منحوا الجائزة بين ١٩٠١ ـ ١٩٣٠ : (٥٤) سنة ؛ وبين ١٩٣١ ـ ١٩٦٠ : (٤٦) سنة . وفي الكيمياء بين ١٩٠١ـ١٩٣٠ وبين ١٩٣١ ـ ١٩٦٠ : (٥١) عاماً . وفي الطب في الفترة الاولى (٥٥) سنة ؛ وفي الفترة الثانية (٥٣) سنة .

ليس الابداع او الابتكار ، في العمل الفني والعلمي ، ايجاد مكتشفات جديدة لا تمت الى عناصر مادية مألوفة ، بل هو اكتشاف علاقات أو ارتباطات موجودة سلفاً بين تلك العناصر المادية المألوفة ، تبدو هذه العلاقات الجديدة ، جديدة ، بمعنى انها لم تكن مألوفة من قبل لأنها كانت متوارية عن أعين الناس . فالارتباطات القديمة الجديدة التي يكشف عنها الابتكار أو التي هي الابتكار نفسه وعناصرها المادية المألوفة ظواهر موضوعية موجودة في البيئة المحيطة . اي ان الاصالة هي اماطة اللثام أو كشف النقاب عن جوانب متشابهة بين شيئين أو حادثتين لم تكن معروفة من قبل بمعرف النظر عما اذا كان هذان الشيئان أو الحادثتان موجودين بالفعل جنباً الى جنب اثناء الكشف عن العلاقة بينهما ام كانا متباعدين في الزمان والمكان ولكن ذهن العالم أو الفنان او الشاعر الرهف قد جمع بينهما عن طريق الكشف عن العلاقة الخفية الموجودة بينهما . فقد اكتشف ارخميدس (٢٨٧ – ٢١٢ ق. م.) مثلاً العلاقة الموجودة بين الاستحجام وبين قياس وزن الاجسام الصلبة المغمورة في الماء بشكل لم يسبقه احد اليه . رغم ان هذه الظاهرة كانت مألوفة وجوانبها المادية مألوفة كذلك . كما ان معرفة الانسان بتقلبات البحر بين المد والجزر ومنازل القمر اثناء تحوله المتعاقب في صفحة السماء قديمة قدم رؤيته لسقوط الاجسام على الارض . ورغم ذلك فان الكشف عن ارتباط هذه الظواهر المادية المألوفة بظواهر طبيعية مألوفة اخرى والنظر اليها في رؤية جديدة قد ادى الى نشوء مبدأ الجذب الذي قال به نيوتن (١٦٤٢ – ١٧٢٧) .

وما ينطبق على العلم ينطبق ايضاً على الفن والشعر . قال احد الشعراء يصف زلزالاً وقع في مصر ويخاطب اميرها :

ما زلزلت مصر من كيد أتم بها لكنها رقصت من عدلكم طربا

وقال البحتري في قصيدته الرائعة :

تصب فيها وفود الماء معجلة ... كالخيل عاريةً من حبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة ... من لهاتك تجري في مجاريها
اذا علتها الصبا ابدت لها حبكاً ... مثل الجواشن مصقولاً حوافيها

وقال الشنفري يخاطب اسد الذين هجوهم :

وذكي رائحة الرياض كلامها ... تبغي الثناء على الحيا فتفوح
جهد الخليل فكيف بابن كريمة ... توليه حمداً والمنون فسيح

وقال أيضاً :

أين زعمت أيهذا الذم ... نحن بنت الربى وانت السمام!!

لا شك في ان التعبير الشعبي للابتكار ، بالشكل الذي أشرنا اليه، يجعل الابتكار حقاً مشاعاً لجميع الاشخاص اذا ما هيئت الظروف الاجتماعية الملائمة لكل منهم لاستثمار امكانياته الفطرية الى حدها الاقصى في موضوع تخصصه بعد تركيز اهتمامه فيه لفترة من الزمن واستيعابه بعمق النظريات المتعلقة به . غير ان الكثيرين منا قد اعتادوا ان يحصروا امكانية التفكير، في حقل التعليم مثلاً ، بفئة ضئيلة من التلاميذ . ويصبح الفرق شاسعاً بين قوى التفكير الأصيل وقيضه فقدان الاصالة عند هذا البعض . وهذي ، اذا كان لي حق كما يقول الجاحظ، ان هذا القياس السطحي الضليل يعرّض أغلبية الطلاب لأخطار فكرية جسيمة ويحرم المجتمع من ثمار تفكير غالبية أبنائه . كما ان مستويات تفكير التلاميذ ليست من صميم عمل المدرس الذي ينبغي له ان يتيح لهم جميعاً فرصاً متكافئة

وعلانية كي يستثمروا طاقاتهم العلمية الى حدها الاقصى ، وان ينظر الى الاعاقة نظرة نسبية لا مطلقة فيأخذ بنظر الاعتبار ظروفها الخاصة والمستوى التحصيلي الذي بلغه صاحبها . وجدير بالاشارة هنا ان المدرسين كثيراً ما يلاحظون : حتى في الظروف التعليمية العادية غير الخاصة ، ان بعض التلاميذ يعالج احياناً قضايا تعليمية مألوفة بأساليب لا تخلو من الطرافة والابتكار . ولكن المدرسين يعتبرون تلك الأساليب غير موفقة لأنها تؤدي مباشرة وبالشكل المألوف الى النتيجة المرجوة المحددة سلفاً في ذهن المدرس وعلى صفحات الكتاب المدرسي . وقد تؤدي احياناً الى التوصل الى حلول غريبة يعتبرها المدرس ، وان كانت مهمة ، خارج الصدد . وبذلك تذوي روح الابتكار عند التلاميذ وذلك بسبب المدرسين الى حد تفكير التلاميذ في قوالب جامدة وحثهم على اجترار ما يقدمه لهم . وتشجيعهم على التمسك بحرفية ما يقرأون . فلا غرو اذن ان نرى كثيراً من المبدعين الاطفال كانوا مختلفين في دراستهم بسبب جمود أساليب التدريس وعقم مناهج الدراسة وصرامة الادارة المدرسية . فباستور (١٨٢٢ - ١٨٩٥) [١٩] وفاراداي (١٨٠١ - ١٨٦٧) وآينشتين [٢٠] (١٨٧٩ - ١٩٥٥) كانوا من الاغبياء ! بمقاييس التعليم المدرسي للأسف .

وفي ضوء ما ذكرنا نستطيع ان نقول : يولد الناس ، في الاعم الاغلب ، متساوين في أصل الذكاء من الناحية الفسلجية التي هي نتاج البحث في الأمد الطويل . اما الاختلافات الكبيرة والكثيرة التي نشاهدها في مستويات الاصالة بينهم فردها ، على وجه العموم ، الى اختلاف بيئاتهم الاجتماعية . واذا استثنينا الاشخاص الذين تتعرض ادمغتهم لرجات عصبية فان كل نقص في اصالة الفرد مرده الى بيئته الاجتماعية . ومعلوم ان الفرد يتفاعل مع بيئته عن طريق صلاته ببعض اجزائها ومكوناتها التي لا تقع تحت حصر — ذلك لأن البيئة ليست كياناً واحداً متماسكاً

عدد الابعاد والصفات ذا تأثير متماثل في جميع الافراد — بل هي مجموعة
لا تحصى من الكائنات الحية والجامدة ومن العلاقات الموجودة بينها التي
يتعرض لها الافراد بدرجات شتى بالنظر لكون منهم في العناصر الوراثية التي
يتعامل معها ويتأثر بها بطريقته الخاصة في كل لحظة من لحظات حياته.
وهذا تباين سطحي الرغم الذي مضمونه جعل الافراد يعيشون في بيئة متماثلة
ويستجيبون لها تكريباً بصورة متماثلة . كما نجد ايضاً سطحية الاتجاه
الآخر المقابل الذي يتجلى في استعمال نماذج منتزعة من واقعها وتربيتها
مثل « طالب » و « ذكاء » و « انسان » و « مواطن » وما اليها
والحكم عليها كما لو كانت حالات فردية خاصة في حين ان هذه
المصطلحات تعتبر في شمولها خارج نطاق الحالات الفردية المحسوسة التي
تشير اليها ، ان الوجود المادي المحسوس الذي يتمتع به الافراد الذين
نصفهم بها : اي انها مصطلحات لغوية عامة لا تشير الى حالات فردية
خاصة محسوسة ، فوصفها تصنيف عناصر البيئة الى مراتب وفئات متميزة
عن بعضها فيما يتعلق بالملامح المشتركة الموجودة بين افراد كل منها .
فالطالب مثلاً : من حيث هو كيان مادي واجتماعي ، ليس له وجود
مستقل منعزل عن هذا الطالب او ذاك : زيد او عمرو الذي يسكن
في الحي الفلاني ويحمل الجنسية الفلانية وينتمي الى هذه الاسرة بالذات
ويحتل المركز الاجتماعي المعين وله بيته الخاصة التي يتفرد بها دون سواه.
فاذا اقدمنا عن التحدث بلغة المجردات البعيدة عن الفرد وابتدأ صدر
احكامنا السايكولوجية او اصولها النوعية التي انتهت عنها تماماً كما يفعل
الاطباء حين يركزون اهتمامهم في حالة كل مرض على افراد التشخيص
والكشف عن عوامل حدوث القريبة والبعيدة بالاستناد ، بالطبع ، الى
المبادىء النظرية العامة لا انطلاقاً منها ، وان تكرر مواقفنا ازاء الطلاب
المختلفين على نمط مواقف الاطباء ازاء المرضى بما تنطوي من حذر وتوقي
وتشجيع .

لو نظرنا الى البيئة الاجتماعية نظرة تاريخية لوجدناها ذات فجوات تفصل بين الافراد ولأدى الى تباين فرص الحياة وتهيم وتحسن دون استئثارهم جميعاً مقادير متفاوتة من امكانياتهم الفسيحية في اوجه النشاط الفكري السائد في المجتمع الذين يعيشون فيه . وكلما اتسعت تلك الفجوات زاد مقدار الكفايات المطمورة والكفايات الدفينة بغير الاستخدام التام . والبيئة الاجتماعية مسئولة ايضاً عن تقدم الانسان الحديث من الناحيتين المادية والثقافية . وكلما ارتفع المستوى العام لثقافة العصر والمجتمع بصورة عامة وفي مجال اختصاص الفرد أصبح ارتفاع مستوى الاصالة عند هذا الشخص محتمل الوقوع ، والعكس صحيح كذلك . فبداية الاصالة عند الانسان البدائي تأتية ، بالدرجة الاولى ، عن بداية بيئة . غير ان البداية الفكرية تعمل : بدورها ، على جعل البيئة اللاحقة بداية كذلك . وهكذا دواليك . ومرد هذا : في الأساس ، الى ان البيئة بعوزها هذا المقدار الضخم من عوامل الحفز الاجتماعية المتوافرة في البيئة المتقدمة التي تستثير التفكير وتحفزه وتحثه على العمل المتواصل . كما ان عوامل الحفز في البيئة البدائية ، مع تقادمها وضآلتها ، لا توجد اهتمام الاشخاص الذين يقعون تحت تأثيرها إلا الى المتطلبات البيئية التافهة . ومن الطريف ان نذكر هنا ان قساوسة رجال الفضاء الكوني التي بدت ملامحها قبل بضع سنوات ، قد اثبتت ان العشرة المختبرة بحاجة متواصلة الى تلقي عوامل الحفز البيئية التي تنشطها الى الدرجة المطلوبة . كما ان التجارب المختبرية ، التي اجريت على اشخاص وضعوا في خبرات بصورتها المكونة المطلق ، دلت على خمول العشرة المختبرة واخفاقها في القيام بالتزاماتها الفكرية .

والخلاصة : يجب البحث في البيئة الاجتماعية ، لا في طبيعة الفرد بالمعنى السيكولوجي المجرد ، للكشف عن العوامل التي جعلت فلاناً ذكياً بمقاييس عصره ومجتمعه وجعلت غيره بليداً بالمقاييس ذاتها . كما

يجب ان تعمل ، في الوقت نفسه ، وبصورة مستمرة على تحسين بيئات الأفراد في مواجهها المتعددة ليتسنى لهم استثمار اكبر مقدار مستطاع من امكاناتهم الفسلجية الهائلة ، في المجالات الاجتماعية التي تؤدي ان تقدم المجتمع ماديا وثقافيا على حد سواء . ويبدو انه لا يوجد فرق ، من حيث الاساس ، بين الامكانيات الفسلجية الموجودة لدى الانسان وبين الامكانيات التي تمتلكها المادة الجامدة كالطاقة الذرية . فكما ان طاقة ذرة المادة تعبر عن نفسها باشكال متعددة تزداد كلما كثرت مسلبها ، أثناء التفاعل ، بالعوامل البيئية المختلفة ، كذلك الحال بالنسبة للامكانيات الفسلجية الفكرية . مع العلم ان هذه الاخيرة أوسع منى وأكثر مرونة وأقدر على الانتشار كما تهيأت لها الظروف البيئية الملائمة . ولتوضيح ذلك نستطيع ان نشبه البيئة الاجتماعية بالأرض بطبقاتها الجيولوجية المتعددة وان نشبه الامكانيات الفسلجية الفكرية الموجودة لدى كل منا بأحد المعادن الموجودة داخلها . وعلينا ان نبحث عن تلك الامكانيات الفسلجية الكامنة للثروة على نسق التنقيب في طبقات الأرض عن الثروة المعدنية . واذا كان بمستطاع الانسان ان يستثمر ، في المستقبل غير البعيد ، الثروة المعدنية الموجودة داخل الأرض بالقدر المناسب كميا مع الزمن فان استثمار الثروة الفسلجية عند الفرد غير محتمل الوقوع وخاصة في الاجيال المقبلة التي لا حد لتعاقبها . وتحقيق نمو الانسان على الشكل وجه لا سيما في المجتمعات المتخلفة لا مفر من نشره على طبقات الفكر على نسق على طبقات الارض . وعلى طبقات الفكر يعتمد استقلاله في الاساس من تحسين الظروف البيئية العامة لجميع المواطنين داخل المدرسة وخارجها. وهكذا يستلزم ، بالاضافة الى نشر التعليم بأوسع نطاق ممكن ، اعادة النظر جذريا في مناهج الدراسة وأساليب التدريس وفي الادارة المدرسية كما يستلزم ايضا تنقية على الخاص من الآراء الضيقة التي تسربت اليه من الايديولوجية وابعاده عن التعلق بفروع المعرفة الاخرى بما انها الفلسفة

الحديثة . ولكي يستكمل علم النفس سيطرة العلوم عليه ان يعيد بناءه على أساس معطيات العلوم الاجتماعية التي ذكرنا أسماءها في ثنايا هذا البحث فيصبح علم النفس أحد العلوم الاجتماعية التي تدرس الاصالة باعتبارها ظاهرة اجتماعية تاريخية من حيث المحتوى . كما يصبح أيضاً احد العلوم البيولوجية التي تدرس الاصالة من حيث أساسها الجسمي الذي هو القشرة المخية .

وينبغي للمشرفين على التعليم ان يتذكروا دائماً ان الاصالة لا تحدث عند الشخص إلا اذا واجهته مشكلة فكرية معينة ؛ وان المشاكل التعليمية تختلف في مدى صعوبتها بالنسبة للطلاب ، وان أفضل المشاكل من الناحية التربوية ما كان مزيجاً من السهولة والصعوبة بالنسبة للطالب ذلك لأن المشاكل الصعبة تثبط همته وتعطل قدرته على الابتكار . أما المشكلات السهلة فلا تستثير الجهد الفكري المطلوب . بمعنى آخر ان المشكلات التربوية التي تستوفي شروطها الاساسية لا بد ان تكون صعبة وسهلة في آن واحد : اي على درجة من الصعوبة كافية بحيث تتحدى الاصالة وأن تكون على درجة من السهولة بحيث يستطيع الطالب ان يستمد خبرته السابقة عند مواجهته اياها .

ذلك هو النهج الذي نرى ان تسير فيه الدول النامية في مجال التعليم شريطة ان يدرس المعلمون بشعوره في نفوس تلاميذه ان التفوق على الآخرين في مجال معين أو موضوع خاص يلقي على عاتقه مزيداً من المسئوليات الاجتماعية بدلاً من ان يهيء له فرص الاستئثار بجهود غيره ، وان يعلموا ان هذا التفوق ميسور للجميع اذا هيئت لهم الظروف الاجتماعية الملائمة واستثمر كل منهم امكانياته الفسيولوجية الى حدها الاقصى في موضوع يهوى عليه ويثق عقله بالنفع العميم .

لويس جعفر

قائمة ببعض المراجع الرئيسية

(1) Jean E. Miller, New Horizons in Psychology, Penguin Books London, 1966, chapter 3, P.P. 167 — 188.

(2) Bloomfield, J., The Psychology of Invention in the Mathematical Field, Dover, New York, 1962, P.P. 21 — 48.

(3) Gallup, P. Elementary Statics, Macmillan, New York, 1914.

(4) Miller G. Psychology: The Science of Mental Life, Penguin Books London 1966, chapter 5, P.P. 143 — 166.

(5) Knickerbocker, K. The Psychology of the Man of Genius, Kegan Paul, London, 1951.

(6) Knickerbocker, K. Psychics and character, Kegan Paul London, 1928.

(7) Schreiber, D.E., The Typical-Analyst and the Artist, New American Library, New York, 1965, Part 2, P.P. 81 — 112.

(8) Chandler, K, editor The Creative Process, The New American Library, New York, 1952 , P.P. 206 — 224.

(9) Poincaré H., Science and Method, Dover publications, New York, P.P. 34 — 36.

(10) Koestler A., The Act of creation, A study of the conscious and Unconscious in Science and Art, Dell Publications, New York, 1967, P.P. 423-461.

(11) Pribram, J.K., Physiology of the Nervous system, Oxford University Press, New York, 1961, P.P. 286-291.

(33) Baxter, M.A.P. On Electrical Activity of the Nervous System. Illinois Medical Publication Co. London. 1938. Chapter 16, P.P., 180 — 202.

(34) Hill, D. and Parr, G. editors, Electroencephalography. Macdonald, London, 1963. Chapter 5, P.P., 69 — 117.

(35) Pattison, E. Psychology as you may Like It. Mouton, Joseph, Lamington Publishers Ltd. 1933. P., 49.

(36) Eastman, M., editor, Enjoyment and the Study of Music. Mouton, Publishing, London. 1961. P., 45.

(37) McDowell, R.J.S., Basic Psychology, London Murray, 1968, P.P., 5 — 8.

(38) Gray, H. Psalter: The Man and His Thoughts. Fawcett Publishing, New York, 1967. P. 91.

(39) Gray, H. Psalter: The Man and His Thoughts. Fawcett Publishing, New York. 1967. P. 87.

(40) Gray, H. Psalter: The Man and His Thoughts. Fawcett Publishing, New York. 1968 P., 11.

نقد كتب

الدكتور عبد الرحمن بدوي

جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب «المسالك والممالك» لأبي عبيد البكري (توفي ٤٨٧ هـ ، ١٠٩٤ م) . تحقيق الدكتور عبد الرحمن علي الحجي . دار الإرشاد . بيروت ، ١٩٦٨ : في ٢٥٣ صفحة .

أبو عبيد البكري جغرافي فذّ في صيغة المغرافيين العرب ، ومع الاطلاع على المصادر الأوروبية ؛ كي يكشف عن خطأ في مؤلف «المسالك والممالك» ، مفيد ليس فقط في الجغرافيا والبلدان ؛ بل وأيضاً — إذا لم يكن خصوصاً — فيما يتخلل كلامه عن البلدان من معلومات تاريخية ودينية وأدبية تشيد له بالأهمية والرجوع إلى أوفى المصادر .

ولم يتسن لي مع الأسف غير كتاب «معجم ما استعجم» كاملاً ، الذي نشره مستفاد منذ حوالي ٣٠ عام . ثم قطع مختلفة من كتاب «المسالك والممالك» .

وأول هذه القطع تتعلق بإفريقية والمغرب ، حققها دي سلان ونشرها بعنوان : « المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب » وهو جزء من أجزاء الكتاب المعروف بـ « المسالك والممالك » تأليف الشيخ العالم العلامة الحبر الفهامة أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري ، الجزائر مطبعة الحكومة ، ١٨٥٧ ، وقدم لها بمقدمة عن البكري : حياته وعصره (توفي البكري في شهر شوال ٤٨٧ هـ = أكتوبر نوفمبر ١٠٩٤ م ، عن ستة وسبعين عاماً) . وقد نشرها دي سلان على أساس ثلاث مخطوطات : باريس ، وليدن ، والخزانة .

وكان من المأمول ، ولكتاب قطع أخرى متفرقة ، أن يتم منذ زمن بعيد نشر القطع الأخرى الباقية .

ولكن شيئاً من ذلك لم يتم ، فيما عدا نشر بعض فصول أو صفحات متفرقة كما فعل ليفي بروفنسال في ترجمته الفرنسية لكتاب « الروض المعطار » لمحمد بن عبد المنعم الحميري (ليدن : ١٩٣٨) ، والدكتور حسين مؤنس في « مجلة معهد الدراسات الإسلامية » (المجلدان السابع والثامن ، ١٩٥٩-١٩٦٠) ، وإما نشر القسم الخاص بالصقالبة نشره كوبك وروزن في بطرسبورج عام ١٨٧٨ ، وخلي من الترجمة والدراسة بأوفى نصيب .

ومن الأمثلة الحديثة لبعض قطع هذا الكتاب ما يتعلق بجغرافية الأندلس وأوروبا ، وقد نشرها لكتور حجي على أساس ست مخطوطات : باريس برقم ٢٢١٨ ، باريس برقم ٥٩٠٥ ، القرويين بفاس برقم ٨٠٠ ، ٣٩٠ ، الخزانة العامة بالرباط (قسم الوثائق) برقم ٤٨٨ ، الآثار باستانبول برقم ٢١٤٩ ، نور عثمانية باستانبول برقم ٣٠٤٣ ، وزاد نشره بشروح مستفيضة على الهوامش وبخاصة الجديدة بالجغرافية خصوصاً .

وتحقيق الكتاب على أساس هذه المخطوطات ثم نشره حقا ، لا ينبغي أن يكون التحقيق أتم وأدق .

ولا نستطيع في هذه الكلمة الصغيرة أن نتناول النشرة بالتفصيل ، لكن نجملها بالملاحظات التالية :

أولاً : فيما يتعلق بترتيب النص :

لاحظ أن المحقق لم يتبع الترتيب الوارد في أي مخطوط ، بل رتبه كما شاء ، على أساس أن هذه القصة أو تلك هذه الفقرة أدخل في هذا الباب من تلك القصة ، وكل هذا قد استباحه المحقق لنفسه دون مبالاة من الأمور نصبا ، وهي الرجوع الأول . لهذا لا نستطيع أن نقول إن هذا الذي نشره مثل ترتيب العمل الأصلي كما وضعه المؤلف . وقد دخل في هذا من الحكم ما لا يقره المنهج الفيلولوجي والتحقيق العلمي .

ثانياً : فيما يتعلق بتحقيق النص .

لاحظنا أنه كان في حاجة إلى مزيد من التحقيق والاطلاع ، فالكتاب المكرون كما قلنا ليس جغرافياً فحسب ، بل فيه معلومات تاريخية وأدبية ، بل وفلسفية عديدة ، خصوصاً وقد رجع إلى مصادر لاتينية (ولا ندري هل تم ذلك مشافهة أو بالاستعانة بترجمات موجودة فعلاً ، أو عملت خصيصاً) ، وأخرى يونانية ، فيجد حقاً بمعلومات عديدة .

هذا كان خليقاً بالمحقق أن يسطر طويلاً من هذه الزوايد التي تختلف عليه . وإليك بعض تصحيحات ، على سبيل المثال ، لبعض هذه الزوايد :

١ — ص ١٢٦ س ٣ : الوبارين — وصوابه : الجربازين (وهو لبث حبشي معروف جداً ، وراجع عنه « مفردات » ابن البيطار : والمذكر) ، ووردت لفظة (الدابة) .

٢ — ص ١٢٧ س ٦ : الأورد — وصوابه : الأوريد (حجر كريم معروف : راجع مثلا : الجماهر في معرفة الجواهر للبيروني ، وعجائب المخلوقات للقزويني ، وكتاب « الأحجار » المنسوب إلى أرسطاطاليس : نشرة روسكا) .

٣ — ص ١٢٨ س ٩ : وهو نفع شيء . [ر] الحصى وحجر .. وصوابه : وهو نفع شيء الحصى (في الحصوة) (راجع البيرجع المذكورة في رقم ٢) .

٤ — ص ١٢٩ س ١ : الله بوبرة — في الهامش : باريس ! ولا شك لباريس بوبرة .

٥ — ص ١٩٧ س ٩ : من بيوت تسابط (راجع تعليق ٢) : وصوابه : شاست توسابط : (يونانية تعني : شاكر الوت)

ΧΑΣΤΟΥΣΑΒΑΤΟΥ

٦ — ص ٢٠٤ س ٢ : انزيقة — وصوابه : الورس Ἴασις (= العقاء) .

٧ — ص ٢٠٤ س ٤ : باطوش — وصوابه : باطوس Βότρυς (العنب الحلو) .

٨ — ص ٢٠٤ السطر الأخير : شمعون الصفا هو أحد الأسباط الاثني عشر — صوابه : أحد الحواريين الاثني عشر ، أما الأسباط فهم أبناء يعقوب الاثنا عشر الذين منهم انحدرت قبائل اسرائيل الاثنا عشرة . والسبط هو الفخذ .

٩ — ص ٢١٠ س ٢ : باطوس وهو حمل اسم ذو الزهرة — صوابه : باطوس (= βότρυς) وهو حمل اسم الزهرة .

١٠ — ص ٢١٢ س ٢ : باسم شيقلر — صوابه : شيقلو (وباسمه سميت مقالة) .

١١ – ص ٢١٣ تعليق ٢ : لا معنى له ، وأراه منقولا من موضع .

١٢ – ص ٢١٤ س ٨ : أرلون وبل الفيلسوف – صوابه : فرفوريوس (الصوري : الفيلسوف الأفلاطوني المعاصر المشهور : صاحب الأرغن) .

١٣ – ص ٢١٧ : كان فيها جنس من المسرخ بين واحدة في وسط جباههم يسمّون هنلوفس – وصوابه : قلوفس : أي Les Cyclopes وهم في ميثولوجيا اليونانية : جنس من المسرخ العالة : ليس لواحد منها غير عين واحدة في وسط الجبهة : وهم يسكنون في بركان (أتنا) صواعق زيوس ، أمر من هفايستوس (= فلكانوس) ، ومن هنا كان الكلام عنهم بمذاهب جزيرة صقلية التي فيها يوجد بركان أتنا في الشمال الشرقي منها .. وفيه كان يسكن فولكانوس والقلوفس .

ونكتفي بهذه الشواهد دليلاً على أن العين في حاجة إلى تحقيق علمي يراعي ترتيب الأصل ، ويقوم بعمل مزيد من العناية ، لأن مكتبة البكري في سخرايا تطلب أن تتوافر لتحقيق كتبه أدوات النقد التاريخي السليم .

* * *

Muhammad and the Conquests of Islam, by Montgomery Watt. World Universities Library. Weidenfeld and Nicolson, London, 1968; 240 pp.

ظهرت الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب قبل الأصل الإنجليزي ، لأن المقصد به أن يكون في مجموعة « مكتبة الجامعة العالمية » أولاً .

والمؤلف ، الأستاذ مونتجمري وات ، أستاذ الدراسات العربية في معهد الدراسات الإسلامية بجامعة أدنبرة : قد سبق له أن كتب كتاباً صغيراً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكنه في الكتاب الذي نتحدث عنه الآن مخصوصاً بغزوات النبي ثم بفتوحات الإسلام . وقد كبره على القصص الدينية :

١ ـ عمق في التاريخ .
٢ ـ الجزيرة العربية قبل النبي .
٣ ـ عمق في مكة .
٤ ـ الانتماء إلى المدينة .
٥ ـ الإسلام والدولة العربية الإسلامية .
٦ ـ تكوين الإمبراطورية الإسلامية .
٧ ـ الفتوحات في الشرق : في العراق وفارس .
٨ ـ الفتوحات في الشمال : في الشام وما بين النهرين وآسيا .
٩ ـ الفتوحات في الغرب : مصر وشمال إفريقية .
١٠ ـ الإسلام في أوروبا : في إسبانيا وفرنسا وبريطانيا .
١١ ـ الصمود في الشرق .
١٢ ـ انجازات الإسلام العربي .

وقد استعرض في الفصل الأول فكرة أوروبا عن النبي العربي منذ عهد دانتي ، ثم بدء الدراسات العلمية عن سيرة الرسول في القرن الماضي : « تاريخ القرآن » لنولدكه (١٨٦٠) ثم ترجمة « سيرة ابن هشام » (١٨٦٠) التي قام بها فيل ، و « سيرة محمد وتعاليمه » تأليف اشبرنجر (١٨٦١ ـ ١٨٦٥) : وتعد أول سيرة علمية كتبت في أوروبا عن النبي : وقد اعتمد فيها المؤلف على الأصول العربية : وعرض الإسلام في وضعه التاريخي . وجاء بعد ذلك عدد جريء تكلم عن النبي بعنوان « محمد » (١٨٩٢ ـ ١٨٩٨) : ونظر إلى رسالة الإسلام على أنها في جوهرها رسالة اجتماعية . وبعد ذلك بعشرين عاماً جاء كتاب في كتابه المشهور « حوليات الإسلام » ، ودرست في التاريخ الشرقي ،

(١٩١٤) فجعل رسالة الإسلام دينه في المقام الأول . ويعرج على كتاب « محمد » لتور أندريه ، والمؤلف هو الذي ترجم إلى الإيطالية ، وأدخل إلى كتاب بون (١٩٠٣ ، الترجمة الألمانية ١٩٣٠) وهو سيرة واسعة مفصلة . وآخر هذه الدراسات كتاب : « محمد » لجوفروا دي مونمين (١٩٥٧) وكتب مونتجمري وات الثلاثة : « محمد في مكة » ، « محمد في المدينة » ، « محمد : نبياً وزعيماً سياسياً » ، وقد ظهرت بين سنة ١٩٥٠ و ١٩٦٠ .

ورغم أن هذه الصور يصاحب بعضها مزيد من الفهم لصحيح رسالة النبي العربي الكريم ، وطرح للأكاذيب والأوهام التي عشش عليها أوروبة في نظرتها إلى الإسلام وعلمه مع استثناء ما كتبه لامانس : فإننا لا نكاد نجد في عداد الأعمال العلمية ، بل « دراساته » كلها ، إلا ما أشبع أنواع التعصب وجهل وتزييف المعروف التاريخية ، سواء أفهم ذلك المستشرق أم لم يفهم) .

وكتاب الأستاذ جويتي كتاب يعد به القارئ العادي الأوروبي ، لا المتخصص . ويمكن الاستفادة من نتائج بحوث هؤلاء الباحثين ، وإبداء ملاحظات وجيهة وآراء نوعية في بعض المسائل التاريخية .

لكننا نلاحظ مع ذلك أن بعض آرائه في حاجة إلى مزيد من الموضوعية والتقدير العلمي الصحيح للظروف التي أملت بعض القرارات ، خصوصاً ما قاله في الصفحات ٧٠ ، ٧٣ . وقد رأى عند المسألة نفسها الأستاذ جويد الله في كتابه Prophète de l'Islam ج ١ ، ص ٣٦٤ ـ ٣٨٧ ، وأبرز الظروف والأسباب التي أدت إلى اتخاذ هذه القرارات ومبرراتها التي يقرّ بها كل عقل بمجرد الانصاف لتزيه دينه .

والكتاب حافل بالصور الرائعة المأخوذة عن روائع الفن الإسلامي

plus (L. le Coutume de l'Exode par Louis Gardet, 2e. ppn. Paris, 1967. 288 pp. Grand in 8.

هذا هو الكتاب الأول من مجموعة كان قد أعلن عنه المؤلف هو وزميله الأب جورج شحاته قنواتي في كتابهما : المدخل إلى أصول الدين في الإسلام» التي ظهر سنة ١٩٤٨ .

وفي هذه المجموعة يقصد المؤلفان إلى عرض المسائل الكبرى في أصول الدين في الإسلام ، مع مقارنتها بنظائرها في المسيحية اتجاه مزيد الإيضاح ، ومتضمن درسين :

١ — الأول ويكتبها الأب قنواتي وتتناول : الله : وجوده وصفاته .

٢ — والثاني وموضوعها : الله ومصير الإنسان .

وهذه الأخيرة هي التي ظهرت أولاً في الكتاب الذي نحدث عنه الآن . وقد قسمه الأستاذ لويس جاردية ، المعروف بأعماله العديدة في ميدان الدراسات الفلسفية لعربية الإسلامية و «المكتبة الإسلامية» ، (١٩٦١) في ٤١٨ ص : « التصوف الإسلامي : أوجهه واتجاهاته ، تجاربه ومذاهبه » : ١٩٦١ : في ٢١٢ ص ، « آراء ابن سينا الدينية » ، (١٩٥١) في ٢٣٨ ص ، الخ ...) إلى خمس مقالات (خلال حد تعبيره) أو أبواب هي :

١ — أفعال الله (الحرية الإنسانية والقدرة الإلهية) .

٢ — النبوة (كتاب النبوة) .

٣ — البعث والآخرة (كتاب المعاد ، الوعد والوعيد) .

٤ — الأسماء والأحكام (مشكلة الإيمان والعمل) .

٥ — الإمامة والأمر بالمعروف .

والحق بذلك كتاب الباحث بـ : الاصطلاحات الفنية (عربي – فارسي) ، الاعلام ، لآيات القرآنية المذكورة : الكتب والمقالات المشار اليها .

والباب الأول يتناول الصلة بين الله والعبد ، وسرّ العلاقة بين المطلق أو الواجب وبين الممكن (الانسان) ، وسرّ الفعل الإنساني الحر في مواجهة قضاء الله وقدره ، وسرّ العناية الإلهية ووجود الشرّ في العالم . والبحث هنا أدخل في « العقليات » .

والثاني يتناول النبوة بوجه عام والأنبياء ، وبصفة نبي محمد صلى الله عليه وسلم . والبحث هنا في موازنة بين « العقليات » و « السمعيات » .

والثالث يتناول أمور الآخرة والمعاد ، ومسائل في الأخلاق النبيلة مثل التوبة .

والرابع في الأسماء والأحكام ، أي في الصلة بين الإيمان والعمل ، وهل الإيمان هو التصديق القلبي أو يضاف اليه أيضاً الفعل العملي . وهذا الباب لدخل في الأخلاق النبيلة .

والخامس والأخير هو في موضوع الإمامة ، أي السياسة الشرعية ، والمسائل التي يثيرها ترجع إلى عهد الرسول ، وبخاصة توجهها بعد معركة صفين (٣٧ هـ) ، وتهم جماع المؤمنين وعقد خصوصاً لشعب الفرق الإسلامية ، خصوصاً الشيعة والخوارج .

ولقد يبدو من هذا التبويب أنه يسير تبويب كتب التوحيد التقليدية في الإسلام ، وخصوصاً كتب المتأخرين – والمؤلف يعتمد كثيراً عليها ، خصوصاً شروح « جوهرة التوحيد » وعلى رأسها شرح أو حاشية ابراهيم البيجوري المعروفة لطلاب المعاهد الدينية . ولكنه في خلال العرض يرجع إلى الكتب الرئيسية في علم الكلام ، وقد استفاد خصوصاً مما نشر في السنوات الأخيرة من كتب المعتزلة ، خصوصاً كتب القاضي عبد الجبار ؛

« الغني » و « شرح الأصول الخمسة » ، وهي الكتب التي عبرت كثيرا في عرض مسائل علم الكلام وزادته علماً كثيراً بمذهب المعتزلة في كل أمور التوحيد .

بيد أنه نظراً لأن الأساس في دراسة الأستاذ حاردينه هو المقارنة مع مذاهب اللاهوت المسيحي ، فإن العرض يتقطع باستمرار بسبب هذه المقارنات التي قد يطيل فيها المؤلف أحياناً أكثر مما ينبغي (راجع مثلا ص ١٠٣ — ١٠٧ في الكلام عن فكرة المسيحية في الفضل الإلهي grace) وكان الأولى بالمؤلف أن يوجز فيها قدر الإمكان ، إذ أن ذلك يجعل بعض الكتاب يتبع المقارنة أكثر من طابع العرض ، خصوصاً وأن هذه المقارنة لا توضح الأصل (وهو الرأي الإسلامي) ، بل ربما تزيد في غموضه .

كما كنا نود أيضاً أن يختار مترجم المصطلحات الفنية (عربي — فرنسي) من أخطاء الضبط فإنها عديدة .

على أن هذا الكتاب — في صدوره الذي قصدها المؤلف — جدير بكل تقدير ، فهو يعتبر بمثابة الاصلاح ، وحسن الفهم للمذاهب ، والشمول في العرض .

لكن المكتبة الأوروبية لا تزال بحاجة إلى عرض موضوعي علمي لأصول الدين في الإسلام .

* * *

An introduction to Islamic cosmological doctrines: Conceptions of nature and methods used for its study by the Ikhwan al-Safa', al-Biruni, and Ibn Sina. By Seyyed Hossein Nasr. The Belknap Press of Harvard University Press. Cambridge, Massachusetts. 1964. XXII+318 pages.

موضوع هذا الكتاب هو دراسة الطبيعة عند اخوان الصفا والبيروني وابن سينا ، وقد انقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة . وهو عبارة عن ثلاث

مقدمة ومتمماً لرسالة الدكتوراه التي قدمها المؤلف إلى جامعة هارفرد بأمريكا سنة ١٩٥٨ .

ويهدف المؤلف إلى دراسة العلوم الطبيعية عند المسلمين على ضوء الدين الإسلامي الذي صاغت منه ، على أساس أن هذه العلوم في الإسلام كانت على ارتباط وثيق بالأفكار الدينية والدنيوية والفلسفية التي سيطرت على الحضارة الإسلامية ، ذلك أن الدراسة الأساسية لعلوم الكون في حضارة ما يجب أن تحسب حساباً ليست فقط لاستمراره من أفكار ووقائع من حضارات سابقة ، بل وأيضاً لذلك الارتباط الوثيق بين الوحي وبين الرموز المستخدمة لدراسة الطبيعة (ص ٣) .

وقد اختار المؤلف : إخوان الصفا ، والبيروني ، وابن سينا ، لأنهم في نظره ، يمثلون خير تمثيل كل الاتجاهات الهامة التي اختلفت في العلوم الكونية في الإسلام (ص ٢٧٥) . فإخوان الصفا يمثلون النظرة الشيعية خصوصاً الإسماعيلية منها . وهم يرون أن دراسة الطبيعة جزء من برنامج أعم لدراسة الإنسانية ، وهم يربطون نظرتهم في الكون وبين الأصل الإلهي للكون . ويرون أن دراسة الكون وأجزاءه خطوة مفيدة وضرورية لمعرفة الحقائق الإلهية .

أما البيروني فيمثل وجهة نظر العالم والباحث والمفكر . ونظرته إلى الطبيعة نظرة المسلم الصادق الإيمان ، الذي يرى العالم من صنع الله ، ويرى من الواجب الدين ملاحظة الطبيعة ودراستها . وعنده تمتزج بعض الأفكار الشعبية ، خصوصاً فكرة الرمز ، مع الأفكار اليونانية ، وكل هذا على ضوء موقف إسلامي تجاه الطبيعة يوصف المجال لتحليل فكرة الله .

ويقسم المؤلف فلسفة ابن سينا إلى قسمين : ظاهرة أو رسمية ، ومستورة أو إشراقية ، وفي الأولى يتجلى مشائياً عالماً متأثراً بأرسطو

وشراح الإسكندرانيين والأفلاطونية المحدثة ، والتوحيد الإسلامي . وفي النهاية يرى ابن سينا أن المعرفة فعالة ، وأنها عملية يتحول بواسطتها العارف . وعنده في هذه المرحلة أن معرفة الكون تتم بواسطة السفر في الكون : حيث أن معرفة الظواهر الطبيعية تتحول إلى تجارب معرفة اشراقية ، فتصبح الطبيعة في هذه الفترة بمثابة الأساس للسفر العرفاني ، ومعرفة الطبيعة هي الطريق المؤدي إلى الحياة الروحية .

والكتاب بالتصاره على هذه المذاهب الثلاثة يخرج بنا من مجال البحث عن فكرة الطبيعة عند سائر المفكرين المسلمين ، خصوصاً ابن باجة الرازي الذي كان يستحق أن يكون مركز الصدارة في مثل هذه الدراسة لأن أفكاره أكثر أصالة من هؤلاء الثلاثة .

* * *

Charles Hodges. El filosofo deificado. Ensayo sobre Avicena. Bologna, Il mulino, 1961. 125 pp.

هذه دراسة مستفيضة لجوانب خاصة من فلسفة جيجر تتناول خصوصاً الأمور المتعلقة بالحضارة وموقف الإنسان في الكون في فلسفة جيجر .

لقد درست فصوله على :

١ — هاوية التناهي في الوجود .

٢ — تجاوز الشكل .

٣ — تجلي الوجود .

٤ — الإنسان والعدم .

* — حجز الفكر .

ومن هنا هدف الكتاب إلى استجلاء مصير الحضارة الغربية من خلال تحليلات هيدجر ، لأنه رجع في قوة فكره ورحابة المشاكل التي درسها ما يمكن من ذلك .

وقد سرد المؤلف ثبتاً شبه كامل بمؤلفات هيدجر وأعماله وحصره بـ ١٠٢ ، وأضاف إليه ثبتاً كاملاً بالدروس والمحاضرات التي قام بها هيدجر في الجامعة في السنوات من ١٩١٥ حتى ١٩٤٩ ، ثم من ١٩٥٠ حتى ١٩٥٧ : فجاء ثبت المصادر هذا وفي ما نعرف من إثبات لحصر انتاج هيدجر . كذلك ناقش بعض الكتب الرئيسة التي تناولت مذهب هيدجر : لخص بالتحليل وانتقد ستة منها ، هي :

— K. Lowith, Heidegger. Denker in dürftiger Zeit, 2. Aufl. Göttingen, 1960, 115 pp.

— J. Wippler, Wahrheit und Geschichtlichkeit. Eine Untersuchung über die Frage nach dem Wesen der Wahrheit in Denken Martin Heideggers. Meisenh. 1961, 358 pp.

— W. Marx, Heidegger und die Tradition. Eine problemgeschichtliche Einführung in die Grundfragen des Seins. Stuttgart, 1961, 287 pp.

— G. Schüler, The Idealism of Heidegger. Phil Quart. 1962, 312 pp.

— O. Pöggeler, Der Denkweg Martin Heideggers, Pfullingen, 1963, 318 pp.

O. Vuarnet, Dieu mort a Fribourg ou Heidegger, Paris, 1966.

وكنا قد علق على بعض الأحكام البالغ بفلسفة هيدجر في السنوات الأخيرة وقد جاء كتاب كولومر هذا فأوفى عليها جميعاً في غزارة المادة وعمق التحليل وجدة النظرة التي نظر بها إلى فلسفة مؤسس الوجودية . ولا يفي أي تلخيص عن بيان هذا البحث الممتاز

أخبار جامعية

— ١ —

المؤتمر الأول لكلية الآداب والتربية

المؤتمر التاريخي : « ليبيا عبر العصور »

عقدت كلية الآداب والتربية في الفترة من ١٦ إلى ٢٣ مارس سنة ١٩٦٨ مؤتمرها الأول ، وهو المؤتمر التاريخي : « ليبيا عبر العصور » .

وقد نشأت فكرة المؤتمر لدى المسؤولين في كلية الآداب باعتبارها مركز الدراسات التاريخية والمكان الأول الذي يهتم بالبحث في تاريخ البلاد . وكانت الأسباب التي دعت الكلية إلى إقامة المؤتمر عديدة وكثيرة ، فقد عاشت الشعوب أحقاباً طوالاً على أرض ليبيا وتركت تاريخاً عريقاً لا تزال آثاره في كل مكان تشهد على روعته . هذا إلى أن ليبيا ، بموقعها الفريد في قارة أفريقية بل شرقها وغربها وبامتداد سواحلها الطويلة على البحر المتوسط ، وبامتداد أرضها في داخل أفريقية ، كانت ولا تزال محط عنايتها وبالتالي بل جزء منها — قد لعبت أدواراً هامة على مدى تاريخها الطويل .

وعلى ذلك فإن عقد مؤتمر تاريخي يتناول فيه باحثون متخصصون لوقوفوا على دراسة فترات التاريخ الليبي المختلفة ، يقدمون أحدث ما وصلوا اليه من نتائج : لاشك يلقي أضواء كاشفة حل الكثير من جوانب هذا التاريخ ، وقد نجحت الكلية في اشراك كثير من العلماء والباحثين وجاءت النتائج خدمة لأهداف المؤتمر إلى حد بعيد .

ومنتظر البحوث في مجلدين ليكونا من المراجع الهامة في تاريخ ليبيا .

وفيما يلي بيان ببرنامج المؤتمر وما ألقي فيه من أبحاث وما قدم له من دراسات مكتوبة :

السبت ١٦ مارس ١٩٦٨ :

حفل الافتتاح

- خطاب الأستاذ مصطفى عبد الله بعيو — وزير التربية والتعليم .
- خطاب الأستاذ عبد الرحمن شلحاد — مدير جامعة ليبية
- خطاب الدكتور عثمان مصطفى بيرو — عميد الكلية .
- كلمة الدكتور فوزي فهمي جاد الله — سكرتير المؤتمر .

الدورة الأولى :

الأستاذ الدكتور س. ه. هاكيرني — أستاذ ما قبل التاريخ بجامعة كمبردج .

« ليبيا في قبل التاريخ »

أبحاث مكتوبة :

١ ـ الأستاذ ب. موريتي ـ روما
«العصور الصخرية لما قبل التاريخ في فزان»

٢ ـ الأستاذ هنه باور ـ لمصلحة الآثار ـ طرابلس
«عصور ما قبل التاريخ في ليبيا
وعلاقتها بأصول الحضارات الشابهة»

الجلسة الثانية :

١ ـ الدكتور فوزي فهيم جاد الله ـ الجامعة الليبية
«مساهمة في مصادر التاريخ الليبي قبل هيرودوت»

٢ ـ الأستاذ حسن مصطفى بازامه ـ وزارة التربية والتعليم
«تأثير الليبيين في حضارتي المصرية واليونانية وتأثرهم بهما»

الأحد ١٧ مارس ١٩٦٨

الجلسة الثالثة :

١ ـ الأستاذ الدكتور ف. شامو ـ أستاذ الأدب اليوناني بجامعة
بريس (السربون)
«نقش بوليبيوس»

٢ ـ الأستاذ الدكتور ابراهيم نصحي ـ رئيس قسم التاريخ بالجامعة
الليبية
«ركسلاوس الثالث»

إعلانات مكتوبة :

الأستاذ ج. بوردمان – أمين متحف الأشموليان – جامعة أكسفورد
« تأملات في تجارة المختار مع تركيزه »

الدورة الرابعة :

١ – الدكتور ج. ب. وارد بيركنز – مدير معهد الآثار البريطاني في روما
« عناصر مبكرة للعمارة الرومانية في طرابلس »

٢ – الدكتور مصطفى عبد العليم – جامعة عين شمس القاهرة
« ليبيون والرومان في الرأي العام »

٣ – الأستاذ جون المدارية – مراقب الآثار برقة
« الاستطلاع الأثري في برقة مع عناية إلى المختار
التي اكتشف فيها »

الاثنين ١٨ مارس ١٩٦٨

الجلسة الختامية :

١ – فينتي لوبز رودجرز – جامعة كمبردج
« الاتفاق في القرنين الأول والثاني على شمال الصحراء بطرابلس »

٢ – الأستاذ س. رومانلي – الأكاديمية الأمريكية بروما
« مكانة ليبيا في آثار شمال أوربيا »

٣ ـ الأستاذة م. ف. اسكوارتشيبو ـ مصلحة الآثار ـ بروما
: تأملات في فن ليبية

أبحاث مكتوبة :

١ ـ أبو عوج الأستاذ ر. جودتشايلد ـ جامعة لندن
: طرق الرومان في ليبيا وملاحظاتها
٢ ـ الأستاذ أ. دي فيا ـ جامعة بيروجيا
أ ـ « لبدة طرابلسية »
ب ـ « أشرحة صبراتة »

الدورة العاشرة :

١ ـ الدكتورة ج. ريدولفز ـ أستاذة بجامعة كمبردج
: نقوش من برقة ـ تقرير تفصيلي
٢ ـ الأستاذ س. ستوكي ـ جامعة روما
: تاريخ العمارة في برقة في العصر الأغريقي

أبحاث مكتوبة :

١ ـ السيد ر. فايده ـ مصلحة الآثار ـ طرابلس
: ليبيا في العصر الحجري
٢ ـ السيد م. أبو حاجر ـ مصلحة الآثار ـ طرابلس
: المسيحيون في ليبيا

الثلاثاء ١٩ مارس ١٩٦٨

الدورة العامة :

١ ـ الاستاذ ل. توميسون ـ رئيس قسم الدراسات القديمة بجامعة لندن بنيجيريا

« يونان ورومان في شمال افريقيا في أوائل عصر الامبراطورية الرومانية »

٢ ـ الاستاذ د. ب. كيرواد : مدير معهد الآثار لشرق افريقيا ومدير الجمعية الجغرافية الملكية بلندن

« ابحاث رومانية في أعالي النيل وقيام نشاط تجاري »

٣ ـ الاستاذ س. م. دانيلس ـ جامعة نيوكاسل

« جرامنت فزان »

أبحاث مكتوبة :

١ ـ الاستاذ ر. كرازيوزي ـ المعهد الايطالي بطرابلس

« الرسوم الصخرية بفزان »

٢ ـ الاستاذ م. س. أيوب ـ مراقب آثار فزان

« جرمة في عصر ازدهارها : ١٠٠ ـ ٤٥٠ م »

٣ ـ الاستاذ م. س. أيوب

« حصن كورنيليوس بالبويرة »

الدورة العامة :

١ ـ الاستاذ أ. م. م. جوزر ـ جامعة كمبردج

« الدفاع عن الحدود في ليبيا البيزنطية »

٢ ـ الدكتور د. ج. سميث ـ جامعة نيوكاسل

« الكتابات في مرابطس وسرابيتها »

الاربعاء ٢٠ مارس ١٩٦٨

١ ـ الاستاذ الدكتور نقولا زيادة ـ الجامعة الاميركية ـ بيروت

« ليبيا بين الحسن الوزاني وليون الافريقي »

٢ ـ الدكتور عباس صلادي ـ الجامعة الاسبانية بالقاهرة

« ليبيا في العصر الفاطمي »

٣ ـ الدكتور ب. فيلا ـ رئيس قسم التاريخ بالجامعة الملكية بمالطا

« علاقة طرابلس مالطة بطرابلس »

ابحاث مكتوبة :

الاستاذ عوض المعداوية ـ مراقب الآثار في برقة

« رحلة ليبية كما ذكرها الحاج أبو سالم العياشي في رحلته »

الدورة العاشرة :

١ – الاستاذ مصطفى عبدالله بدير – وزير التربية والتعليم

« بعض ملامح تاريخ ليبيا في القرن التاسع عشر »

٢ – الاستاذ عمر بن ابراهيم – قسم التاريخ بجامعة ليبيا

« ظروف التي أدت إلى احتلال علي الجزائري لمدينة

طرابلس الغرب – ١٧٩٣ – ١٧٩٥ »

الخميس ٢١ مارس ١٩٦٨

الدورة الحادية عشرة :

١ – لمير بنكان كمبردج – لندن

« الدبلوماسية في الحرب العظمى الأولى »

أبحاث مذكورة :

الدكتور ج. ز. لايم – جامعة عين شمس : القاهرة

« موقف مصر من الحروب الليبية الايطالية »

دورة خاصة :

الجمعة والسبت ٢٢ و ٢٣ مارس ١٩٦٨

رحلة علمية لأعضاء المؤتمر إلى المناطق الأثرية في شمال الأقطار

مشروع التعاون العلمي المشترك
بين جامعة الليبية وجامعة لندن

اتفق قسم الجغرافيا بكلية الآداب بالجامعة الليبية وقسم الاقتصاد بكلية لندن للدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن على القيام ببحث علمي مشترك يتناول دراسة حقلية للتطورات الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية في المملكة الليبية ، وفيما يلي اهم الخطوط الرئيسية لهذا المشروع :

أ) دراسة تحليلية لتطورات في ليبيا من النواحي الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والانثروبولوجية وخاصة التطورات التي نجمت عن اكتشاف البترول .

ب) ان هذه الدراسة الحقلية تستغرق ثلاث سنوات زراعية وقد بدأت هذه الدراسة من أول فبراير سنة ١٩٦٧ ، وسيكون سبتمبر سنة ١٩٧٠ هو نهاية هذه الدراسة الحقلية . وسيبدأ في أول أكتوبر الجامعة ١٩٦٩ : وضع التقرير النهائي ، بينما تحلل البيانات الاحصائية أولا بأول بواسطة العقل الالكتروني في جامعة لندن .

جـ) تشمل هذه الدراسة :

١) استغلال الأراضي في كل من المحافظات الشرقية والغربية والجنوبية — برقة وطرابلس الغرب وفزان — مع دراسة تحليلية لمناطق معينة كنماذج لمزارع الدراسة :

- مزارع الأنقي والأحواض المحاذية .
- المزارع التي أنشأتها المؤسسة الوطنية للاستيطان الزراعي .
- المزارع الخاصة الصغيرة .
- المزارع الجماعية الكبيرة .

٢) جميع البيانات الخاصة بالمزارع .

وستكون هذه المواضيع مرتبطة بدراسة مستقبل الاراضي والغرض من توفير البيانات الخاصة بالمواضيع التالية :

أ) ميزانية الزوجة .

ب) ميزانية العائلة .

ج) حالات الحجرة وظروف الملكية .

د) حالات وظروف ملكية الأراضي .

هـ) مشاكل الزوجين الاجتماعية والاقتصادية في اطار البيت الريفي الحالي .

و) دراسات حقلية أخرى : هذه تشمل دراسة مواسم الهجرات الاقتصادية والاجتماعية الغير مذكورة بالقطاع الزراعي ، وكذلك دراسة حجرة الريف إلى المدن ومراضيع جيوغرافية وصناعية وما يتضح له ذو أهمية للمشروع بصفة عامة .

هذا وتقوم بالدراسة لرقى خاصة تابعة للمشروع ، كل حسب اختصاصه ، في المناطق التالية :

أ) الجبل الأخضر والمناطق المجاورة له مباشرة .

ب) سهل مدنين وجنوب مرتفعاته .

ج) منطقة الخمس مصراته .

د) جبل نفوسة (من جبال بن الجدود الغربية) .

هـ) جفارة الغربية (طرابلس ـ زوارة) .

و) جفارة الشرقية (طرابلس ـ قصر خيار)

ز) واحة غدامس .

وقد يعمل الفريق برئاسة أعضاء هيئة التدريس بقسم الجغرافيا بكلية وأعضاء قسم الاقتصاد بكلية الدراسات التجارية والاقتصادية بجامعة ليبيا ، ويرأس الفريق العاملة في ليبيا الأستاذ الدكتور مختار مصطفى بوزد عميد كلية الآداب والتربية بالجامعة الليبية ، كما يشرف على الجانب الأكاديمي في المشاريع الاقتصادية الأستاذة أديث — بيرون .

وتمول الجامعة الليبية بعض تكاليف المشروع ويمول بالنصف الباقي كل من جامعة لندن وشركة البترول البريطانية .

نبذة عن المشروع المشترك
لدراسة الفاقد في التعليم

توجه وزارة التربية والتعليم في ليبيا كما تواجه نظيراتها في بلاد أخرى وعامة النامية منها مشاكل تعليمية كبرى تحدث في الأصل عن تعقيدها الشديد لتربع الدول النامية في مضمار التعليم والثقافة والتعويض عما فاتها قبل أن تحصل على استقلالها . ومشكلة الفاقد في التعليم من المشكلات الأساسية في هذه الناحية ، ونقصد بالفاقد في التعليم ما يعني هدراً من جهود مادية وفكرية لا تعود دائماً بالعوائد المنتظر منها بالشكل الذي يتناسب مع الجهود المادية والفكرية المبذولة لتحقيقه .

وقد انتبهت كل من وزارة التربية والتعليم والجامعة الليبية إلى هذه الظاهرة فحسمت حل دراستها دراسة علمية منظمة ، وقد أصدر السيد وزير التربية والتعليم قراراً بتاريخ ٢١ / ٢ / ١٩٦٨ بتشكيل لجنة مشتركة تضم أعضاء من الوزارة ومن كلية الآداب برئاسة الدكتور مختار مصطفى بوزد عميد كلية الآداب تقوم بدراسة تفصيلية حقلية عن الظاهرة وما ينتج عنها . وقد عقدت اللجنة عدة اجتماعات وقامت بزيارات تمهيدية

بعض المدارس الابتدائية في محافظتي بنغازي وطرابلس ، وسوف تواصل اللجنة جهودها في بداية العام الدراسي القادم ، وعند انتهاء عملها تقدم للوزارة والجامعة تقريرا شاملا عن دراستها . ولا شك في أن الوزارة ستولي التقرير العناية ما يستحقه من المتابعة والتقدير .

برنامج المحاضرات العامة
في كلية الآداب بالجامعة الليبية
في العام الدراسي ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨

د. عبد الرحمن بدوي : « تأملات في الحضارة العربية » .

د. نوري جعفر : « الفكر : خلقه وآفاق تطوره الاجتماعي » .

د. محمد مصطفى حلمي : « حياة الروح الإسلامية : تأملات وتأريخ وعقيدة » .

د. أحمد علي المريدي : « دلالة أرقام » .

د. جلال الحريدي : « الكتاب والشعر » .

مستر جون ريمر : « دور أسهم به الأجانب في الدراسات العربية والعامة الانجليزية » .

محاضرون : أدباء

ـ الشيخ الفاضل بن عاشور ، مفتي الديار التونسية وعضو مجمع اللغة العربية والعلوم الدينية في تونس : « التوضيح لدين في تاريخ الأديان » .

- أمين بيتكوش : عميد كلية الآداب وأستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة أنقرة : «وضع الأناضول سياسياً ، واجتماعياً ، وادارياً في القرون الأولى» .
- عثمان عارف كوجاوغلي : أستاذ تاريخ الفنون الإسلامية بجامعة أنقرة : «مآذن السلاجقة ـ كاراوان سراي ـ في الأناضول» .
- د. عبد العزيز الدوري : «التخطيط الحضري والتنمية الاقتصادية» .

ملخص

بحث تحليلات التربة وعلاقتها بالاستغلال الزراعي في سهل المرج

الدكتور مختار مصطفى بدران

يقع سهل المرج في الجزء الغربي من الجبل الأخضر ما بين الطبقة الأرزل والحقة الثانية وهي الطبقة المعروفة باسم المسطة العليا . وسهل المرج حوض مغلق تكون نتيجة الحركة التكتونية ، وتغطي هذا الحوض طبقة سميكة من التربة الحمراء (اميرا روسا) ، ويأخذ سهل المرج شكلا شبه بيضاوي يمتد في اتجاه جنوب غرب شمال شرق ، وهو يبلغ طول ٢٤ كم وعرضه ١٢ كم ، وأقل جهاته انخفاضا تقع على ٢٧٠ م فوق مستوى سطح البحر . وهي التي تحتلها البحيرة (المرج) لوقت ما . تقع شمال شرق مدينة المرج القديمة — وتبحث مقالة من جيولوجية سهل المرج وسماكة التربة ، وذلك لأهمية هذين العاملين في تكوين التربة الحمراء والتي تتميز بخصائص وصفات تجعلها من أجود الترب الصالحة للزراعة في منطقة الجبل الأخضر وشمال افريقية عامة .

ويعتبر سهل المرج أول المناطق الزراعية من حيث إتاحة التسهيلات والمكانية الوسيعة في المحاصيل المتجددة ، وتبلغ مساحة الأراضي الزراعية في هذا السهل حوالي ٢٥٠٠٠ هكتار ، وقد بدأ الايطاليون في استغلال

هذا لسهل زراعياً بزراعة القمح وادخال المحاصيل الشجرية . وبعد خروج الايطاليين من ليبيا تحت الادارة البريطانية ١٩٤٢ — ١٩٥١ بالعمل في مشروع لزيادة انتاج القمح في سهل الجفارة حتى تصبح ليبيا مكتفية ذاتياً في انتاج الحبوب الغذائية خاصة أثناء الحرب العالمية الثانية . وتقوم الحكومة الليبية حالياً عن طريق المؤسسة الوطنية للاستصلاح الزراعي بتنمية مشروع الاغا لسابقة في سهل الجفارة كجزء من خطتها التي يغطي معظم الأراضي الزراعية في ليبيا .

تم بالفعل البحث دراسة تفصيلية لعدد عشر قطاعاً في التربة حيث أخذ كل قطاع من عمقين ، الأول من السطح والثاني من عمق ٥٠ سم ، وقد أخذت بعض القطاعات من خارج السهل وذلك لغرض المقارنة .

وقد حللت العينات التي أخذت من الحقل في معامل شعبة الحدائق بمركز البحوث الزراعية بالجيزة ، وروعي مع هذا البحث نتائج التحليلات الفيزيائية والميكانيكية . كما هو وارد بجدول عن توزيع العينات في السهل وخواصه وشبيهه التكوين الجيولوجي ، ثم جدول آخر لتحليل عينات التربة .

وهذه الدراسة هي بداية لدراسة التربة في ليبيا ، حيث أن هذا العمل لا يزال في مرحلته الأولى في ليبيا .

وقد اتضح من هذا البحث أن بعض العوامل التي تحد خصوبة التربة مثل العمق وانتشار الصخور لا تمثل مشكلة خطيرة في هذه المنطقة كما هو الحال في بعض بلاد الشرق الأوسط . فالتربة الحمراء هنا عميقة وتوفر امكانية تعمق جذور النبات إلى عمق متوسط ، ولكن المشكلة تنحصر في طريقة ادارة واستغلال التربة . أما فيما يتعلق بالصفات الطبيعية لهذه التربة مثل الرطوبة وتركيب التربة فهي في حاجة إلى استغلال منظم

دقيق ، بينما النقص في المواد العضوية والنيتروجين والفوسفات يمكن معالجته بتطبيق معدل الاستعمال .

وحيث أنه لا توجد عوائق بيدولوجية فان تربة سهل تارج بالاستعمال المقنن يمكن اعتبارها خصبة .

THE FORM and FUNCTION OF MISRATAH'S COMMERCIAL CENTRE

by Dr. Gerald H. Blake

Lecturer in Geography, University of Durham, England

Introduction

With the advent of impressive oil revenues since 1951 the Government of Libya has vastly embarked upon physical planning at national and regional levels. Among the many plans being prepared by overseas consultants at the present time are master-plans for the coastal oasis towns of Tripolitania, including El Khoms, Zliten and Misratah. (1) Of these Misratah constitutes a challenge of particular interest to the town planner as a result of its early evolution as an oasis market town through to the grandiose expansion of the Italian period. In its ground-plan Misratah illustrates many features of the larger cities of the Arab world which are so often the scene of different cultures, with a European-style town grafted awkwardly on to a traditional type of Arab town (Figure 1). This arrangement poses many problems for the rationalization of traffic flows and land use, and in the installation of piped water, electricity and sewerage. The research upon which this paper is based was carried out in 1961 at a time when it was already clear that Misratah was on the verge of great changes. The aim was to examine traditional town-country relationships before they become totally obscured, and

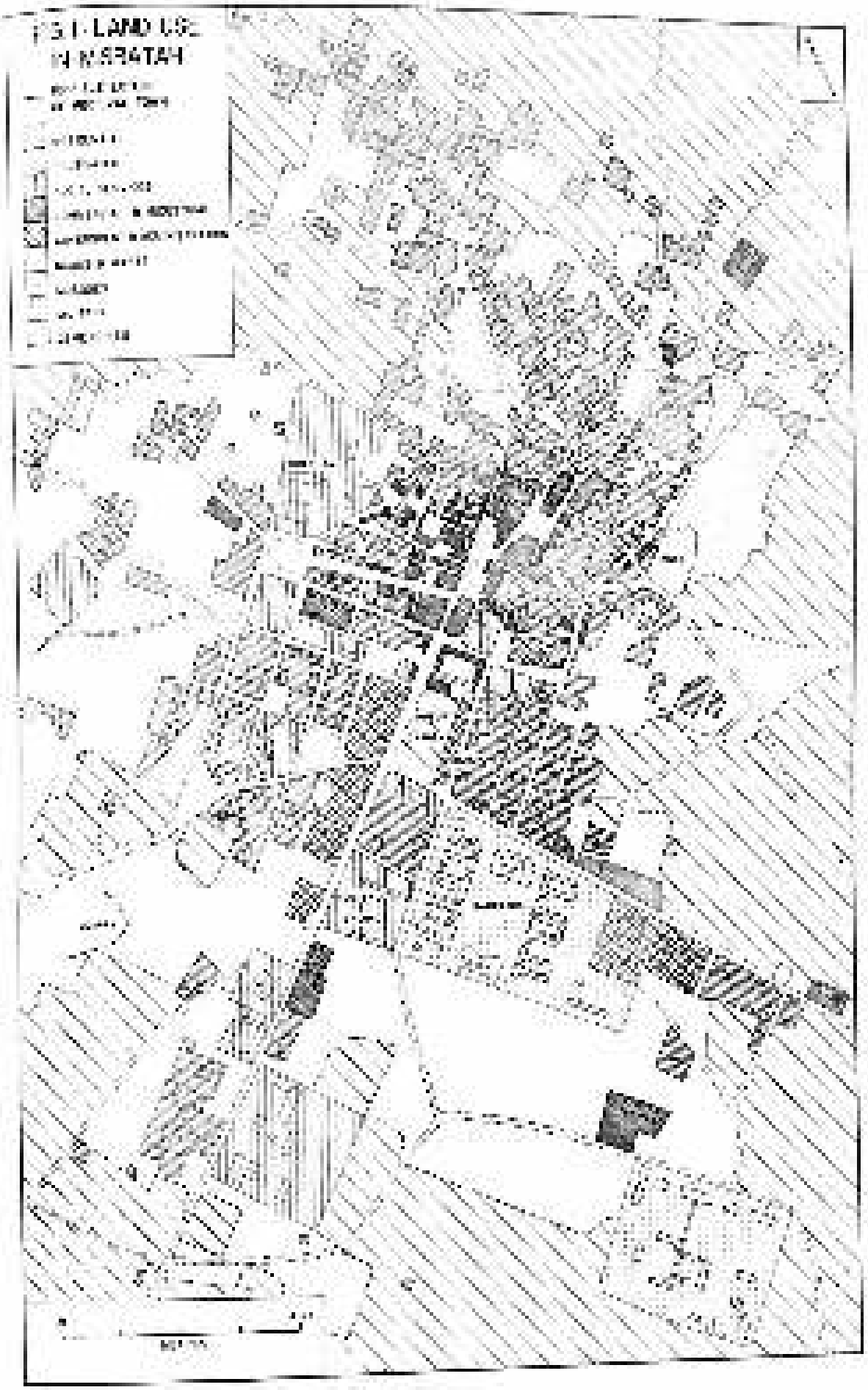
these functional relationships are clearly reflected in the form of the town's commercial heart.

At first sight the layout of Misrath has little to commend it. The street-pattern has clearly developed piecemeal and on the fringes of the town there is much waste land. Social facilities such as schools, post office and hospital are scattered inconveniently throughout the new town, but worst of all, there appears to be little to bind the old and the new towns together. It is hoped however that this paper will show that close examination of the central area of Misrath reveals much that is functionally sound, and a focus of interest in the shops and markets which give the town a sense of coherence and unity. When it is remembered that this central area has grown organically with no conscious planning it is remarkable how well it has been adapted to the needs of an oasis market. This is not to say that it will not require replanning in the future to fulfil its functions as a regional and route centre of growing importance.

The morphology of Misrath

To understand the layout of the centre of Misrath and its relationship to the rest of the town, reference must be made to how the town has grown and expanded.

The origins of Misrath are obscure and in any case not relevant to the theme of this paper. The important fact is that probably as early as the thirteenth century there was a very small town functioning as a local market and engaged in some form of inter-regional trade. The oldest mosque in the town (al Ali) dates from the late fourteenth century, by which time the population may have been four or five hundred. It is not possible to reconstruct the medieval town with any certainty, but an attempt has been made in Figure 2. Dwellings and market place would doubtless have been within research-cell of the mosque, and the market place may well have been on the fringe of the town as in many small towns and villages of Tripolitania today. It is quite likely that the site of the present livestock


G.I. LAND USE
IN NARATAH

market is the site of the old market place. A description of Mizratah in 1831 suggests that there was formerly an old market somewhere near this point, being "half occupied by a pool of green and stinking water" [2]. The occurrence of seasonal flooding in basin-shaped market places which have been created by the combined action of man, animals and wind is well known in North Africa and generally indicates centers of great antiquity. The medieval town was probably limited in the south-east by the present cemetery and pond, and between them by an area of stony ground whose slightly greater elevation would have discouraged well-building. The alignment of the present-day east-west through road suggests that it follows the line of the most ancient caravan route which would have turned south-west to avoid the dune formations which extend far inland west of Misratah (Figure 2). Finally, medieval Misratah may have had a small Jewish community since some very old tombstones with Hebrew inscriptions have been found near the town.[3] If this was so, the Jews would probably have inhabited much the same part of the town as was later to become a Jewish quarter.

If this reconstruction is substantially correct, it explains why later commercial activities have developed on the south and south western margins of the old town. The market place itself would have been a focal point, but it was also at the point where the east-west route and the route from the south, skirting the pond, would have met. It is certainly true that from the sixteenth century onwards Misratah's residential area expanded north and north-west rather than to the south and south-east (Figure 4). One reason for this could be the existence of a shallow "perched" water table underlying the older parts of the town which was not available in other directions.

From the middle ages onwards, Misratah was a trading centre of some importance, though its fortunes fluctuated with those of its main trading partners. Under its old name of Tubactis the town carried on flourishing trade with Venice, Genoa and several North African ports. Wool, olive oil and salt were exported via Gasr Ahmad in return for silk and general merchandise. The fifteenth and sixteenth centuries were a period of decline and

obscurity but in the seventeenth and eighteenth centuries there was a revival of trans-Saharan trade, particularly in slaves, and Misratah found itself highly favoured as a collecting centre since Turkish taxes could be more easily evaded than nearer Tripoli.(4) But these activities appear to have had little impact on the town-scape apart from an increase in private houses. If any enthusiasts' shops, stores or markets were built, they have not survived; possibly they were in Ykir or Gasr Ahmad rather than Misratah. Most of the commercial buildings in existence today appeared after the beginning of the nineteenth century.

The spate of building which occurred in the nineteenth century south and south-west of the town was the result of two factors. First, Misratah was becoming a market centre dependent upon wealth generated locally rather than upon transit trade largely as a result of the increasing sedentarisation of semi-nomadic tribes east of the town. Weekly marketing of vegetables and livestock was becoming more important than seasonal markets. Secondly, Misratah became the headquarters of a Mutasarrifiya in preference to Ks Khoms and efforts were made to attract economic as well as administrative influence to the town by building new shops and markets. This deliberate policy may have ensured the supremacy of Misratah over neighbouring Ykir. During the nineteenth century therefore several streets of shops and workshops appeared around Maidan Chandaliya, and a covered fruit and vegetable market was constructed. Building adjacent to Maidan Nasser occurred about a hundred years ago and included several small suks such as Suk As Zait and Suk Al Attaru. Later in the century large blocks of shops were built adjacent to what was to become the Italian town. By the turn of the century commercial activity was already highly concentrated around Maidan Nasser. A notable feature of these developments was the continued separation of residential and commercial functions with the latter at that time still concentrated in peripheral areas. Some houses of Turkish style did appear among the commercial buildings, but they were very few.

Effective Italian occupation was short-lived in Eastern Tripolitania, but in spite of this the Italian period (1923-1943) has

FIG. 2 MEDIEVAL MISRATAH

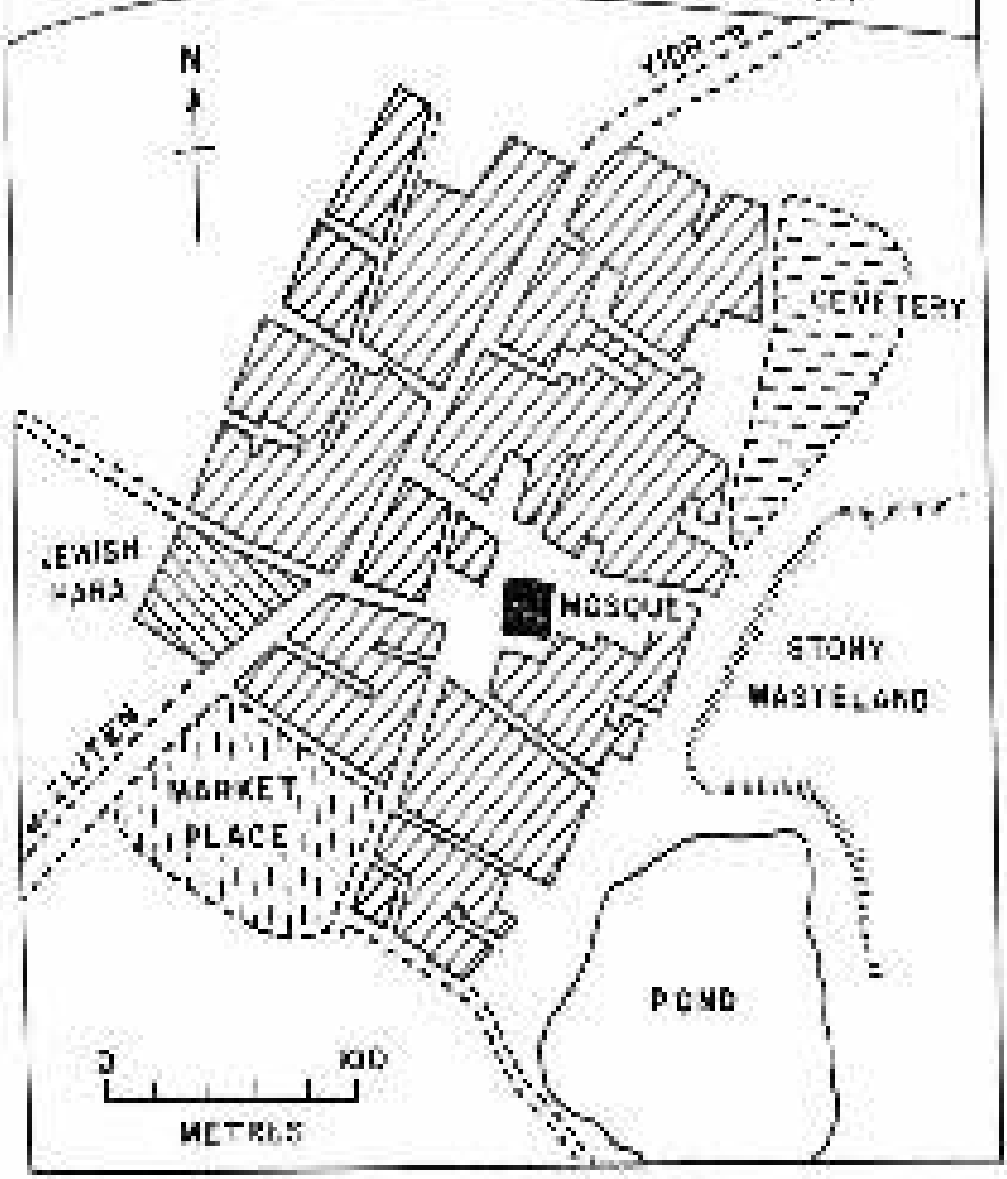
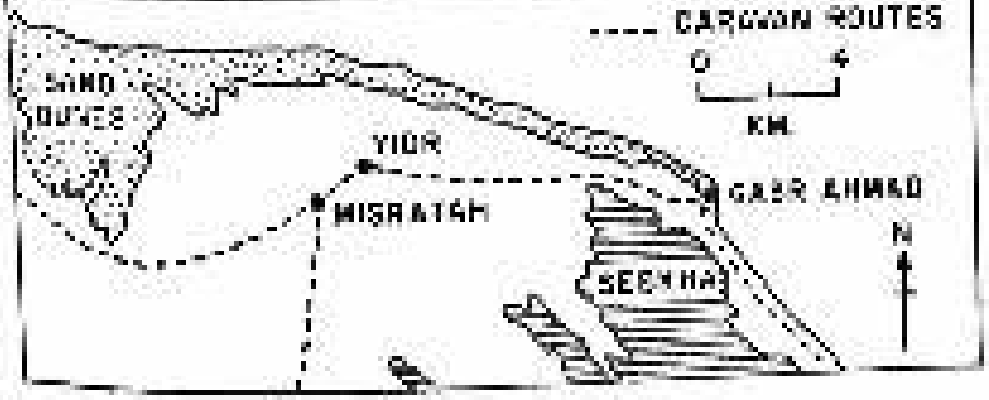


FIG. 3 ALIGNMENT OF
THE OLD CARAVAN ROUTE



a common influence on the make-up of Nicosia which was designated as a provincial capital and a regional economic and social centre for huge new demographic estates at Dahlia, Kermia and Tuncelina. Thus a great deal of building occurred, most of which did not affect the commercial quarter, except that a fish market was added. This building did however have one highly significant result in that it shifted the town's centre of gravity to the south-west and had the effect of leaving the shops and markets at the geographical centre of the built-up area. Since independence much building has continued in and around the "Dahan town", thus firmly establishing the centrality of the commercial area with its shops and markets.

Nicosia's commercial functions

Before moving on to a detailed analysis of the centre of Nicosia, its commercial functions must be outlined and consideration given to the nature and extent of its catchment.

Market days are held in Nicosia once every week on Mondays, Tuesdays and Thursdays. The only market town which is any kind of a rival to Nicosia is Zilan (pop. nearly fifty kilometres to the west, but field investigations showed that visits are made to Nicosia by people living within a very short distance of Zilan. There are also a number of farmers who visit markets in both towns, a practice made possible by the fact that in Zilan, markets are on Sundays and Wednesdays. Small local markets are held within Nicosia's sphere of influence at Ulucaglu on Mondays and Thursdays, and at Zavisat Al Mahjub on Fridays. There is thus a staggered succession of markets within the region which leaves Nicosia without competition on Tuesdays and with no serious competition on Thursdays.

Figure 6 is an attempt to delimit Nicosia's hinterland, defined as the area from which people visit the market habitually (but not necessarily frequently). The area covered is surprisingly extensive, taking in the whole of the Mutesellifye of Kermia and extending beyond to the more small cities of Ilan, Wadday and

Sokoto in the south to Birni in the east, and Yeni Usi in the west. Calculations based on figures published in 1967 suggest that the hinterland thus defined would embrace a total population of approximately 900,000 (2). The configuration of this hinterland is virtually unaffected by competition from other markets except Zitten in the northwest. In many ways the flow of goods to and from such markets on the margins of the great deserts is more akin to that of a sea-port, with distance playing a less decisive role than in regions with an even spread of population.

Figure 5 also indicates the frequency of visits to the market in Mixalak. Three zones can be identified, corresponding very roughly with three contrasting forms of land use. First, the vast outer area stretching as far as four hundred kilometres to the south, characterised by a fairly pure nomadic economy with a few Gay-wose engaged in small-scale irrigated farming. The population is scanty, the most important contribution to the market being livestock and their products, particularly camels and wool. Next comes a middle zone where some mixed population occurs and including a region of moderate densities of population around Yeni Usi. Throughout this zone are scattering of farmers who make the journey to Mixalak on foot once a week. Livestock are still important, but there is also a shifting cereal cultivation, citrus and dates in some parts, and occasional patches of irrigated agriculture. The third zone is by far the most important, comprising the oasis of Tawaghat. Possibly two-thirds of the population served by Mixalak inhabit this zone. Here irrigated agriculture is the chief concern but livestock, dates and salts remain important, so that the amount of activity generated for the market is outstanding. Within this zone most families are represented at two or three markets each week.

One of the functions of Mixalak therefore is to act as a market and exchange centre for the goods of these three complementary regions. But more detailed consideration of the inner zone shows that there is marked local specialisation within the oasis itself which leads to intense demand for the exchange of goods, and the local trade is probably more important than the former.

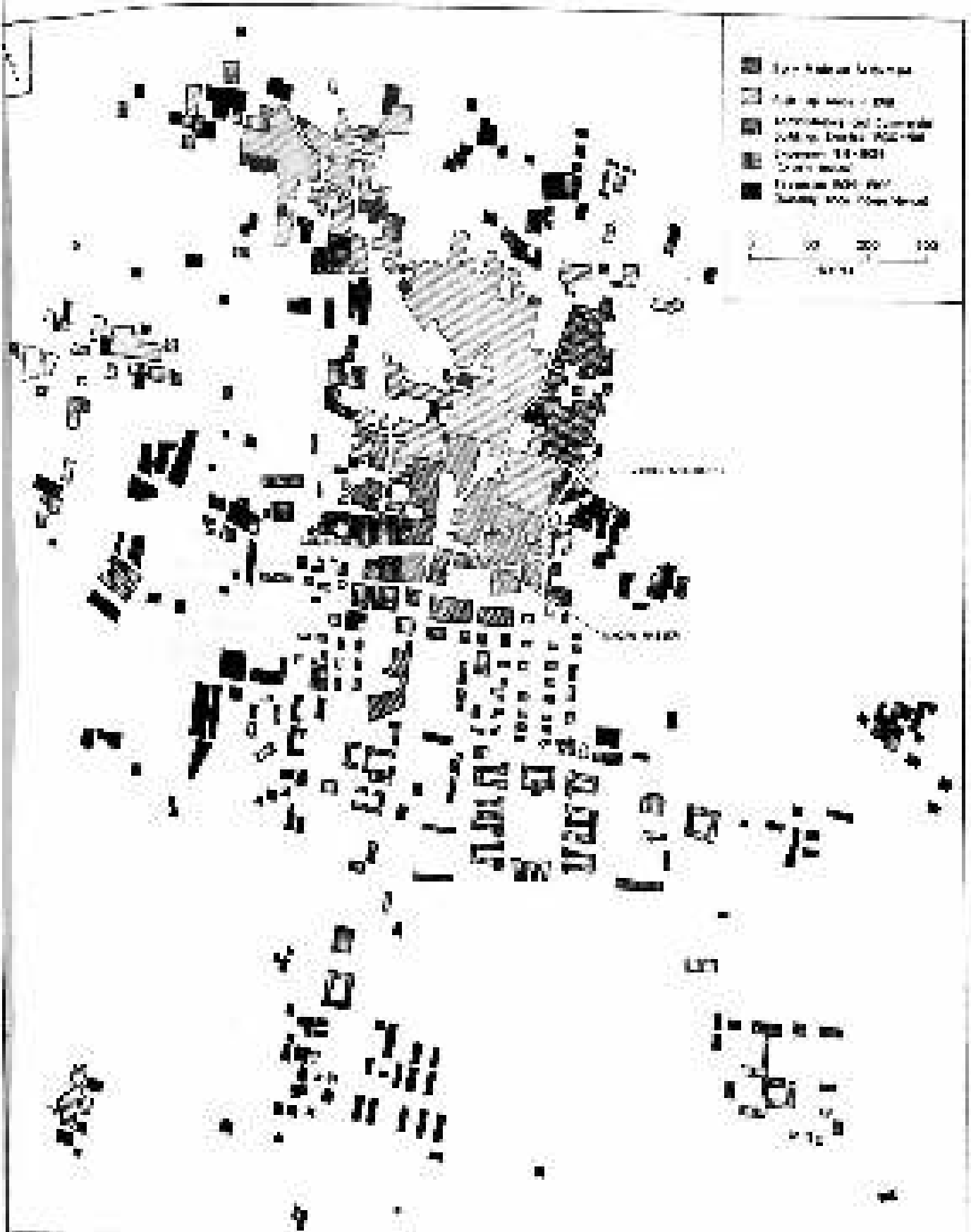


FIG 4 - EXPANSION OF VERATH TO 1956

In 1990 there were 6,722 holdings in Al Hajjah oasis, 5,322 of which were exclusively devoted to dry cultivation of barley and wheat. (5) The remaining 2,000 holdings had at least some irrigated land, but the proportion engaged in growing any one crop was surprisingly small. Thus less than 35% of the holdings grew sorghum, red peppers or broad beans, less than 30% grew melons, bulbous crops, onions and tomatoes, while maize, groundnuts and potatoes were grown on less than 15% of the holdings. These figures reveal considerable scope for buying and selling agricultural produce even among farmers engaged in largely irrigated cultivation. Crop returns of the Mudiriyat of Al Hajjah and Al Buraq, which lie west and east of the town respectively, reveal regional specialisation in crop production still further. Some examples are given in Table 1. Groundwater resources are more plentiful and less saline in the west than in the east and crop yields tend to be higher. In Al Buraq on the other hand camels, goats and horses are more numerous because of the rough pastures available in the Sahalat al Tawrayha. Before the nineteenth century and the sedentarisation of many semi-nomads, Al Hajjah must actually have been situated at a point of contact between agricultural areas in the west and pastoralists in the east of the oasis.(6) Peaches, plums, pears and apples are grown on the Sahalat al Tawrayha, and these constitute another branch of production.

The other notable feature of the Al Hajjah area is the domestic manufacture of goods for sale in the market quite clearly related to traditional specialisation among the different castes (Figure 6). Goods manufactured within the oasis and surrounding region

Table 1. Production of selected irrigated crops, 1990 (7)

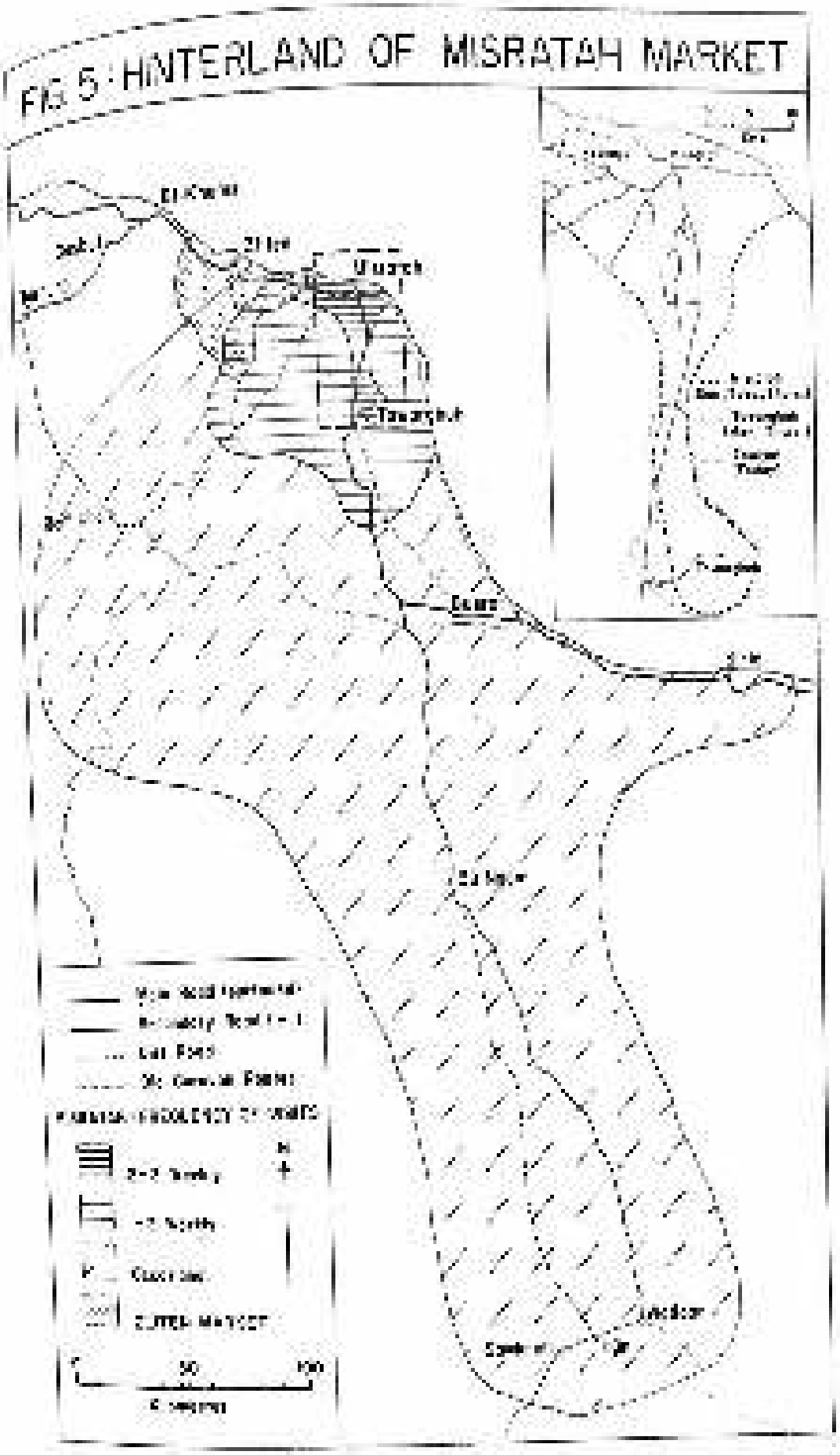
	Al Hajjah (West)	Al Buraq (East)
Bulbous crops	20.8%	45.2%
Melons	24.1%	33.9%
Sorghum	14.7%	33.5%
Peppers	13.3%	25.2%
Onions	55.3%	12.2%

Dry onions	22.8%	77.2%
Potatoes	75.9%	24.1%
Groundnuts	97.6%	2.4%
Cucumbers	2.0%	98.0%
Maize	91.1%	8.9%

are complementary in character and are generally produced only to satisfy local demands, though Misratah's famous "Kalim" and "Farahs" carpets are an exception. With the exception of goatskin waterbags and Tawarghi mats none of the domestic products are made exclusively from local raw materials. Thus many raw materials, notably wood, come from far away in quite large quantities, so that Misratah is not only an exchange centre for finished products but also supplies essential raw materials.

Another commercial function of the town is the sale of imported consumer goods including notably groceries, hardware and drapery. In terms of the circulation of cash this is undoubtedly the most important branch of trade, completely overshadowing locally produced foodstuffs and home-made goods. This branch is also growing at the expense of others, but it can never replace them since the farmer still has to find an outlet for his own produce in the market place.

All these activities together constitute an impressive focus of interest and it is not surprising to find the centre of Misratah packed with people every market day. A census carried out in July 1966 to count the number of people entering the town on a market day showed that the number exceeded 7,000 or approximately 22% of the total male population of Misratah's hinterland outside the town itself. This census has been described fully elsewhere, (9) but it is important here that it confirmed the overwhelming importance of local trade to Misratah. Only a relatively small number entered the town from the south, which indicates only a moderate yield of people and goods from the extensive desert hinterland beyond Tumunina. Secondly, it was found that 25% entered by bicycle, 16% on foot and 17% using animal transport of some kind, and most of these can be assumed to originate within the oasis and not beyond. Although 42% arrived


FIG 5 : HINTERLAND OF MISRATAH MARKET

is poor relative many of these lived near enough to be picked up by four- van drivers operating a shuttle service.

There are of course non-economic motives for coming to Bircotah, since the town is a regional social and administrative centre. For all those who enter on market days go with the sole intention of buying and selling. For market day is still an unrivalled opportunity for the men to meet and exchange news and transact social business. This function is now less significant, particularly among the younger generation, but it is still operative.

The centre of Bircotah: its functions and morphology

It is apparent both from Figure 1 and from Table 1 that there are a large number of business units in Bircotah. "Business units" here include any commercial enterprise in which fixed premises of some kind are used, from the stalls in the covered markets to the emporiums' shops and large specialist stores. A total of 608 such units in a town of perhaps 15,000 persons is surprisingly large. Most of these are small family concerns employing two or more adult members at some time in the week. Since women do not participate in buying and selling the proportion of the active male population of the town involved on a full or part-time basis is very significant. The absence of alternative sources of employment may have something to do with the number of businesses, but there is also a strong merchant tradition in Bircotah which believes passionately in individuals engaged in trading. A social motive for commerce is suggested by the fact that an unknown number of enterprises are not the sole source of income for their operators, arable or pastoral farming usually providing an additional source of income. Many premises which open only on market days, some 10% of the retail stores shown in Figure 1, presumably come into this category, though this is doubtful in the case of jewellers and carpet-sellers. Most part-time units are poor general stores away from the two main squares whose takings are generally very low. Some part-time shopkeepers and craftsmen live in villages outside Bircotah, maintaining premises in town for use on

in hot days — another reminder of the symbiosis of town and country in a pre-industrial society.

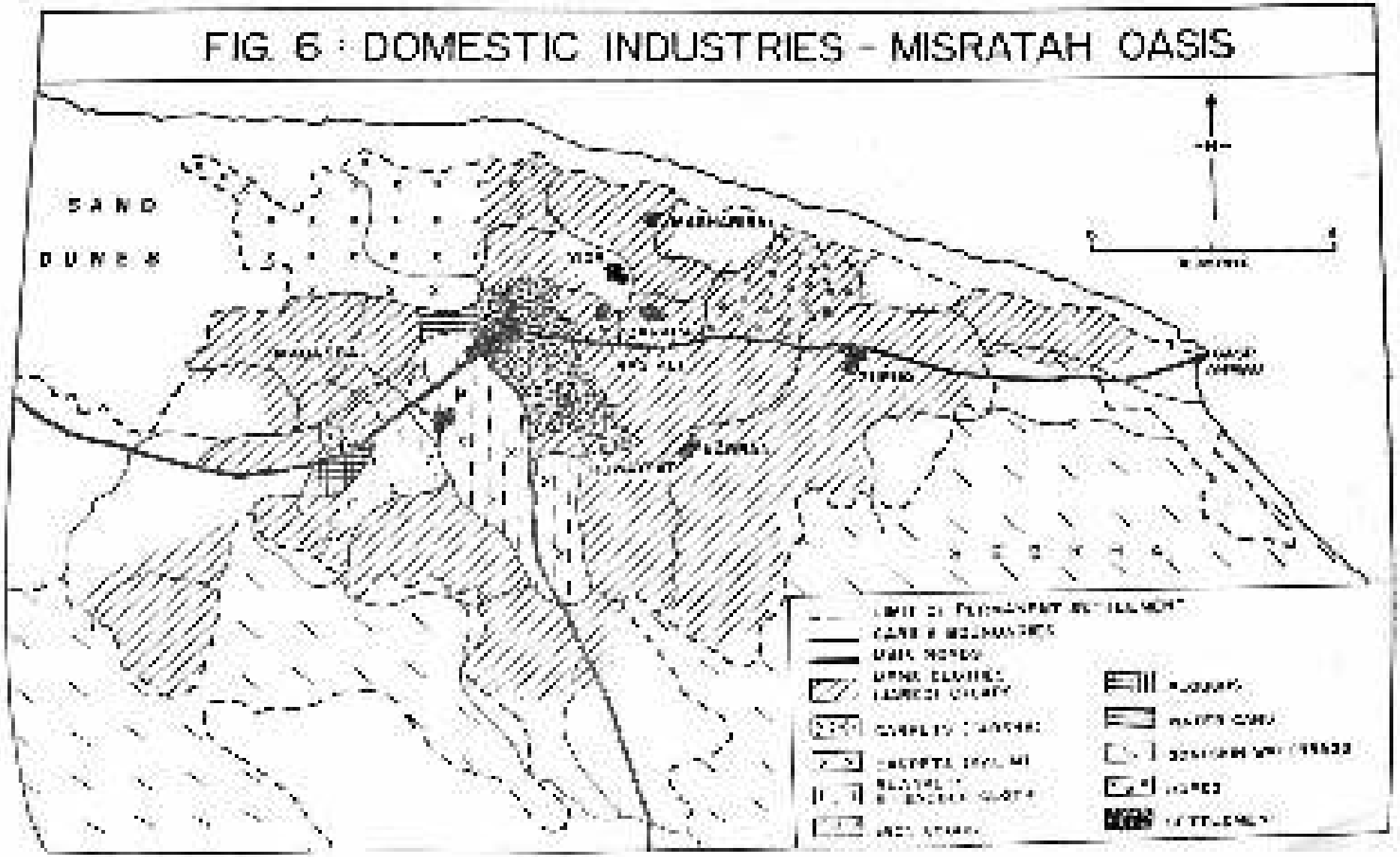
With so many enterprises competing with each other, failure cannot be very high, resulting perhaps in average annually net profits of around £1,400. But the economic incentives for participating in trade are nevertheless real, and several Misratah merchants have accumulated sufficient capital to establish shops in other parts of Libya; Misratan merchants can be found in Benghazi, Tripoli, Derna and Tobruk.

Table II — Retail stores in Misratah, 1965

General stores	135	Building materials and paint	18
Drapers	65	Cafés and restaurant	12
Grocers (+ 4 wholesale)	48	Motor vehicle accessories	7
Grain and seeds	37	Raw wool	6
Hardware	36	Watch and clock repairs	4
Jewellers	28	Electrical goods and radios	5
Barbers	24	Public scribes	4
Butcher's shops	21	Lamp repairs	3
Carpets and mats	20	Photographers	2
Paraffin and oils	18	Pharmacy	1
Bicycle sales and repairs	19	Stationer	1
Clothes and shoes	15	TOTAL	518
Stallholders :			
Greengrocers	90		
Butchers	86		

The list shown in Table II cannot be regarded as definitive. There may well be other units which were never discovered, but a further weakness is that of definition. How much drapery must a tailor sell to be classified as a draper? or how much hardware can a grocer stock before he becomes a "general store"? These difficulties arose largely from the low degree of specialization,

FIG. 6 : DOMESTIC INDUSTRIES - MISRATAH OASIS



general stores, drapers and grocers all exhibiting a high degree of overlap. Only on the fringe of the commercial centre, near the new town are European-type shops found – a stationer, photographer and a number of shops dealing in electrical goods and radios.

The number of craftsmen (Table III) in Mkwaiah was undoubtedly in excess of the present number sometime in the past. Their hey-day must have been before the influx of manufactured goods, when caravans still passed through the town – and the last caravan was seen in Mkwaiah in about 1911.

Table III Craftsmen in Mkwaiah, 1966

Tailors	13
Blacksmiths	10
Cobblers	12
Ploughwrights	7
Tinsmiths	7
Coppersmiths	4
Leather-workers	1
TOTAL	**56**

Originally most crafts were pursued by countrymen who came into the town on market days, making use of rented premises to carry on their work. As with domestic industries most crafts were the prerogative of a particular caste. Examples are potters (Mughurila caste), tinsmiths (Arewa Sasu caste), blacksmiths (Hadisa caste) and ploughwrights (Ba'ada caste). Today these ends, so far as they survive, still remain firmly in the hands of these castes. Tailors do not belong to a particular caste, but there is not strictly a traditional trade. Thus the grouping of craftsmen pursuing similar activities (Figure 8) seems to have been largely a social arrangement arising out of caste specialisation, and cannot be attributed to complex historical factors such as the guild system, as in the large towns and cities of the Arab world besides craftsmen, the grouping of town and carpet sellers

and paraffin and oil merchants is significant. The jewellers are located in a small suk which could be locked at night for security purposes, and carpet sellers have to be vigorous under cover to bid for targets when they come in from the villages. Paraffin and oil lamp sellers are apparently the modern successors to copper smiths and tinsmiths who once worked together in Suk As-Sagh.

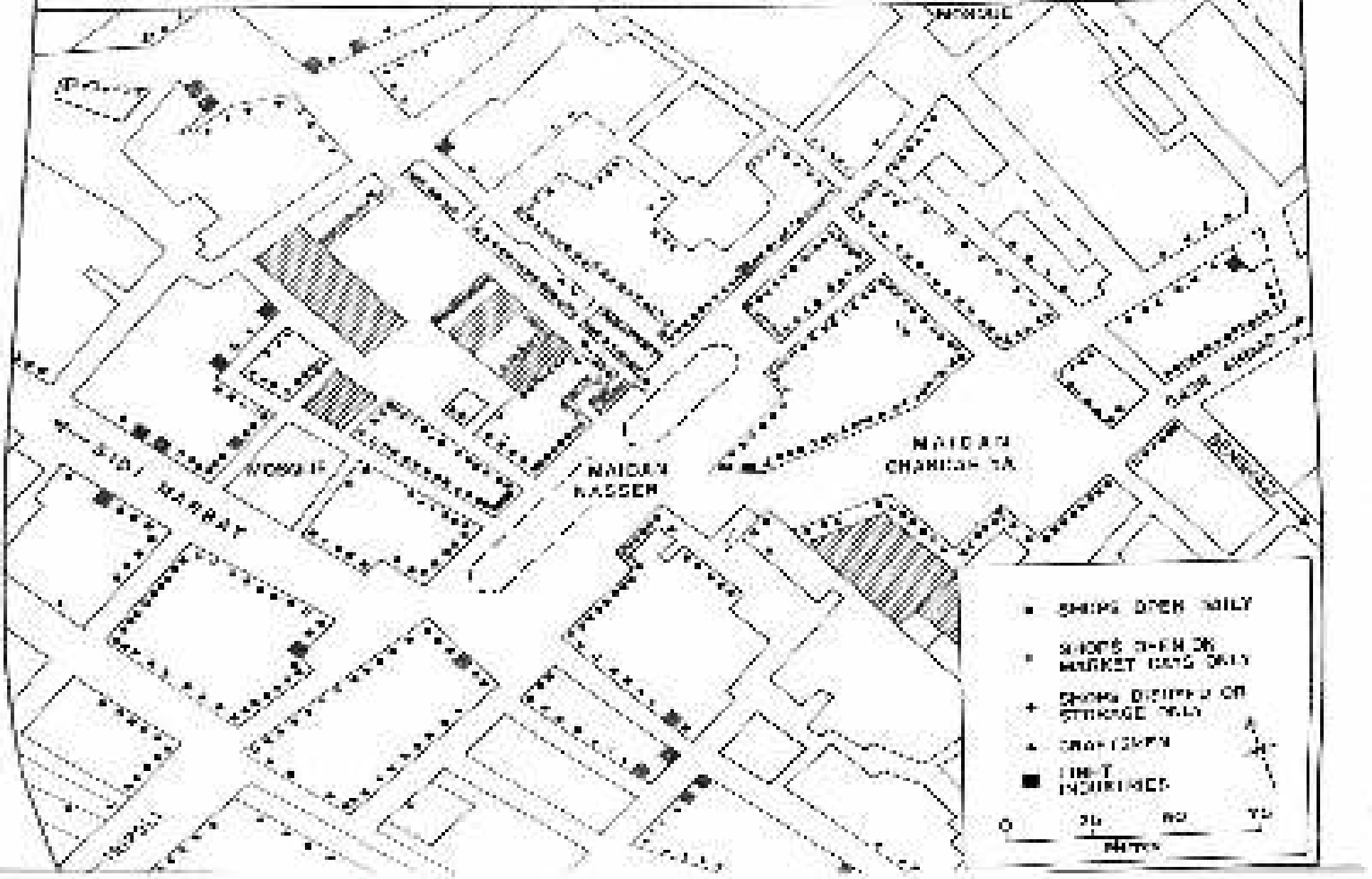
Besides trade carried on in fixed premises and the sale of farm produce in open markets, a number of other enterprises are carried on in the open air on market days. Some of these are shown on Figure 9. In July 1966 nearly 250 open-air traders were counted on a market day, the most numerous being cane wool sellers, grain and alfalfa merchants, and the sellers of Tuareg mats. These activities require large open spaces of the kind available in the centre of Murzuk, while others are more like pavement traders, selling cloth tape or general miscellanies, but all contribute in their ways to the centrifugal effect of the commercial heart of the town.

It has been stated that the light industries of Murzuk, though small, are among the fastest growing in Libya.[1] While industrialisation lies outside the scope of this paper, it is worth mentioning that it is not local manufactures which are put local craftsmen out of business, but imported goods. Even the woodwork shops shown in Table IV have not greatly affected the carpenters since the latter are concerned primarily with making ploughs and not with the requirements of the local building industry. With the exception of bakeries, several of which appear in Figure 9 as

Table IV Light industries in Murzuk, 1966

Woodwork	14
Bakeries	4
Concrete blocks	3
Garages	6
Engineering	5
Flour mills	5
Charcoal	2

FIG:7 SHOPS, WORKSHOPS, LIGHT INDUSTRIES



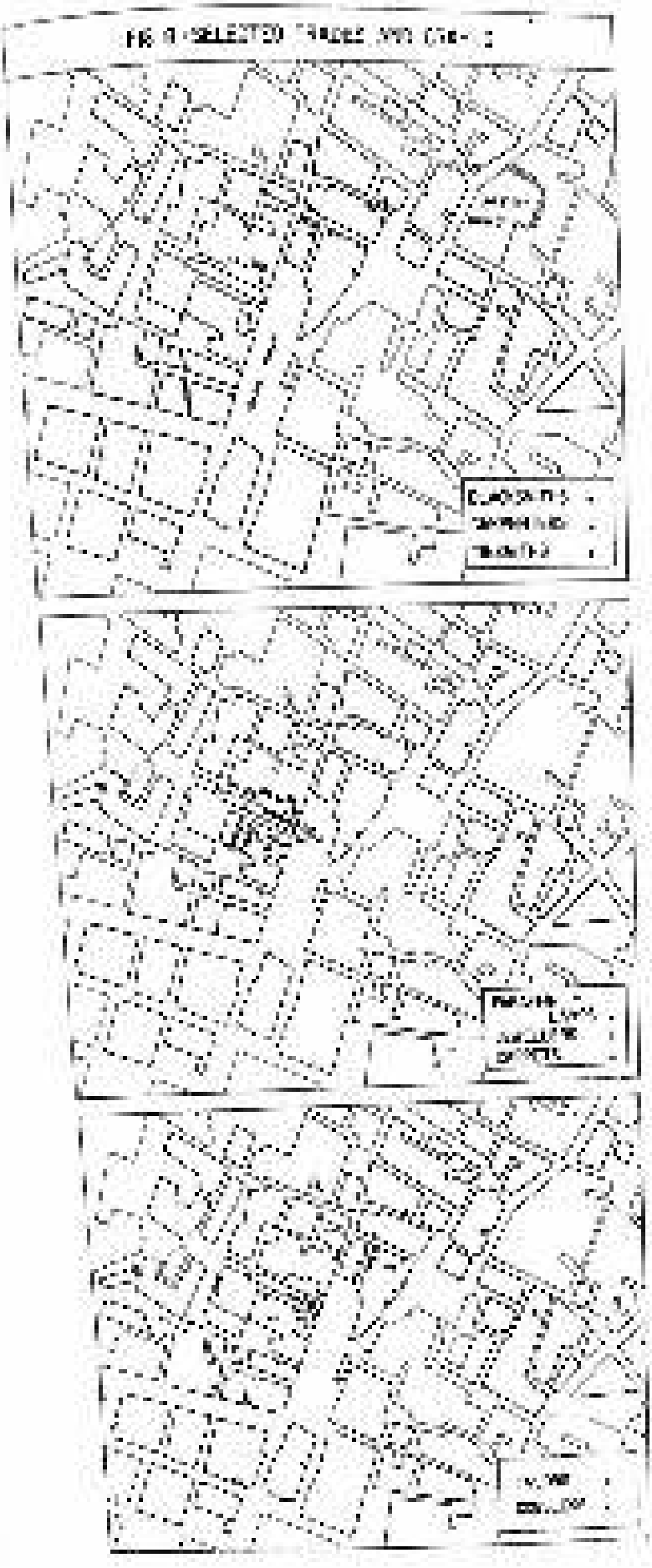
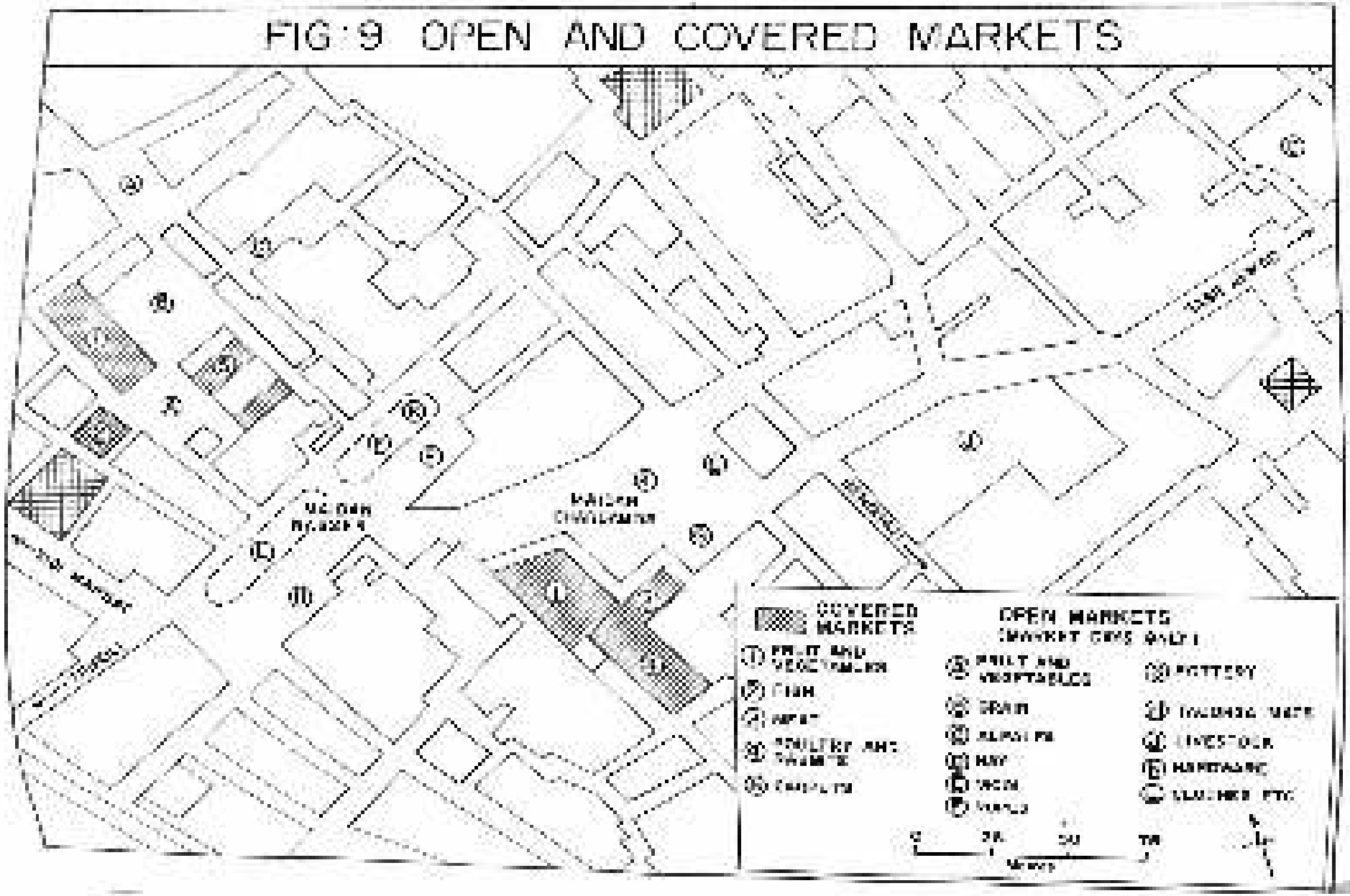


FIG: 9 OPEN AND COVERED MARKETS



Olive presses	2
Slaughterhouse	1
Generator	1
Flour mills	1
TOTAL	**93**

being in or near the centre, light industries have favoured more peripheral locations where property is larger and cheaper. Thus the roads to Gasr Ahmed, Tripoli and Benghazi all have their share. But industry does not distinguish between market days and non-market days, and for this reason a central location would be a distinct hazard on market days when traffic is severely impeded by pedestrians and open-air traders and their goods.

There are two main squares in Misurata, Maidan Nasser and Markaz Charabiliya. Of these, Maidan Nasser is undoubtedly the most important. Its north-east to south-west axis is situated within internal zones between two broadly complementary sectors of the commercial centre of the town. A complex of shops, workshops and markets lie to the north-west of Maidan Nasser including the grain market and flour mills, fruit and vegetable markets and the fish market. (Figure 7 and 8). This sector also specialises in carpets, jewellery, perfume and oil, and attracts. Markaz Charabiliya itself is the centre of a second complex southeast of Maidan Nasser, containing notably the livestock market, numerous butchers, blacksmiths and hardware merchants besides another covered fruit and vegetable market and poultry market. Markaz Nasser also lies between several streets of traditional shops and workshops in the old town, and several modern shops and services in the new town (bicycles, banks, cafés, post office etc).

Thus on market days the square is crowded and congested more frequently than any other part of the town. Within a radius of 50 metres of the centre of Maidan Nasser are situated a large proportion of the shops and craftsmen, and most of the covered and open markets in Misurata. It is also an important junction for east-west and north-south through routes on non-market days.

Types of shop vary considerably, but around Maiden Nasser Bay tend to be larger and better constructed than elsewhere. Some twenty-eight square metres of floor space is typical and concrete floors and iron shutters are almost standard. In the vicinity of Maiden Ghardabiya however shops are older and floor space more restricted, fifteen square metres being typical, while wooden doors and earth floors are quite common. These differences account for the slightly higher rents in Maiden Nasser much more than any advantages resulting from centrality or favourable location.

The present layout of Marsaleh's commercial centre has emerged over the last one hundred and fifty years largely as the result of initiatives taken by successive administrations, but also involving some private enterprise. The centre is compact, embracing a whole range of economic functions. The emphasis throughout is on small business units and individual buying and selling, though there are exceptions. But these traditional ways will change during the next decade : shops will replace stores. Imported goods will overwhelm many domestic products; and marketing methods will be improved and rationalised. Indeed, NASA's ambitious schemes for the re-location estates may usher in co-operative buying and selling and possibly the local processing of agricultural produce. All this implies change, but it may not be necessary to give a totally new heart to Marsaleh to fulfil these functions — the present centre could be adapted and expanded for the purpose. Such courteous replanning would have the advantage of preserving a sense of continuity in the centre, which more than any other part of the town has helped create a feeling of community in Marsaleh.

References

(1) Mcroughy, Marshall, McMillan and Lucas **The Regional Context of Settlement Planning**, preliminary report, Rome (1967)

(2) Beechey F.W. and H.W. **Proceedings of the Expedition to explore the Northern Coast of Africa 1821-22** (1828), 30

(3) Rhodes W. **Travels in North Africa**, Philadelphia (1927), 62

(4) [illegible] **A geographical study of the coastal zone between Homs and Misurata, Tripolitania**" Ph. D. thesis, University of Durham, (1981), 237

(5) Mcroughy, Marshall, McMillan and Lucas, op. cit, 28

(6) Ministry of Agriculture, **Census of Agriculture** Tripoli (1964), 130, 54

(7) Ministry of Agriculture op. cit, 133-145

(8) Blake G.H. **Misurata : a market town in Tripolitania**, University of Durham, Department of Geography, Research Paper No. 8 (1968), Chapter 2

(9) Blake G.H., op. cit., Chapter 4

(10) Ministry of Economy and Trade, **Report of the Industrial Census**, Tripoli, (1961), p. 52.

SOIL ANALYSIS AND ITS RELATION TO LAND USE IN EL-MARJ PLAIN, CYRENAICA

By Prof. Mukhtar Buru

Introduction

El-Marj Plain is known in European as the Barce Plain. The plain is situated in the west of the Jebel Akhdar, on the area between the first and the second escarpment, known as the upper terrace (fig. 1). At the south-western end of the terrace 'karst' erosion has predominated and has advanced so far as to create a series of inland drainage basins, these, with their thick deposits of Terra Rossa, form the fertile plains of El-Marj (Barce), Slime and El-Abiar (fig. 2).

El-Marj Plain is a closed depression basin with a shallow shape and it mainly extends south-west/south east. It is 12 kms. long and 7 kms. wide. The lowest point of the basin is 556 above sea-level, situated one kilometer to the north-east of the El-Marj town, and occupied by an intermittent lake in the winter, known as El-Abiar.

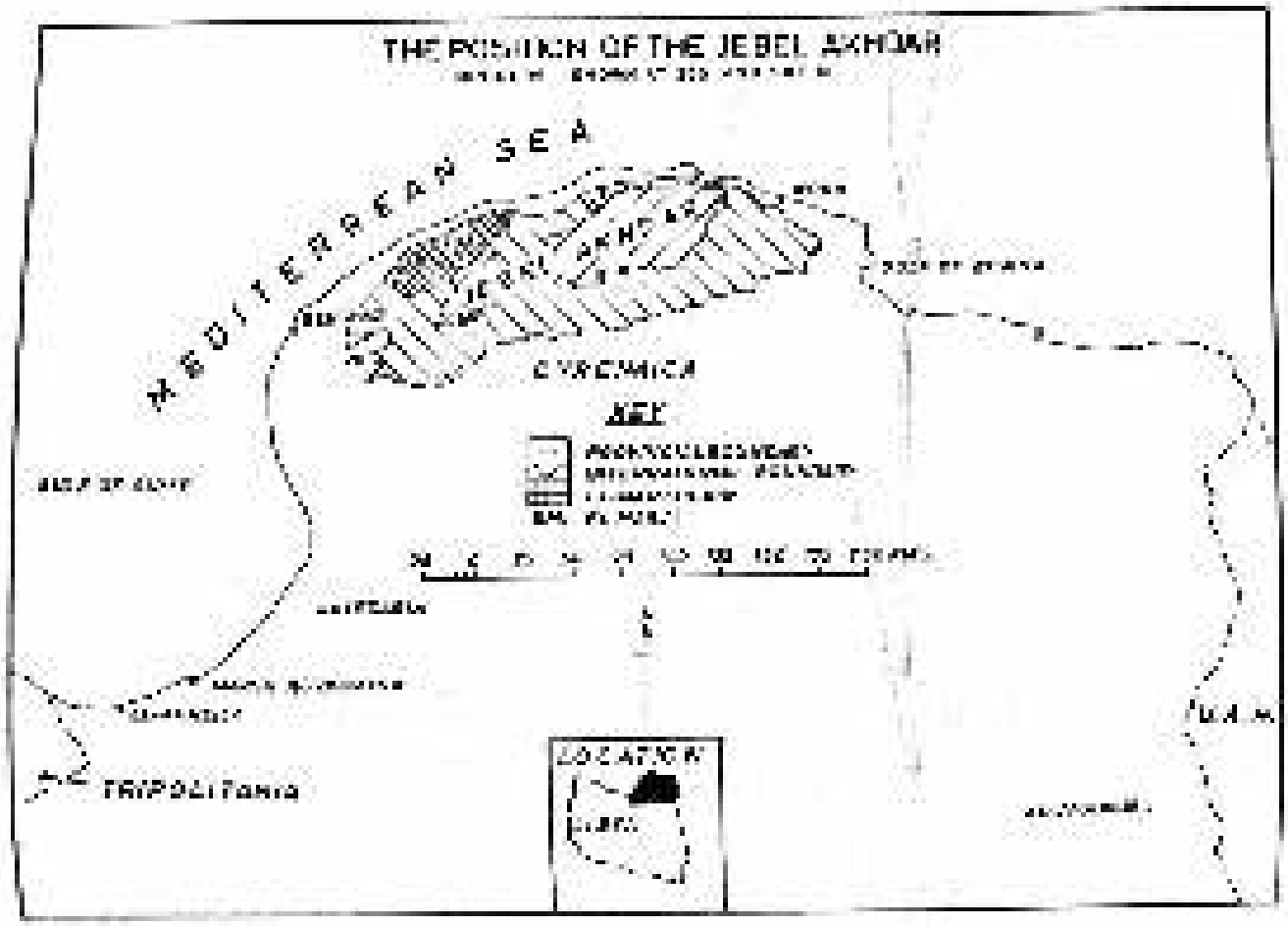
As far as the Jebel Akhdar is concerned, all the exposures on the surface are of sedimentary origin and mainly are marine limestones. The greater part of northern Cyrenaica is covered by rocks of Miocene age, those of Middle Miocene being especially conspicuous. The unconsolidated strata in El-Marj Plain are of the Middle Pliocene-Pleistocene Derna Limestones.

The elements of relief of northern Cyrenaica are responsible for local variations in climate both in respect of thermal and precipitation conditions. Northern Cyrenaica is climatically divided by the influence of the Mediterranean Sea on the coast and altitude of the Jebel in the interior; these differentiate the two zones of continuous habitation from the desert. It is only along the Mediterranean coastline of northern Libya that the influence of the sea brings some rain and coolness and makes possible a zone of agricultural settlement and supreme agricultural production. Cyrenaica experiences extremely hot summers everywhere; on the coast winters are mild and in some parts frost has never been known. However, in northern Cyrenaica, the coastal plain is backed by the Jebel. The sea's moderating influence decreases southwards and temperatures increase. The effect of altitude is to reduce temperatures and in winter both factors combine to make the mean temperature about 5°C. colder than the coast. Variations in temperature from place to place resulting from proximity to the sea and altitude can be illustrated by a comparison between Tolmeitha on the Jebel and El-Marj some 16 kms. inland and about 250m. above sea level. On the coastal plain the annual mean temperature is 19.9°C. at Tolmeitha, while on the upper terrace the mean is 17.7 C. at El-Marj.

Along the coastal parts, the daily range of temperature is moderated by the cooling influence of the Mediterranean during the day and the relative warmth of the sea during the night, though as might be expected the daily range is higher on the Jebel and further inland. Mean daily ranges of temperature at the coastal averaged between 7.8°C. at Tolmeitha for a period of ten years and 10.1°C. at Tocra for eleven-year period, and 8.8°C. to 10.4°C. at Benghazi for a period of forty one years.

Figures for the Jebel show that the highest mean daily range on the Jebel at El Marj averaged between 10.7°C and 17.1°C., i.e. twice that of the coastal stations. The range of temperature in Libya is a product of the high temperature during the day rather than the low night temperatures.

The rainfall starts in autumn with a rapid increase in Decem-


THE POSITION OF THE JEBEL AKHDAR
MEDITERRANEAN SEA
CYRENAICA
TRIPOLITANIA
LOCATION

ber and January, and then decreases quickly in the successive months. The peak of rainfall is in December and January. The dry half of the year extends from May to September, but the rainfall may start earlier in September and be prolonged until April, and sometimes even May, especially on the Jebel Akhdar. The rainy half of the year (October-March) received between 85 and 90% of the total annual rainfall."

On the coastal plain rainfall ranges from only 50 to 250 mm and increases south to north. At Benghazi rainfall amounts to 268.6 mm. Rainfall increases in the extreme north of the coastal plain where it is 311.0 mm. at Tocra and 253 mm. at Tukrah. Valley rainfall exceeding 300 mm. is found beyond the first escarpment from which point on it increases to 404.7 mm. at El-Marj (the highest rainfall (320-400 mm.) is found on the northern part of the Jebel Akhdar in the vicinity of Cyrene. This favoured sector, however, is of limited extent, and to the south, southwest and southeast, rainfall declines sharply.

As pointed out, most of Cyrenaica is dominated by semi-humid conditions, except for southern Cyrenaica which enjoys a more humid climate especially the Jebel Akhdar where the Mediterranean climate predominates. Consequently the final life of El-Marj Plain is related to the Maghreb and southern Europe rather than to the rest of Libya.

Dry farming is practised in the whole of El-Marj plain. All the agricultural production is subject to a considerable risk with regard to yields. The main crops are wheat and barley, chickpeas, broad beans, oats and fenugreek are grown in small quantities. As regards the growing of fruit trees, good stands of peach, fig, pear, apple, olive and almond trees still exist on the former Italian Ente farms, in a number of private-owned farms there are high yields of olives, almonds and vines. The growth of vegetable

growing apart from potatoes, tomatoes and melons in El-Gharb is negligible.

A conservative estimate of total cultivated land in El Marj Plain may be made at 80,000 hectares.

Soils of El-Marj Plain.

Soils of El Marj Plain show a diversity of origin, properties and land use capabilities which is perhaps best explained by reference to the factors of soil formation. Following the initial work of Dokuchaiev (1898)(1) and Jenny (1941),(2) it is convenient to consider this diversity in(1) climate,(2) vegetation,(3) parent material or parent rocks,(4) topography,(5) time and(6) human influences. Within El-Marj Plain it soon become apparent that climate and parent material are perhaps the dominant determinant of the soil character.

The super-imposition of Mediterranean climate on calcareous parent material has dominated the processes of soil formation, and by far the most important soil type which is found in El-Marj Plain and on the surrounding scarps and the upland areas is the classical Terra Rossa. Much has been written about this soil and its distribution throughout the whole of the Mediterranean region, but relatively little work has been published on its 11 year habitat. The reconnaissance observations of Ferrara (1958) (3) and Principi(4) (1939 and 1947) are useful, as are parallel findings of Reifenberg(5) in Palestine, but that research carried out on this soil group in North Africa would seem to exist in unpublished form.

The original work of Reifenberg on the Terra Rossa soil is still the standard reference for the properties and definition of this soil type, and it seems convenient to consider here some of the main points which are contained within Reifenberg's original concept. For him:

"Terra Rossa develops on limestone under the conditions of the Mediterranean climate. In comparison with its parent material, the limestone, it has been greatly enriched in sesquioxides and is also [in comparison with the soils of humid climate] contains large quantities of salt of the alkalis and alkaline earths. The high iron content, together with low humus content can characterize the red colour and which often is brilliant. They are mostly rich with an alkaline reaction and correspond to [2].

This view of Kubiena is in many ways the most composed and impressive statement on the origin and nature of Terra Rossa which has been attempted by any pedologist. Certainly the thesis that Terra Rossa is a contemporary phenomenon resulting from the interplay of a Mediterranean climate regime and a calcareous parent material is widely held in soil science circles.

However, whilst a discussion of the pedological controversy surrounding Terra Rossa is beyond the scope of this present paper, it should also be noted that Kubiena (1938) and others would regard Terra Rossa as a fossil feature found under more humid sub-tropical conditions and therefore essentially a soil parent material rather than a modern soil.

The work presented in this paper does not aim at presenting any definite origin of this soil and its association, but rather to study specific Terra Rossa profiles in Cyprus and to analyse particularly their engineering properties.

Detailed soil analysis in order to supplement the general aspects of the soil types and their distribution within El-Khan Hills and the surroundings it was decided to carry out a more detailed analysis of the soils of the area using standard field and laboratory investigation techniques. A field survey of the soils was carried out and a reconnaissance was made of natural soil sections

and soils occurring in the main agricultural areas. From this reconnaissance survey it was possible to decide upon the main soil types occurring in the plain and also to locate eleven soil profile pits which would give a representative picture of the pedological pattern.

Each of these pits was described in the field and each was sampled at two main depths, i.e. at the surface and at a depth of 25cm. The samples were analysed at Sidi Mezri Experimental Station. Details of the chemical analyses are given in the appendix 1. The main site characteristics of the soil profiles are also presented in Table 1. A schematic classification of the soils is given in Table 2, and the location of soil pits is further shown on figure No. 3.

Profile 1 — Is a good example of a relatively thin terra fossa which has developed directly from the underlying Lower Eocene limestone beds. The soil is quite thin, passing into parent rock at 50 cms., and is one of the stoniest profiles examined due to high content of limestone fragments from the parent rock. The mechanical analysis of the samples shows a high content of sand and also of clay, whilst the silt fraction is relatively low. The soil is dominantly a sandy clay with a very slight increase of the sand fraction with depth.

The figures for the total carbonates reflect the large proportion of limestone fragments in the soil material. The figures for the surface horizons is 10% higher than that at 25 cm. which would seem to suggest movement of lime towards the surface and some concentration there. The Ph figures of 8.1 and 7.8 respectively were in fact the highest recorded in the whole region. The figures for the total and soluble contents again show the high lime content and were the highest over the whole survey area. The conductivity of the soils too were amongst the highest recorded. These figures again show a tendency for the soil solution to move upwards to the surface.

Figure 1: Locations of the Battle Sites

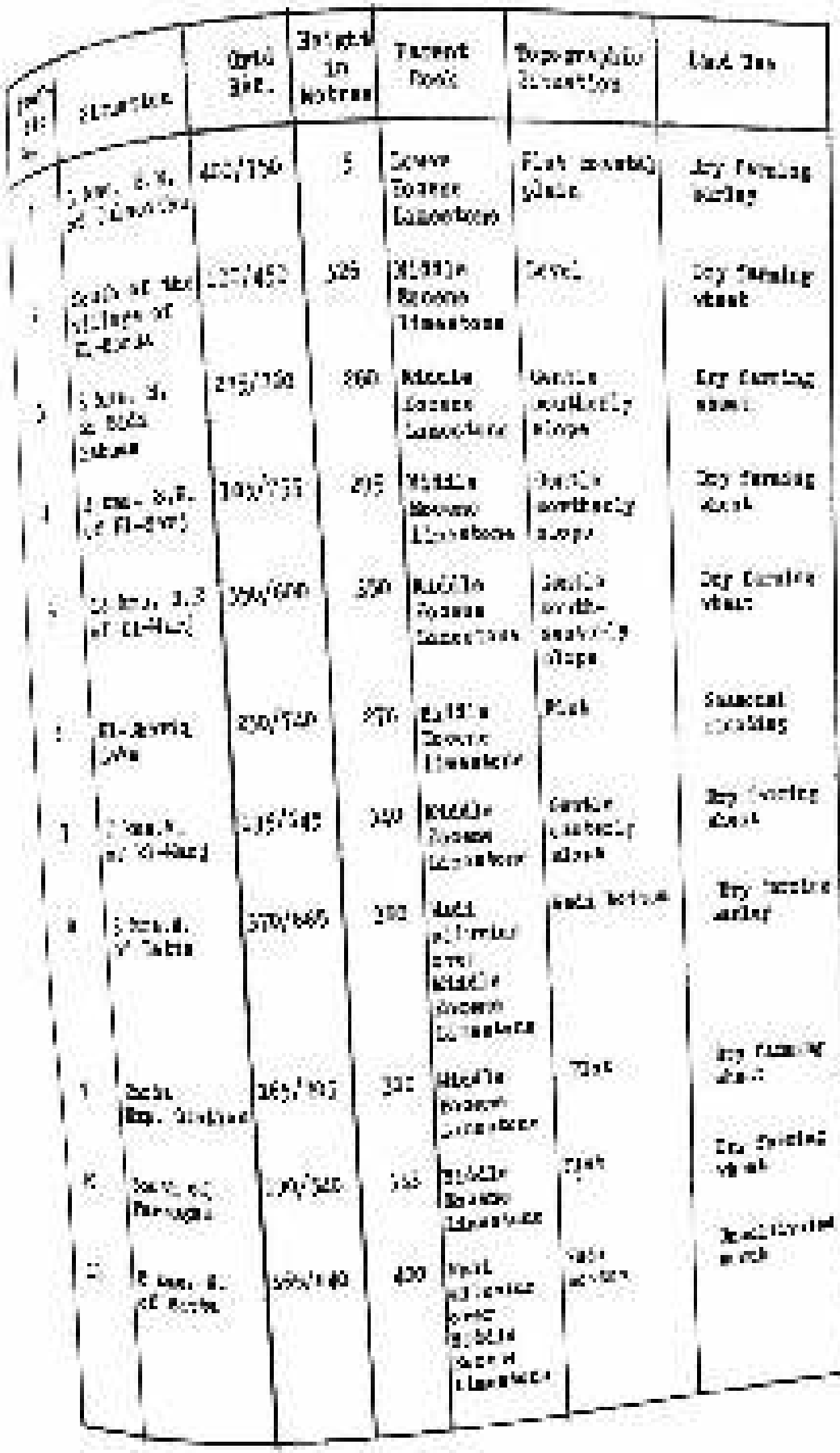
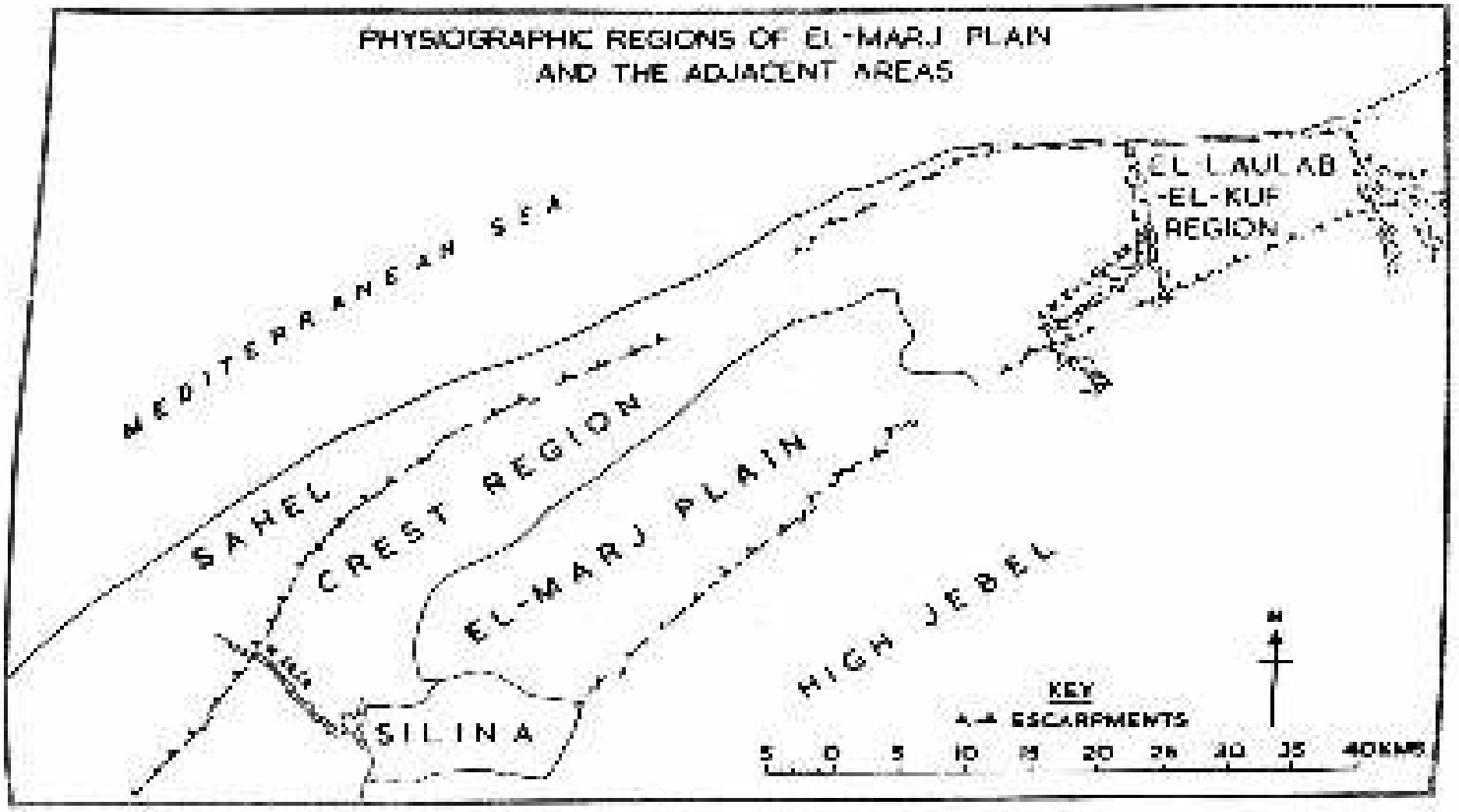


Table 11 - Classification of the soils

Parent material	Climatic Zone	Major Soil Type	Profile Number
Terra Rossa Material over Limestone	Zone	c) Red Terra Rossa soils-deep phase cc) Red Terra Rossa soils - shallow phase ccc) Black and Terra Rossa soils xx) Grey Terra soils	9,10,12 11 7,8
	Imperfect	d) Heterogenous Yellow soils	5
Soil Material over Limestone	Zone	vc) Solonized Brown Alkaline soils vcc) Black Terra Alkaline Soils	6 4

The exchangeable cation data show that the cationic exchange capacity is relatively low but is dominated by calcium and magnesium. The figures for both sodium and potassium are much lower. The figures for available nutrient show that nitrogen is extremely low and likely to be a major obstacle to adequate plant growth. The figures for phosphate and potash too are low and again would be likely to prove limiting to any intensive land use.

Profile 8 — Represents a well developed red Terra Rossa soil 2 metres deep over Middle Eocene limestone. Its texture is similar to profile one, but figures for soil carbonates fail to show any accumulation of lime and profile. This would seem to suggest that soil drainage has been adequate to leach out much of the calcium material from which the soil was ultimately derived. The figures show that the soil is only slightly alkaline. The figures for the total analyses show accumulation of iron and aluminium


PHYSIOGRAPHIC REGIONS OF EL-MARJ PLAIN
AND THE ADJACENT AREAS
MEDITERRANEAN SEA
SAHEL
CREST REGION
EL-MARJ PLAIN
HIGH JEBEL
EL LAULAB
-EL-KUF
REGION
SILINA
KEY
A-A ESCARPMENTS
N
5 0 5 10 15 20 25 30 35 40KMS

in the soil. This is as one would expect from Terra Rossa. The conductivity of the profile is similar to Profile 1, again showing a slight accumulation of salt. The cation exchange capacity is relatively high and due probably to the higher content of iron and aluminium oxides. Calcium and magnesium again dominate the exchange complex.

The data for the nutrient elements of this Terra Rossa present some interesting contrast with Profile 1. Figures for total nitrogen again show the very deficient amount of this important plant food. This is quite characteristic for the whole region. The figures for phosphate, however, are extremely low and point to the fact that many of these soils do not contain adequate phosphorus. This is no doubt a reflection of the long period of chemical leaching and depletion which the soil has undergone. The relatively low figures for the total soluble mineral matter seem to support this fact.

Profile 3 — Has been classified into the same soil grouping as Profile 2 namely that Terra Rossa soil of a deep phase and mixed the analytical figures of this soil show many resemblances. From a point of view of texture this profile is slightly heavier, being classed as a clay soil rather than a sandy one. The figures for the percentage are some 3% higher than Profile 2 and the silt percentage is correspondingly lower. The silt percentages are still the same. The soil reaction is slightly lower than Profile 2, and in fact the surface shows slight salinity. This may in fact be due to a specialized processes; at 25 cm. in fact the P_H rose to 12 which corresponds to the general P_H level of the Terra Rossa material.

Rather surprisingly the figures for the cation exchange capacity are amongst some of the lowest recorded in the area. This may be due to a lack of organic matter or to the type of clay minerals involved. Calcium and magnesium are again the dominant ions and this is reflected in the figures for soil conductivity, which vary from 1.30 millimhos/cm. at the surface to 1.70 millimhos/cm. at 35 cm. depth. This points to a slight seasonal upward movement of soluble salt. The carbonate figures show an almost complete removal of lime as in Profile 2, with again a slight increase at

the surface. The figures for available nutrients are amongst some of the lowest recorded in the survey. Nitrogen varies from 0.10% at the surface to 0.19% at 25 cm.; this seems to be a direct result of the poor organic matter status of this profile. The plant food would seem to be a limiting factor in the plant growth. The figure for available potash is quite high in the mineral fraction evidently much of the potash in a form which is not available to the plant root.

Profile 4 : — Is similarly classed as deep Rossa soil but is much more similar to Profile 2 rather than to Profile 3. The general texture is on the transitional boundary between sandy clay and sandy clay loam, mainly resulting from slight increase in the sand content. The clay percentage is 29.6 at the surface falling to 28.0 at 25 cm. The data for the cationic exchange capacity is also similar to Profile 2 ranging from 24.12 m. 1/100 gms. of the soil at the surface to 25.75 m. 1/100 gms. at 25 cm. Calcium and magnesium are again the dominant cations on the exchange complex. The Ph. varies from 7.45 at the surface to 7.20 at 25 cms. which is again similar to Profile 2, and the Profile shows a corresponding lack of total carbonates. Figures for available nitrogen show an increase on those for Profile 3, and the available potash is also much higher. Phosphate, however, is still extremely low.

A brief comparison of Profiles 2, 3 and 4, all of which are designated as deep red Terra soil, shows that there is some analytical variation within this general grouping. This is only to be expected when one considers differences of situation and soil history which these sites probably have undergone. This particular aspect will be treated more fully in the next section.

Profile 5 — Represents slight difference from the last three profiles in that it has been designated as a dark red Terra Rossa soil largely on the basis of a field appearance. A study of the analytical data, however, fails to reveal any real significant contrast. The only figure which would seem to be important in this respect is that for the moisture content. The dark red Terra Rossa

[illegible] a moisture percentage of over 5 whereas a red Terra Rossa has [illegible] figures between 2 and 3. The texture of this soil shows [illegible] difference between the surface and 25 cm. The surface layer is a sandy clay whereas a little lower down the texture changes to sandy clay loam/sandy loam. This is mainly due to decreasing clay percentages from 35.4 to 20 and an increase in sand fractions from 50.4 to 72.2. The figures for silt function show a very striking decrease with depth dropping 14.2% at the surface to 7.8% at 25 cm. This decrease of silt and clay fraction within such a short distance would seem to suggest that the upper horizons are in fact receiving finer material which is being washed in from surrounding slopes.

The PH of this soil and the total carbonates are very similar to Profile 3, as also the figures for cationic exchange capacity. Calcium and magnesium are again the dominant ions, and the figure for conductivity of the soil are very low despite the high moisture content. Figures for available nutrients show the same low values, although the availability of phosphate is slightly higher than the previous three profiles.

Profile 6 — Is an extremely interesting profile as it is the only profile study which shows the effects of impeded drainage on the soil profile. The profile pit was located on the northern edge of El-Gharig depression which is an area of accumulation of alluvium from surrounding areas. El-Gharig depression is in fact an intermittent lake which arises and usually remains flooded until it is dissipated by evaporation in late May. The dominant feature of the soils therefore is extremely waterlogged conditions for much of the year. The high water table has produced the very detrimental effects on plant growth.

The mechanical analysis shows that the soils are classified as sandy clay which is very important from a point of view of soil permeability. The soils are relatively impermeable, a factor which makes even worse the effects of a large seasonal influx of moisture. Despite the poor drainage however, alkalinity has not developed and the PH is only 7.1. The figures for total carbonates

also show no accumulation of lime. By far the most interesting analytical figure is that which refers to soil salinity. The figure for the conductivity figure is that which refers to soil salinity. The figure for the conductivity of the soil reaches the very high level of 11.5 millimhos/cm. at the surface but it drops quickly to 3.25 millimhos/cm. at 50 cm. The figures for cation exchange capacity similarly reflect the saline conditions of that soil. The percentage of sodium on exchange complex does in fact exceed the figure for calcium and magnesium combined and would seem to suggest that there is a very high sodium hazard in this soil. This is further reinforced by the figure of the Sodium Absorption Ration which is 12.52 at the surface. The fact that alkalinity has not developed under the high sodium figure may, in fact, be due to the high iron content of the soil. The figures for available nutrients show the usual lack of nitrogen and phosphate but it is noticeable that the figure for available potash is extremely high. In fact the figures of 1057 ppm. of potash is more than double the figure recorded in the other profiles. This is almost certainly due to the fact that potassium is being washed in the area by seepage water.

The saline nature of this profile appears very puzzling when compared to the good crop yields which this area supports. Whether the salinity is closely restricted to the surface and hence does not affect the main root zone, or whether the soluble salts are of a nature which does not inhibit plant growth is a question which needs further investigation.

Profile 7 — In another example of a dark red Terra Rossa soil and therefore it may be convenient to discuss its analytical data in comparison with that of Profile 6 at the village of Batia. From a point of view of texture Profile 7 represents a clay soil rather than sandy clay. The figures for clay at the surface and at 25 cm., 35.4% and 38.8% respectively. This relatively heavy texture is only exceeded by red Terra Rossa soil at Profile 9. It is also worth noting that the silt function of this soil is quite high, reaching a figure of 20.8% at 25 cms. It is also noticeable that this profile is very slightly acidic showing Ph. 5 which never rise above 6.8. The saturation percentage is also higher than profiles considered

previously, a fact which is resultant upon the finer texture of the soil. The figures for soil carbonates are again quite low.

The figures for cationic exchange capacity range from 21.5 m.(10) gms. at the surface to 26.5 m. 1/100 gms. at 25 cms. Calcium and magnesium are again the dominant ions, and this fact together with the low figures of soil conductivity would seem to suggest that sodium is easily removed from the soil profile.

From the point of view of total analysis iron and aluminium are again dominant. The data for the available nutrients show that nitrogen is only sparingly present whereas phosphate was much more abundant than in any other profile studies. This is probably due to the richness of the soil in phosphate bearing minerals rather than to any addition by fertilisation. The figures for potash are average for the region.

Profile # — is a soil with a completely different pedological history, compared with those profiles described earlier. It represents essentially an alluvial soil which is developed in the alluvium of a wadi bottom and it has been designated as yellowish brown alluvial soil on account of its dominant colour.

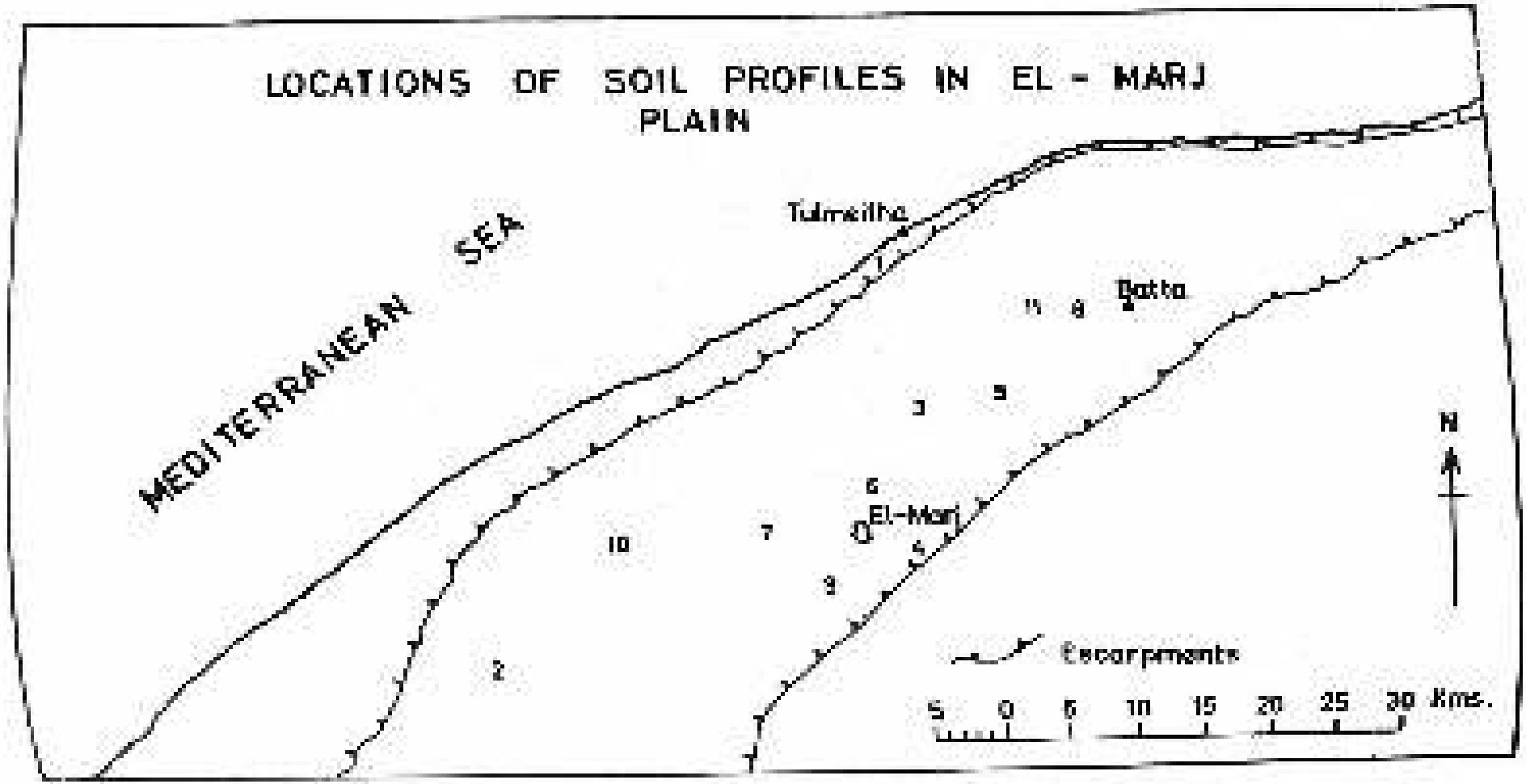
The analytical data shows several interesting comparisons compared with Terra Rossa soils. This is by far the highest soil according to texture which was met in the field study. The sand function is as high as 61% at the surface and 65.4% at 25 cms. thus giving the designation of sandy loam. The figures for total carbonate are also high being 35% at the surface and 36% at 25 cms. The fact that these high figures are found in such light textured soil would seem to indicate that there is quite a large influx of lime from the surrounding Jebel. The P$_H$ is still slightly alkaline at 7.2. Rather surprisingly the figures for cationic exchange capacity are the highest so far met in the area, being 42.25 m 1/100 gms. at the surface and 28.5 m. 1/100 gms. at 25 cms. This is probably due to the slightly higher organic matter status of this soil. Calcium and magnesium dominate the exchange complex much more than in the Terra Rossa soils and this is again reflective in the very low figures for the soil conductivity.

From the point of view of plant food elements the figures for total nitrogen are the highest recorded during the investigation. It is still low however, being 0.04% at surface and 0.03% at 15 cms. The figures for phosphates are higher than average, but those for potash are relatively low. This is rather surprising on account of the influx of moisture which must occur.

Profile 9 — is the fourth example of a deep red Terra Rossa soil and shows many similarities to those previously considered. The soil is sandy clay in texture and in its upper horizon as with other Terra Rossa is almost completely decalcified with a Ph. 7.4. The data for the cation exchange capacity is also very similar to Profile 2, and again calcium and magnesium are by far the dominant ions on the complex. Indeed, the conductivity of this soil shows that it has the lowest content of salts of all the red Terra Rossa. The conductivity is 0.77 millimhos/cm. at the surface and 0.60 millimhos at 23 cm. The total chemical analysis again shows the importance of iron and aluminium in the soil. From a point of view of available nutrients the figures 0.5 show the striking deficiency in nitrogen and phosphate already referred to, but the potash status is quite high for a Terra Rossa soil. This is probably due to the relatively high content of potassium bearing minerals in the sand function.

Profile 10 — is the only example for which analytical data have been gained of the shallow phase of the red Terra Rossa group. It consists of one metre of Terra Rossa material which has been accumulated on the Middle Eocene limestone. Again the soil texture can be classed as sandy clay and again the soil material has been relatively decalcified. The Ph. of both the surface and 25 cms. is 7.1. Rather interestingly this profile shows a higher saturation percentage. The cation exchange values are similar to those deep Terra Rossas. Calcium and magnesium are again the dominant ions. The conductivity of the soil is 0.9 millimhos/cm. at the surface and 0.6 millimhos/cm. at 25 cm. The sodium absorption ratio is again quite low.

From a point of view of available nutrients a similar picture


LOCATIONS OF SOIL PROFILES IN EL - MARJ PLAIN
MEDITERRANEAN SEA
Tolmeitha
Batta
El-Marj
N
Escarpments
5 0 5 10 15 20 25 30 Kms.

p given compared to the Terra Rossa soils. Nitrogen and phosphate are low and available potash is average. It seems therefore from this examination of these chemical analyses that within the ofile can be made between the deep and the shallow phases of the Terra Rossa group. It is likely that differences would occur at depth, but unfortunately no analytical data are available.

Profile II — Is an example of dark brown alluvium soil which is developed in a small bottom 6 kms. west of Ruthe. It is a sandy clay at the surface in texture and a clay at 25 cms. and it is likely that this profile shows a wide textural heterogeneity. It is noticeably true too that the silt fraction shows quite startling variations in the top 25 cms. being 12% at the surface and 24% lower down. It is also interesting that this profile has lost all its lime content, a very interesting contrast with the alluvial soil of Profile 5. The Ph, however is still slightly alkaline.

Calcium and magnesium are again the dominant ions on the exchange complex, and it is noticeable that this profile shows the lowest conductivity so far examined; these are 0.13 and 0.05 millimhos/cm. at the surface and 25 cms. respectively.

The most interesting aspect of the analytical data, however, is that which refers to the available nutrient status. It is worth noting that this is the only profile which was not taken from a cultivated area and it is the profile which shows the most complete and serious deficiency in plant food. At the surface there were recorded 0.005% nitrogen, 2.7 ppm for phosphate and 137 ppm of potash, at 25 cms. the figures were 0.005% nitrogen, 2.0 ppm phosphate and 132 ppm of potash. These figures illustrate the relative poverty of the soil as a medium for plant growth.

Soil-Land Use Relationships.

From a point of view of agricultural potential inherent in a soil profile and soil analytical data, a number of characteristic properties of the soils can be listed and a brief statement made on

[illegible]

[illegible]
by [illegible]

[illegible]

Lab. No.	Reference No.		Sand %	Silt %	Clay %	pH Units	Carbonates Acid Soluble as $CaCO_3$	Nutrient Elements		
								Total Nitrogen %	P_2O_5 ppm	K_2O ppm
606	1	[illegible]	Hor. A	60.0	7.8	32.0	7.60	10.40	0.60	47.8	162
607		"	" B	63.2	9.2	27.6	7.80	<5.20	1.04	111.5	384
608	2	[illegible]	Hor. A	66.0	6.6	27.4	7.15	8.30	1.05	10.3	442
609		"	" B	58.0	13.7	28.3	7.17	0.30	1.06	4.0	449
610	3	[illegible]	Hor. A	47.4	23.2	29.4	6.77	2.15	1.07	7.5	374
611		" " "	" B	56.2	3.3	32.5	7.01	0.20	1.10	4.1	399
612	4	[illegible]	Hor. A	67.2	7.2	25.6	7.42	0.70	1.40	10.3	385
613		" " " "	Hor. B	63.2	10.6	26.8	7.70	0.40	1.07	6.2	309
614	5	[illegible]	Hor. A	56.2	14.2	27.6	6.98	0.25	1.20	14.3	417
615		" " " " "	" B	58.2	7.4	27.4	7.10	0.30	1.17	10.3	350
616	6	[illegible]	Hor. A	69.2	7.4	23.8	7.25	0.30	1.52	14.2	1009
617		" "	" B	58.0	13.8	28.2	7.30	0.20	1.10	4.9	351
618	7	[illegible]	Hor. A	51.2	13.2	35.6	6.90	0.15	1.46	274.3	456
619		" " " " "	" B	48.2	30.2	21.6	6.50	0.15	1.25	71.3	349
620	8	[illegible]	Hor. A	61.0	10.3	28.4	7.45	29.15	1.37	119.3	372
621		" " " "	B	60.2	14.4	25.2	7.35	24.00	1.15	58.7	305
622	9	[illegible]	Hor. A	54.0	16.6	29.4	7.50	0.45	1.14	6.1	470
623		"	" B	50.2	13.5	37.0	7.90	[illegible]	0.85	4.4	309
624	10	[illegible]	Hor. A	52.4	12.6	34.4	7.30	0.15	1.29	7.5	373
625		"	" B	46.0	25.6	18.4	7.17	0.25	1.05	3.4	240
626	11	[illegible]	Hor. A	56.0	18.0	26.0	7.42	1.05	0.95	8.2	187
627		" " " "	" B	62.0	24.5	13.5	7.13	0.25	0.84	3.0	122

Lab. No.	Moisture %	Total Solub. in Sol. %	Total Ins. %	Fe_2O_3 %	Al_2O_3 %	Ca O %	Mg O %	Mn_3O_4 %	K_2O %	Na_2O %	P_2O_5 %	N %
606)	2.67	73.10	97.60	3.01	3.15	30.24	0.56	0.359	0.498	0.120	0.082	0.015
607)	1.57	55.56	31.44	4.57	4.21	25.62	1.00	0.364	0.114	0.267	0.039	0.012
610)	2.65	30.47	69.53	3.52	3.49	1.42	0.49	1.003	0.205	0.132	0.033	0.014
606)	2.93	33.73	67.27	10.45	10.19	1.32	1.27	0.368	0.514	0.197	0.085	0.014
624)	2.54	21.31	70.69	7.90	8.09	0.90	0.94	0.172	1.091	0.093	0.082	0.010
611)	2.69	22.75	77.25	7.08	5.25	0.45	0.47	-.151	1.041	0.088	0.051	0.015
623)	5.30	25.91	54.09	11.15	0.81	0. 92	0.88	0.150	1.102	0.098	0.054	0.022
629)	3.12	33.85	66.15	7.22	3.92	1.48	0.18	0.093	1.217	0.214	0.045	0. 19
627)	5.15	34.12	65.88	10.69	8.11	1.30	0.41	0.134	1.127	0.199	0.061	0.073
613)	3.18	37.59	62.11	11.28	10.32	0.96	0.05	0.136	1.174	0.181	0.038	0.024
614)	5.92	49.52	51.08	19.45	13.15	1.64	0.61	0.347	1.419	1.045	0.069	0.382
615)	5.10	60.21	39.79	11.89	15.88	0.58	0.60	0.194	1.556	0.311	0.251	0.055
617)	2.48	32.32	67.67	9.25	9.66	1.36	0.33	0.197	0.518	0.373	0.043	0.015
618)	3.53	41.87	58.15	12.44	14.70	0.96	0.57	0.293	1.343	0.151	0.027	0.035
620)	2.09	60.04	39.15	6.95	12.11	15.04	1.06	0.312	0.996	0.141	0.063	0.012
610)	5.27	63.09	37.90	7.09	8.30	22.12	0.06	0.341	0.754	0.243	0.046	0.093
630)	2.72	39.83	67.97	9.42	9.95	1.44	0.10	0.126	1.240	0.401	0.010	0.011
619)	3.74	35.47	64.53	11.02	9.54	1.12	0.35	0.225	1.131	0.212	0.017	0.014
622)	6.87	32.52	67.48	9.00	10.09	0.40	0.55	0.196	0.117	0.274	0.090	0.013
621)	3.77	36.21	63.79	10.86	10.30	0.64	0.89	0.194	1.051	0.155	0.025	0.011
628)	3.03	37.25	62.75	7.34	10.06	2.40	0.42	0.162	0.154	0.257	0.212	0.204
625)	5.21	58.22	41.78	11.21	12.35	1.36	0.55+	0.225	0.700	0.258	0.075	0.014

Lab. No.	Conductivity at 25°C Millimhos	Analysis of Saturation Extract				Gypsum Requirement Tons/Acre	Exchangeable Cations			Exchangeable Cations Percentage			S.A.R.
		Ca me/l	Mg me/l	Cl me/l	SO4 me/l		Ca me/100gm	Mg me/100gm	Na me/100gm	Ca	Mg	Na	
6681	1.15	1.91	.695	1.50	13.45	11.75	1.056	.574	2.475	25.9	14.1	60.6	2.14
6682	.75	4.15	.431	2.10	8.84	18.50	1.449	1.711	4.711	17.8	21.0	57.9	4.19
6683	1.99	3.19	.805	10.00	13.95	20.12	.993	.975	5.207	13.2	12.1	64.7	1.41
6684	.61	1.92	.721	4.40	6.68	15.79	.974	1.764	2.927	21.1	34.1	40.9	.97
6685	1.10	1.52	.450	3.00	9.09	15.00	.960	.78	1.835	31.1	25.2	43.7	1.11
6686	.15	4.35	.915	1.70	8.91	17.91	.715	4.765	1.385	8.1	73.1	18.9	2.15
6687	.58	2.70	.115	6.70	9.71	21.12	.905	1.121	2.115	21.1	21.2	51.2	1.25
6688	.87	1.85	.420	5.60	7.87	16.75	.985	1.100	2.715	22.2	24.5	53.7	1.11
6689	.14	1.49	.430	3.00	6.21	23.75	.735	2.151	3.060	24.1	48.5	27.1	.69
6690	.55	1.85	.530	4.00	6.79	26.25	.895	3.580	2.006	16.3	65.5	18.8	1.10
6691	14.50	84.55	2.109	59.00	110.00	27.50	2.475	2.009	2.701	51.1	41.5	8.1	12.18
6692	3.25	11.00	1.225	20.00	25.10	25.75	2.457	.791	2.171	54.4	17.1	28.4	4.15
6693	.96	2.70	.580	7.00	11.51	24.25	.536	1.102	1.621	21.9	54.4	24.0	1.44
6694	.52	1.10	.290	1.00	4.72	21.50	.561	.742	2.000	21.4	29.4	49.2	1.43
6695	.85	1.25	.295	4.10	7.44	45.00	1.454	1.445	2.176	29.7	29.5	40.5	.71
6696	.50	1.70	.280	3.40	4.49	12.50	1.256	11115	7.057	3.2	2.1	14.4	.79
6697	.77	1.80	.355	5.00	5.55	25.50	.577	1.137	1.777	1.9	3.9	10.5	1.01
6698	.63	1.85	.715	4.00	6.14	20.50	1.145	1.509	1.519	3.0	4.1	3.0	1.31
6699	.84	1.5	.430	5.00	7.76	20.75	1.015	1.131	2.065	4.5	4.0	5.9	1.33
6700	.59	1.20	.130	3.50	5.72	25.75	1.086	1.069	2.187	4.1	3.9	6.9	.93
6701	.69	1.40	.240	4.50	6.34	25.25	1.159	.483	4.965	4.4	1.9	17.9	.91
6702	.85	2.35	.181	4.40	7.30	30.25	1.240	.835	2.245	7.0	3.1	9.4	2.55

their effects on plant growth. From a point of view of the physical properties of the soils it has been already stated that the soils in Cyprus have a moderately heavy texture varying from a range of clay, sandy clay, and sandy clay loam. The clay contents are fairly high, i.e. up to 58% of the total mineral fraction, but these relatively high figures are generally adequately balanced by a much higher sand content. Thus, the textures of the soils are relatively good from the agricultural point of view, and under favoured methods of cultivation would be able to support quite intensive land use.

In addition with these moderately high contents and given the relatively high contents of aluminium and iron content, the structure of the soil also has inherent favourable qualities. However, under the prevailing intense Mediterranean climate there is a strong tendency for extremely hard and compact structures to form during the intense period of dessication. The clay content of colloids and sesquioxides is likely to be highly affected by the climate regime during the wet cleardent season and the soils are likely to be absorbent in moisture and very sticky whilst during the summer drought they tend to break up into extremely hard clods and soil pans with very obvious signs of soil cracking. With this annual unfavourable change in soil structural characteristics it can be imagined that the problems posed for soil practices are very great. In particular the nature and timing of ploughing operations is critical for the production of a proper seed bed. If the land is worked when the moisture content is high the ground is likely to be compressed and there will be a tendency for large clods to be formed. On the other hand it is mechanically impossible to plough many of these soils during the dry season when the soil is compact and extremely indurated. Working the land at this time of the year only produces very strong blocky units of an irregular size. The important point to emphasize here is that under the prevailing climatic regime the soil structures are extremely unfavourable to agricultural management, and under the prevailing agricultural technique there is always a strong tendency towards a structural degradation. This unfortunate condition as regards physical 'soil' fertility is very widespread in the arid

areas of the Middle East and therefore merit more attention in soil conservation.

One point that has to be remembered in this region as in most of the Middle East is that most soils have been utilized for millennia and the processes of degradation, especially those associated with the reduction of organic matter and the consequent effect on soil structure and texture, have had extreme results. It is therefore, more difficult to discover suitable tillage techniques and cultivation periods than in apparently analogous regions as, for instance, North America where conservation techniques are being applied at a much earlier stage in degradation.

The behaviour of moisture in the soils is, of course, of major importance in climatically marginal areas like Cyrenaica, but unfortunately very little data are available to give an accurate quantitative picture of the soil moisture situation in the area under study although the work of Micheli [7] in Benghasi Plain does provide some preliminary assessment to be made. The hydrological cycle is perhaps one of the major fields of investigation which should be carried out in the future in Cyrenaica.

However, from field observation and simple laboratory tests it is possible to outline the major feature of the soil moisture regime in the area. Undoubtedly a high percentage of the rainfall on Cyrenaica does not penetrate very deeply on account of the permeable layers and is readily lost by high evaporation in the summer.

From a physical point of view the soils under study have a very high capacity for absorbing moisture and in fact the saturation percentages are quite high ranging from 8% to 80.2%. Ultimately this means that the wilting percentages too are quite high and in fact Micheli[8] estimates that water in the soil becomes unavailable at a percentage moisture of 8.6%. This is very high percentage and points to the fact that most of the moisture in the soil is unavailable for plant growth.

In addition to the basic problem of the availability of moisture for plant growth, the water regime of the soils also presents

problems in the realm of soil structure and land management. The fact that some of the semi arid areas do provide such great difficulties in the maintenance of good soil structure is a very well known theme and one which is receiving a very great attention at the present time. Aubert(3) has underlined the advances and also the work to be done in this field.

From a point of view of chemical fertility of the soils, in particular the ability of the soils to provide necessary nutrients for plant growth, the picture is more straight-forward. The overwhelming fact which must be borne in mind in this regard is the extremely low organic matter in the soils. The organic fraction of the surface ranges from 0.86% organic matter in profile 11 to 2.4% in profile 8. In addition to the unfavourable effects on soil structure which these low figures bear witness, the main effect of this is the inability of the soils to provide enough nitrogen for intensive plant growth. This is a very common problem in semi-arid lands and points to the need for improved management practices with greater emphasis on chemical fertilization and the introduction of a leguminous crop in the farming rotation.

The laboratory analyses of available nutrients also indicates that phosphate is poorly available for plant growth. The figures for available phosphate are consistently less than 18 ppm except for Profiles 1, 7 and 8 where larger amounts were recorded. The fact that phosphate is so unavailable is most probably related to the high content of iron and aluminium in the soils. With a high content of iron, aluminium oxides, much of the phosphate will be fixed into unavailable iron and aluminium phosphate. The fact that Profile 1 has a higher phosphate status can probably be explained in terms of its lower content of sesquioxides, but the relatively high phosphate in profiles 7 and 8 are more difficult to explain. In the absence of any addition of fertilizers by farmers it is probably related to the mineralogical make up of the soils. Unfortunately this could not be verified by the laboratory analyses.

To summarize the fertility aspect of the soils under study it may be pointed out that such basic limitations as soil depth and

steepness which are often found in the Middle East do not present a serious problem in El-Marj Plain. The Terra Rossa soils are quite deep and provide an adequate rooting medium for plants and the limitations found are much more related to the system of management. In particular such physical characteristics as soil moisture regime and the soil structure conditions point to the need for careful and adequately planned management system, whilst the lack of the organic matter nitrogen and phosphate in the soil can again be remedied by rational management practices. There is no pedological reason to suppose that under a good management system the soils of El-Marj Plain should not prove particularly fertile.

REFERENCES

(1) Dolgushaiev, V.V. (1958), "The Problem of the evolution of the land in European and Asiatic Russia", Moscow 1958.

(2) Jenny, H., (1941), "The factors of Soil Formation", McGraw-Hill, New York.

(3) Ferrara, A., (1955), "Analisi di terreni delle Cheurses", Ins. Col. Ital. Florence.

(4) Principe, P., (1960), "Osservazioni su alcune terre rosse delle Cheurses", I.T.E. Ag., Rome. Caswell's translation, LATAS, Tripoli, pp. 85-101.

(5) Bellefontaine, A., (1947), "The Soils of Palestine", Thomas Whittles, C.T., London.

(6) Ibid. p. 41.

(7) Micheli, A., (1956), "Contenuto in umidità della "Terra Rossa" della pianura bengasina e sua variazione in rapporto alla lavorazione del terreno", Florence.

(8) Micheli, A., 'Report on the Agriculture of Cyrenaica', Roma., p. 13

(9) Aubert, G., (1952), 'Arid Zones Soils', paper of Unesco Symposium on the problems of the Arid Zones, Paris, pp. 335-356.

Francesco Gabrieli

Recenti studi di storia musulmana in Italia

Nonostante la presenza di due grandi nomi, Amari e Caetani, gli studi di storia musulmana hanno rappresentato sempre in Italia una cenerentola. Nell'insigne schiera degli orientalisti e islamisti italiani, anzi più vanno con quelli, nel passato e nel presente, che alla civiltà dell'Islam abbiano dedicato un interesse storico in senso stretto, preferendo studiarne piuttosto gli aspetti istituzionali, giuridici, artistici, e soprattutto religiosi. È facile poi l'osservazione che, costituendo l'elemento religioso la base di tutte le civiltà islamiche, è naturale che ad esso vada soprattutto l'interesse degli studiosi; ma ciò non toglie il fatto che nelle due grandi fucine italiane sopra ricordate (oltre una schiera di stranieri insegnanti appunto, nel passato, Wellhausen e Becker, Lammens e Horten, e più vicini a noi un Nallino, un Levi-Provençal, un Gabrieli, senza tralasciare anche quella caratteristica delle cui il musulmano medievale (ma non è probabile dire altrettanto di quello del Medioevo occidentale), abbiano lavorato e lumeggiato oltre a certo (specie nei primi quelli etico-politici, economici e sociali. In Italia, tutte queste due categorie eccettuate, la produzione più propriamente scientifica negli studi arabo-islamici è stata sempre quantitativamente assai scarsa, e scarso l'interesse dei nostri islamisti per i grandi problemi di storia generale che sfiorano o incidono nella storia musulmana: basti pensare che la tesi Firenze e la polemica economica sono oggi ben lungi da trovare qualche eco in lavori di studiosi italiani (1). Questa constatazione che ci hanno a cuore si

inaugurò a capo del nostro modesto bilancio, modesto quantitativamente, ché per la superiore qualità di taluni studi, e il medio livello di tutti, esso non aligna accanto alla cospicua produzione della islamistica straniera. Si potrà piuttosto osservare che, almeno per la parte più antica, gli argomenti trattati sono spesso, più che meramente storici, storico-religiosi, il che si spiega con la tradizionale visione accademica, della storia orientale e islamica in particolare svoltasi sub specie fidei: ma non senza che ai suoi alcuni indirizzi tradizionali, sotto quel comune denominatore, la varietà e molteplicità dei soggetti trattati, della storia orientale e islamica in particolare svoltasi sub specie fidei: ma non senza che ai suoi alcuni indirizzi tradizionali, sotto quel comune denominatore, la varietà e molteplicità dei soggetti trattati, delle diverse posizioni.

I limiti di questo nostro rapporto vanno dal '43 al '45, cioè all'incirca il periodo ventennale. Una abbondante copiosa trattazione generale di storia islamica potremmo incontrare in questo periodo perché composta e scritta primamente in veste italiana, anche se non italiano ne è l'autore, lo spagnolo E. Pareja: il quale nel suo vasto trattato di Islamologia ha dedicato alla storia politica di questa civiltà uno spazio che fuori, per la ragione accennata, non si sarebbe concesso primo d'ora uno studioso italiano (2). Più agili stanno generali di storia araba e islamica dovute a Laura Veccia Vaglieri, sono incluse in opere collettive come la «Storia dell'Oriente» sotto gli auspici dell'ISMEO, e la Storia universale di Vallardi (3); mentre disegni limitati a singoli popoli musulmani sono i volumetti su Gli Arabi di F. Gabrieli e l'Persiani di Alessandro Bausani (4). Ma da questa sia pur utile divulgazione, piuttosto che a lavori particolari. Se la vita breve donata a Michelangelo Guidi, prematuramente scomparso nel 1956, avesse avuto da lui un'opera d'insieme sulla Storia e cultura degli Arabi, cui lavorava apprezzatamente nei suoi ultimi anni, e che avrebbe rappresentato il frutto di una vita di ricerche e meditazioni in questo campo. Ma ciò che egli scrisse e compiere, e apparve come un postumo frammento (5), è la parte iniziale sugli Arabi preislamici, e la figura e l'opera del Profeta, in cui il Guidi ribadì taluni suoi idee e principi metodici fondamentali: nuova rivalutazione della tradizione per ciò che vuole il bagaglio arabo e la vita di Maometto, sostanziale originalità araba del suo messaggio, pur nutrito delle voci tanti monoteismo giudaiche e cristiane. Come avrebbe poi egli lucido

[illegible] conquiste e l'impero arabo (gli stessi storici lo definiscono un [illegible] rappresentabile di quell'interesse più storico-religioso che [illegible] politico verso l'antico mondo dell'Islam non si è dato ormai che raramente. Così come il nostro orientalismo, ma non [illegible] ancora intelligenza anche del passato, sta alla base della [illegible] della Vecchia Proprietà sul periodo delle origini islamiche, il primo scisma e le prime lotte civili (5). Ricordo giustamente apprezzato anche all'Estero, che costituiscono il maggior contributo della letteratura italiana nell'ultimo ventennio per questa più remota fase della storia musulmana.

Dalla scuola napoletana della stessa nostra epoca, che ha avuto altresì, per illustrare l'antiorientalismo problema delle origini del Khārigismo e della Shīa alidica, un gruppo di fiori [illegible] rimaste finora [illegible] per la luce ora più larga, sono usciti vari altri studi in argomento, di cui come più schiettamente [illegible] ricorderemo almeno uno dal suo albero a simbolo: Re[illegible] Bottini, sul califfo Abd al-Malik e gli Omayyadi (7); con [illegible] entriamo in pieno in quel secolo degli Omayyadi, oggetto delle classiche opere di Wellhausen e Lammens, e si direbbe quindi uno dei meglio noti e studiati periodi dell'antica storia del Califfato. Quanto possa ancor spigolarsi sul solco di quelle opere classiche lo prosciugare da contributi di studiosi come il Grohs [illegible] specie nel campo prosopografico da qualche più recente lavoro del [illegible] Madame Vasiliev di Costantinopoli, e sul primo conquistatore arabo d'Italia Muhammad ibn al-Qāsim (8), mentre altri miei studi omayyadi sono anteriori al ventennio in questione; e, in campo archeologico e storico-artistico, degli studi di cui è [illegible] Ettore Stella (9). Certo per l'età omayyade le linee essenziali e [illegible] molti di particolari sono stati fissati da quei due grandi storici [illegible] principio del secolo con così ferma mano, da non lasciare agli [illegible] spigoli che un lavoro marginale, giustificato sempre dal fascino particolare di quel periodo, la primavera dell'Arabismo e dell'Islām congiunti, allora in piena espansione.

Assai più vasto e libero campo offre tutto il periodo successivo, quell'età abbaside che si stende per cinque secoli, quel lungo ponte fra le origini dell'Islam e il nostro tardo Medioevo, e

che vide il più marcato fiorire, l'inizio e la già iniziata decadenza della civiltà musulmana. Una completa storia analitica dell'epoca abbaside, fondata sulle fonti, è ancora da farsi, e solo singoli settori ne sono stati anticipati, come nella vasta storia del visirato dei Barmecidi. Per quanti riguarda il più recente contributo italiano, citiamo accanto gli eccellenti studi di S. Moscati su cinque figure di califfi (al-Mahdī, al-Hādī, anche sul grande agitatore e propagandista Abū Muslim che portò la rivoluzione abbaside alla vittoria, e altri episodi della preparazione e inizio di quello stesso rivolgimento [10]. La cronaca ci annuncia di una prossimamente ogni intervento, per essere l'autore già tutto dedito ad altri campi della scientifica, dapprima coltivati in parallelo con questi nostri: i saggi da lui pubblicati su queste e quasi abbasidi, e quello sulla più antica Siria [11], mostrano la competenza d'intermediario e l'acume critico propri di questo studioso in ogni campo del suo lavoro, e fanno più rimpiangere che la sua opera si sia più venuta meno: accompagneremo a qualche più vasto nostro studio su questo periodo, cosa segna alcune linee di una nuova storia anche dei secoli almeno del primo secolo abbaside; e di un tal contributo italiano l'islamistica straniera (Brunot, Caben) che più attivamente vi lavora, ha mostrato di tenere il giusto conto. In questa prima età abbaside si continuano d'altro canto gli interessi e le ricerche di orientalisti musulmani cui abbiamo già accennato, fecondi capo alla Vecchia Voglieri e le stesse dobbiamo un importante studio sulla sopravvivenza del Kharigismo in epoca abbaside [12], un cui episodio è stato ulteriormente illustrato da G. R. Smyrna [13]; e le spetta uno studio sulla prima rivolta alidiche sotto gli Abbasidi, indagato da una diversa di E. Italia [14]: tutti lavori in cui l'intreccio talvolta inestricabile di religione e politica in questa storia musulmana non si evidenzia direttamente.

Ma la storia medievale dell'Islām non si svolse solo nelle terre, Asia Anteriore, svolse dalla storia dell'Occidente stesso. L'Islām abbaside infatti i rapporti soggiungibili (in una sufficiente documentazione storiografica) fra l'Oriente e il Regno islamico, e l'Occidente latino: storia della Spagna e della Sicilia musulmane, interessi anche in Francia e in Italia, storia mediter-

la totale estinzione (18). Tra gli ultimi e meno noti frutti della produzione di Amari sono gli scritti sulle lotte di Genova e Pisa nel Tirreno contro i Musulmani e per questo parte all'interno di riattizzare lo studio risorgimentistico che sul Korgetto e Mugiahid, il signore di Denia e conquistatore della Sardegna, di lui solo anni fa lo arabo Dezia Cinque Sarnelli. A cui altre poderose ricerche portarono il persistente interesse per la storia meridionale e arabo-spagnola. (19) Siamo ormai all'XI secolo, alla vigilia delle Crociate. Nel moltiplicarsi della letteratura storica su di esse in questi decenni (ricorderemo la storia a collaborazione multipla di Hallelia, e quelle individuali del Runciman, del Wess della Olderburg, e la recentissima di E. Cahen), può anzi dirsi assistere un decino d'anni fa a rivelatasi utile per gli studiosi non orientalisti (20). Il vecchio Recueil parigino è oggi in gran parte superato per la quantità e qualità delle nuove fonti musulmane rese note, e l'indagine storica odierna non può ignorare l'opera del Gibb, del Cahen, del Lewis, del Rosenthal, del Grunebaum, sui personaggi e momenti di quel periodo viste con critica analisi delle fonti musulmane. Per parte nostra, ci sia permesso accennare ancora a due piccoli studi usciti su **Federico II e la cultura musulmana** (21), e sulle **Ambascerie di Balduino a Manfredi** (22), oltre al capitolo d'insieme sulla Storiografia araba delle Crociate, tutti compresi da quella nostra ambiguità (23). Durante l'età delle Crociate il califfato abbaside è in dissoluzione, e prima che esso finisca si spegne del tutto l'Arabismo si va politicamente sotto protagonista dell'Islam, e gli succede in sempre maggior misura l'elemento turco. È il periodo in cui declinati ogni superstite parvenza dell'originario Impero arabo-islamico, sorgono sempre più in primo piano i suoi eredi: l'Impero ottomano, e gli Stati che esso progressivamente si va opponendo: Bukhariani e i Persiani.

La storia politica della Persia musulmana non ha finora destato l'interesse della nostra riflessa inventiva, salvo forse per l'età moderna del migliore ritratto di Romani, Scarcia (24); la storia ottomana, dopo il compianto Albert Rose, si è invece occupata con originali ricerche Alessio Bombaci, tra l'altro con uno studio su **Venezia e l'impresa navale di Otranto** (25), che fu molto apprezzato dal maestro un contributo di questi studi, il

pio[illegible] di Maometto II Fatih Bahingre. Più numerosi però sono i contributi italiani, orientalistici e no, per l'epoca e ambiente [illegible] dallo studio di Maria Nallino sulle relazioni fra Genova e il Marocco nel sec. XVIII (36), ai numerosi lavori di A. Rizzitano sulla Tunisia barbaresca (37), fino al libro di S. Bono su I corsari barbareschi (38), condotto su una scrupolosa documentazione di parte occidentale, che inquadra rettamente il fenomeno della corsa nella storia geopolitica del Mediterraneo, e ne intende i fondamenti giuridici entro il concetto musulmano della guerra santa e pirica.

Con l'età e sei più varia e coeva, muta radicalmente lo studio della storia islamica, anzi ci si può domandare se di storia islamica si può ancora parlare, se non nell'ovvio senso di una storia dei singoli popoli musulmani: giacché il loro comune denominatore, se ancora se ne può ancor trovare, non è più tanto il vincolo religioso quanto la nuova idea-forza del nazionalismo (qawmiyya). Citando impudentemente ancora una volta noi stessi, ricordiamo il nostro tentativo di tracciar le linee direttive di un tale processo nel libretto divulgativo arabo (39), e anche più di recente nell'espressione ("Il mondo arabo nell'ultimo cinquantennio") alla versione italiana della History of the Arabs del Hitti (40). Questa pretesa, che partendo dagli ottocenteschi ideali di libertà e dunque anche e spesso slegando in quelli assai diversi del socialismo italiano, è possibile seguire per quasi tutte le regioni del mondo islamico, arabo e non arabo. Ma senza cui pretendere oltre in disegno d'insieme, preferiamo che esistono già in Italia buoni [illegible] sezionali di storia moderna di popoli islamici, come quella sull'Egitto moderno di P. Minganti (41) e quella sull'Algeria del Bianco (42), cui presto si aggiungerà, pubblicato presumo a cura dell'Istituto per l'Oriente, ampie cronache non prive d'acutezze in studio presenta inoltre leggersi su tutti gli eventi Stati musulmani nella rivista romana Oriente Moderno, da quasi mezzo secolo assiduo osservatore e commentatore della vita politica e spirituale di tutti i paesi orientali su cui si è imperniato il sogno dell'Islam.

* * *

Giunti alla fine della nostra rassegna possiamo domandarci i quali campi e in quali direzioni sia preferibilmente da avviare in futuro ricerca. Sarà ovvio premettere di poter ad un composto fusione sostanziale tra la preparazione filologica, cioè l'accesso diretto alle fonti, e lo schietto interesse storico, anche storico religioso se si vuole, ma rivolto non meno alla storia politica, economica e sociale. In quest'ultimo campo in particolare, che solo di recente ha preso anche nel settore islamico un promettente sviluppo, il contributo italiano è stato finora quasi assente per quanto riguarda l'Islam mediterraneo (una lodevole eccezione è il recente studio di Iole Rosa Di Meglio sul commercio arabo con la Cina) [82], e anche chi come il sottoscritto si sente particolarmente motivato da questo ricordo non perciò ne scorge meno la legittimità e necessità. Ma tutta la storia, economica e no, dei cinque secoli cruciali, chiave e cuore della civiltà islamica del Medioevo, attende ancora una paziente, sistematica trattazione; e non sono quelli dei secoli di decadenza dell'Islam arabo. Vedi per Marocco, d'Egitto ad esempio (sul quale segnaliamo l'iniziato attraente studio di K. Hedlund, sui suoi rilievi nei Mari di Marco Sanudo) [83], e quello del periodo ottomano. È una verità sgradevole per noi italiani ma non perciò meno vera, che molte malsicure indicazioni e mal comprese attinenze alla storia dei nostri rapporti col mondo musulmano giacciono nei nostri archivi e biblioteche, e in più d'un caso studiosi stranieri ce le vengono a dare adeguata notizia (ne dette esempio la notazione del Bombaci sui documenti ottomani dell'Archivio di Venezia). L'altro campo ancora in gran parte da dissodare è quello della storia contemporanea, dei vari popoli e stati a popolazione islamica, ove certo è più facile tracciare linee generali anziché ricercare pazientemente l'enorme materiale della cronaca e pubblicistica recente, ricavando da tali materiali grezzi la storia, come ha fatto B. Lewis per la moderna Turchia. Questi ed altri più ampi i compiti della più attuale Late Ant

Note

(1) Si veda il nostro studio Arabi e Berberi nel Mediterraneo centrale, in "Bull. della Soc. Storica Italiana per il Medio Evo", n. 70, 1958, pp. 31-46 (poi ristampato nel volume: Islam nella storia, Bari 1966, pp. 39-55).

(2) P. PARESA, Islamologia, Roma 1951 (prodotto per ora più lingue. L'ultima edizione è in francese, Beirut 1958). La trattazione storica occupa circa una metà dell'opera intera, cioè circa 500 pagine.

(3) Le civiltà dell'Oriente, III (Storia), Roma 1958, pp. 1064-1081; Storia universale, LII, 2, Milano 1957 pp. 1284-1346.

(4) F. GABRIELI, Gli Arabi, Firenze 1957; A. BAUSANI, I Persiani, Ibid. 1962.

(5) M. GUIDI, Storia e cultura degli Arabi fino alla morte di Maometto, Firenze 1951.

(6) L. VECCIA VAGLIERI, Il conflitto Alī-Muʿawiya e la secessione kharigita esaminati alla luce di nuovi documenti, in "Annali Istituto Orientale di Napoli", n.s. IV (1952), pp. 1-88. Accanto a questo importante lavoro (di cui però speriamo che si sentiremo tutti di accettare), non si dimentichi della stessa autrice molti impegnativi articoli prosopografici, nella 2ª edizione della Encyclopédie de l'Islam p. es. v. Al e Fatima,

(7) S. RUBINACCI, Il califfo Abd al-Malik ibn Marwan e gli Ibaditi, in "Annali Ist. Orientale di Napoli", n.s. V (1953), pp. 29-172.

(8) F. GABRIELI, L'eroe omayyade Maslamah ibn Abd al-Malik, in "Rendiconti Lincei", ser. 8, V (1950), pp. 52-59; Muhammad ibn Qasim ath-Thaqafi e la penetrazione araba nel Sind, ibid., ser. 8, XX (1965), pp. 345-62, quest'ultimo anche nel citato volume L'Islam nella storia, pp. 69-85.

(9) V. SIRURA, La formazione dell'iconografia del Califfo nell'arte omayyade, in "Annali Ist. Or. Napoli", n.s. XIV (1964), pp. 127-57.

(10) S. MOSCATI, Studi storici sul califfato di al-Mahdi, in "Orientalia", n.s. XIV (1945), pp. 301-354; Nuovi studi storici sul califfato di al-Mahdi, ibidem, XV (1946), pp. 156-70; Ie califat d'al-Hadi, in "Studia Orientalia", XIII (1948), pp. 1-28; Studi su Abu Muslim, I-III, in "Rendiconti Lincei", ser. 8, IV (1949), pp. 328-83 e 474-98, V (1950), pp. 69-105; Les massacres des Umayyades dans l'histoire et dans les fragments poétiques, in "Archiv Orientalni", XVIII (1950), pp. 60-155; Il battesimo di Abu Hashim, in "Riv. Studi Orientali", XXVII (1952), pp. 38-46.

(11) S. MOSCATI, Per una storia dell'antica Si'a, in "Riv. Studi Orientali", XXX (1955), pp. 231-67.

(12) L. VECCIA VAGLIERI, Le vicende del Harigismo in epoca abbaside, in "Rivista Studi Orientali", XXIV (1949), pp. 31-44.

(13) G. SCARCIA, Lo scambio di lettere tra Harun al-Rashid e Imam al-Hadi secondo il "Ta'rikh-i Sistan", in "Annali Ist. Orientale di Napoli", n.s. XIV (1964), pp. 425-43.

(14) L. VECCIA VAGLIERI, Divagazioni su due rivolte alidi, nel volume A Francesco Gabrieli, Roma 1964, pp. 335-50; U. TRAINI, La corrispondenza tra al-Mansur e Muhammad "an-Nafs az-zakiyyah, in "Annali Ist. Or. Napoli", XLV (1984), pp. 273-89.

(15) G. MUSCA, Carlo Magno ed Harun al-Rashid, Bari 1968; L'emirato di Bari (841-871), Bari 1968 (2 ed. 1967).

(16) G. LEVI DELLA VIDA, La corrispondenza di Berta di Toscana col califfo Mutawakil, in "Rivista Storica Italiana", LXVI (1954), pp. 21-33, ora anche nel volume Aneddoti e svaghi arabi e non arabi, Milano-Napoli 1955, pp. 39-44.

(17) Il mondo islamico al tempo di Federico II, in Atti del Convegno Intern. di Studi Federiciani, Palermo 1956, pp. 149-61, e nel cit. Aneddoti e svaghi, pp. 45-57.

(18) U. RIZZITANO, Nuove fonti arabe per la storia dei musulmani di Sicilia, in "Riv. Studi Orientali", XXXII (1957), pp. 181-93; Gli Arabi in Italia, nel volume L'Occidente e l'Islam nell'Alto Medioevo (Atti del XII Convegno di Spoleto), Spoleto 1965, pp. 91-114. MOLTI altri lavori dello stesso autore trattano di geografia araba sulla Sicilia e l'Italia, e personaggi "siciliani" di origine cioè o vissuti a lungo nella cultura islamica dopo l'XI secolo. Attualmente, nel quadro della collezione, che sarà praticamente un rifacimento della Biblioteca arabo-sicula, La Storia dei Musulmani di Sicilia, curata e tradotta e curata da U.R. Bell'Orm. Catania 1933-1939.

(19) C. SAHNOUN CERQUA, Mutahid al-Amiri, Cairo 1961; La vita intellettuale a Denia alla corte di Mujahid al-Amiri, in "Annali Ist. Orientale di Napoli", XV (1965), pp. 357-422;

(20) Scritti arabi della Crociata, Torino 1957, 2 ed. 1968.

(21) in "Rivista Storica Italiana", LXIV (1962), pp. 5-18, poi nel volume Del mondo dell'Islam, Napoli 1964, pp. 127-53.

(22) in Studi medievali in onore di A. De Stefano, Palermo 1956, pp. 215-25, e poi nel volume Saggi orientali, Caltanissetta Roma 1963, pp. 93-106.

(28) Nel cit. volume L'Islam nella storia, pp. 185-216 (già edito in inglese in Historians of the Middle East, Oxford 1962, pp. 90-107).

(29) curare e tradurre La Vita di un testo storico (Ibrāhīm greco del lungo titolo in premessa) su Una cronaca turca sotto i Kadiri di Lewgman nell'anno 1552, Roma 1955.

(30) in "Rivista Storica Italiana", LXVI (1954), pp. 153-228.

(30) in "Rivista Studi Orientali", XXI (1947), pp. 51-70

(31) vedili elencati nel volume compilato a cura della Commissione italiana per l'Unesco : Contributo italiano alla conoscenza dell'Oriente, Firenze 1955, pp. 191-92.

(32) Torino 1931, su cui si veda il nostro articolo in L'Islam nella storia, pp. 135-55.

(33) Torino 1968, tradotto in inglese e tedesco.

(34) Ph. Hitti, Storia degli Arabi, Firenze 1956, pp. 889-900.

(35) P. MINGAZZINI, L'Egitto moderno, Firenze 1956, pp. 869-901.

(36) E. RAINERO, Storia dell'Algeria, Firenze 1960.

(37) E. ROSSI DI BORGHO, Il manoscritto arabo con la Cina della Cahiliyya al X secolo in "Annali Ist. Orientale di Napoli", XIV (1964), pp. 329-55.

(38) M. MALLINO, L'Egitto dalla morte di Qait Bey All'avvento di Qansuh al-Ghuri (1496-1501) nei diarii di Maria Sanudo, in "Rend. Linncei", ser. 8, XX (1965), pp. 434-68.

Landed property and economic change in Tripolitania

By Dr. E. Mc Laclan

School of Oriental and African Studies, London University

One of the many problems facing the planners who are formulating the second Libyan national development plan is the improvement of agricultural productivity. It has been suggested by Libyan economists that a major obstacle to development of the agricultural sector is the continued state of land holding. (1) The paper will discuss the present situation regarding land holding and the nature of fragmentation against the background of economic change.

There are three zones of land holding in Tripolitania, corresponding roughly with the three natural regions into which the country is divided according to the incidence of rainfall. The inland uplands, a series of discontinuous scarps running close to the coast, constitute the first and most important region. Here rainfall is greater than 350 millimetres in an average year and water is available for irrigation from a shallow water table. South of the scarps, the littoral steppe lands run between the foothills of the interior and the coastal oases or, in places to the sea itself. Thirdly, there is the open steppe of the arid interior.

---

1 — Ahmad M.M. and Ariqat, A.A., 'Analysis of available agricultural data in relation to agricultural production and planning', Technical Memorandum, 1968, Five Year Plan 1968

In the oasis garden area, most of the land is held under private title at the present day. In the littoral steppe some private ownership by both individuals and tribal groups is the general rule. Lands of the open steppe are held by the Government of Libya, but over large areas occupation by tribal groups has resulted in the practice of communal land holding. Much of the following discussion will refer to the situation concerning land holding in the first two regions.

In the centuries before the Arab conquest of Libya, that is before the ninth century A.D., economic activity in Tripolitania had been concentrated in the fertile oases and hill areas of the north. All available evidence indicates that the resources of these northern areas supported a prosperous and sedentary society engaged in cereal cultivation and orcharding. (2) The Arab conquerors of the ninth and eleventh centuries laid waste the agricultural areas and assimilated surviving human groups to their nomadic economy. (3) Thus at the close of the twelfth century, the oases and steppe were united to form a continuous grazing land held by nomadic herding groups.

Since the migration cycle of the nomadic groups is based upon the availability of pasture in different climatic regions at different times of years, the Arabs introduced a simple recognition of different natural regions into Tripolitania. The oases and hill areas of the north were used as refuges during the long and dry summer and as areas of supplementary cropping for grains and tree crops. The early autumn and spring customs of the open steppe each gave rise to further regional specialization. Accordingly, most tribal groups occupied lands lying along a north-south axis beginning in the oases of the north, passing through the littoral steppes, and ending in the open steppe of the south. The broad division of land use zones which emerged from the Arab

---

2 — Ibid, A., "Orcharding in Tripolitania", Annual Report of the Libyan Desert Mission, 1951

3 — Evans-Pritchard, E.E. "The Sanusi of Cyrenaica", Oxford at the Clarendon Press, 1949

During the era which began with the Arab conquests and closed in 1911 with the collapse of effective Turkish rule in Libya, communal ownership of land was associated with annual division of tribal territories among the members of the tribal groups. Each member was allotted a number of parcels of land, each located on one of the various types of land within the tribal boundaries. Each individual's parcels were intended to compensate for the differing land use qualities, i.e. grazing land, arable land, wasteland or palmery. Annual re-distribution of lands was necessary to take into account variations in the size of the nomadic group and in the pasture needs of each group over time. All male married members of the tribal group had an inalienable claim to a share of the tribal domains as a personal right and not through inheritance of a father's share. Thus any increase or decrease in the number of families was reflected in the annual division of lands. Similarly, flock numbers owned by each family tended to fluctuate widely with variations in herding skill and luck and the uneven incidence of drought conditions throughout the tribal lands. Hence the pasture needs of the individual herding group tended to vary from year to year, often to the degree where the loss of livestock eliminated sections of a tribe from the nomadic cycle.

The nomadic system and the land holding pattern associated with it was losing much of its vitality by the close of the nineteenth century. Relative peace and order under the Turkish administration had encouraged permanent settlement in the more fertile coastal and hill lands of the north. Many tribal fractions and even whole tribes, had built semi-permanent dwellings in the oases and had undertaken simple land reclamation works. There was a natural tendency for the owners of the constructions to retain the land on which they were built from one year to another. By the close of the nineteenth century, annual re-distribution of oasis lands in the north was no longer practiced, although herding seasons in the steppes continued.

The trend towards settled farming was encouraged by the Turkish administration. Communal land holding had been officially discouraged since the early years of the nineteenth century, when the Turks had first invaded Libya. Taxation in the subject territories had been scheduled on the basis of the individual rather than the tribe, and the existence of unknown number of tribesmen working over vast areas made administration difficult and often impossible. Early in the eighteenth century it was asserted that there was no legal necessity for a man or woman to own a specific piece of ownership. But declarations of this kind promulgated in the Ottoman capital appear to have had no immediate influence on the Tripolitanian tribal organization.

In 1858, the formulation of the Ottoman Land Code explicitly forbade joint ownership by tribes or similar groups. These laws could be enforced only in the northern areas of Libya, since the country was on the margins of Turkish military control. It is apparent, however, that the accumulated force of legislation and the action of local officials in Tripolitania had undermined the tribally communal system by the end of the nineteenth century. In the larger oases of the north, particularly in the environs of Tripoli, many individuals had registered their lands with the Turks. In outlying areas such as Misurata, this trend was less marked, but even here some five per cent of owners had registered title to oasis lands.

The trend towards individual ownership of land in the northern areas culminated in the land divisions of Tripolitania mainly in the years 1921 to 1934. Transfer from communal to individual ownership was accomplished by the traditional method of dividing the land by its land use quality and distributing a parcel of each kind of land to each family. This is reflected at the present time in the dispersal of farm holdings over wide areas within the tribal lands and the existence of a large number of non-contiguous fragments of land making up one holding. In Tarhuna Oasis, for instance, there are seventeen parcels of land. (4) In Tripolitania as a

4 — Lindberg, 1957. "Report to the Government of Libya on economic and other data relevant to the land reform", FAO, report 57, 308 Rome 1958.

ahdid, the average holding is made up of nine parcels, with a range from a minimum holding of two parcels to a maximum holding of 44 parcels. (5) In Tripolitania, fragmentation of land was an initial state of existence for farm holdings resulting from the division of land during the evolution of private property from its communal pattern of ownership. At the present time, 66 per cent of the total area of private agricultural holding is owned by the former tribe works it, 28 per cent is held under tribal ownership and three per cent is held under rental. (6)

An interesting effect of the late transition from communal to individual ownership is that land holding retains a relatively egalitarian aspect even today. Throughout Libya farm size varies as follows: —

Area of farm holdings in Libya — by size groups (7)

Hectares	Number	Per cent
Less than one hectare	11,224	8.1
one to ten	58,583	38.6
ten to twenty	27,067	19.4
twenty to fifty	29,282	21.0
more than fifty	14,191	10.0
TOTAL	135,365	100.0

This feature is even more remarkable if oasis land only is taken into account and land in the dry-land steppe eliminated from the totals. In Zavia Oasis, in the west of Tripolitania, the following picture emerges: —

Area of irrigated farm holdings in Zavia — by size groups (8)

---

5 — Ahmed and Ahmed, op. cit.

6 — Agricultural Census of Libya, Tripoli 1954.

7 — Ibid.

8 — Tamburini, op. cit.

Hectares	Number	Per cent
Less than one	43	62
1.1 to 2	18	26
2.1 to 3	3	4
3.1 to 4	3	4
4.1 to 5	0	—
5.1 to 10	2	3
10.1 to 15	1	1
TOTAL	70	100

All the farmers interviewed at Zawia owned cash land and only three men varied substantially from the average level of ownership. All farmers were resident upon their lands, and it is worthy of note that absentee land-lordism was very uncommon in Tripolitania. The use of Khamsa (5) contracts has become more widespread since that time implying an increase in absentee-landlordism, though of the least pernicious kind.

The reasons for Tripolitania's atypical situation regarding distribution of land amongst rural peoples, particularly vis-a-vis other Arab states of the Maghreb and the Middle East, lie in the peculiar conditions and timing of the sedentarisation process. Sedentarisation took place at the end of a long period of social and economic evolution and was associated with a highly distinctive geographical milieu, that is the fertile coastal and hill lands of the north. The division of these lands into individual holdings was achieved by general consent amongst the communal groups and according to traditional practice. It must be emphasised also that this allotment of lands amongst the tribal members took place only half a century ago, and the operation of fragmentation by inheritance, which will be examined in greater detail later, has not been the sole decisive factor.

---

5 — Khamsa : A contract under which a farmer may develop, mainly orchard, areas of land owned by another person. The land is normally divided into two equal parts and developed with the farmer taking one half and the owner the other.

political factors have been important in hampering the rise of a strong landlord class in Libya. Within the tribal organization the sheikhs of Tripolitania have rarely assumed undisputed control or anything but some over the group as a whole. Traditionally, the sheikhs were appointed by the tribal members or had to gain acceptance by the majority of members as a basis for their position instead of the reverse. In theory, and often in practice, the sheikhly authority was responsible only for dealings between one group and another group of the same status. Thus the tribal sheikh represented his tribe to sheikhs of other tribes in times of warfare or at tribal gatherings. The settled political conditions which prevailed in the nineteenth century along the littoral reduced inter-tribal strife and thereby removed the necessity for the role of strong and united tribes led by sheikhs.

The hostile nature of Turkish military control in Tripolitania during the nineteenth century was reflected in a characteristic location at the geographical margins of the northern areas. Such characteristics were caused by the use of strong tribal groups and confederations of tribes in the outlying areas in order to restrain the power of the tribes in these areas. The Turks were at great pains to limit sheikhly authority by intervention, bribery and refusal to deal with communal groupings. Thus at the time of the pacification in the northern oases and hill lands, the pacification in the northern oases and hill lands, the Ottoman administration in Tripolitania was unwilling to accept registrations of tribal land in the name of the sheikh. Following the edicts of 1858, each member of the tribe was personally responsible for registering his own land, and for political reasons these edicts appear to have been enforced strictly.

Following the Italian occupation of Libya in 1911, the sheikhs assumed a much important role in colonial affairs than had been the case under the Turks. In most early administrative districts, the colonial administration sought to rule through the sheikhs. The Italians viewed the sheikhs as being vested with some political power in the tribe and also ownership rights to tribal land. This distinction was not affected in any material change in the position of modernity for several reasons. In the first place, there were no commercial

negotiations of land during this early period of occupation. More important perhaps, Italian policy was soon changed, since the Arabs led the Tripolitanian revolt against the Italians during the First World War, when Italian forces were driven back into one or two fortified enclaves along the northern coastal fringe. On pacification of Tripolitania in the early 1920's, the Italian administration undertook a policy aimed at removal of Arab tribal influence from all sectors of tribal government. The lands of dissident Arab tribes were converted to State domain or sold. By the early 1930's the Arab tribes had ceased to be of importance as a land owning group.

The present-day pattern of land ownership in Tripolitania is characterized by a relatively even distribution of land amongst rural peoples for the reasons outlined above. But it has been indicated that the allotment of land amongst tribal members was conducted on traditional principles whereby farm holdings were dispersed over wide areas and often made up of a large number of non-contiguous fragments. Obviously, the division of land according to the principles evolved under a herding economy is going to affect many problems in a society whose major economic interest after land division and sedentarization is arable farming and orcharding. Before discussing these crucial matters it will be necessary to examine the nature of the fragmentation of holdings and explain some aspects of terminology.

The following major points arise with respect to fragmentation in Tripolitania. The descriptive word "fragmentation" is used without any genetic connotation. The process of parcellement is the division of land holdings into small holdings for inheritance purposes. The process of recollement will be regarded as the subdivision of each of several parcels constituting a single holding into smaller holdings for inheritance purposes. An example to illustrate the difference between the two processes should clarify the position. If, for example, a farmer had six plots of land making up his agricultural holding from the time of the division of the tribal lands, which he intended to leave to his six sons at the death or at their marriage, he would be faced with two alternatives. Either he would give each of his sons one plot of land — which would be parcellement — or, he would divide each of his

or plots of land into six sections and give each son one section of each of the original plots of land — this would be uneconomical.

The operation of Islamic land law in Tripolitania gives rise only to the parcellement process. Abandonment arises from traditional practice originating in the nomadic herding economy. It has been shown that the nomadic groups use annual redistribution at least to accommodate changes in population numbers and flock numbers. In nomadic society, land was allotted to tribal members on its local use quality so that each member had use of various pastoral grazing lands, primary arable dry-land and orchard land allotments were further fragmented for dimatic reasons. The incidence of rainfall in Tripolitania is such that even areas in close proximity receive significantly different amounts of rain in any year. Thus, as an insurance against failure of crops in pasture in one area, nomadic groups would have rights to similar land use areas in different localities. The tribal groups at the time of settlement took these same precepts to the northern areas and hill lands, where, combined with the emergence of individual land ownership and sedentary farming, they have produced the pattern of abandonment which is apparent today.

Here it will be relevant to discuss those elements in Islamic land law which pertain to fragmentation as they operate in conjunction with local custom. It is usual that the death of a land owner is followed by the break up of his estates. In Islamic law as operated at the present time, a personal estate, no matter how small, may be left to any number of beneficiaries. Generally the widow has first claim upon some 25 per cent of the total estate usually taken in goods not land, while the residue is normally divided in the ratio of two to one between sons and daughters. In the case of a landowner leaving neither wife nor progeny, his estate is divided among all relatives having claim upon it. It would be unusual in Tripolitania for there to be one beneficiary of an estate, since grand-parents are recognized neither by law nor custom. Families are large, averaging from five to six children per family, hence it is unusual for one child to inherit the whole

of his father's property by virtue of being an only child. [10]

The division of a farm holding need not necessarily take place at the death of a land owner. Following Lamadir tradition, sons may take their share of land when they marry and move out of the family dwelling. Two important effects result from the original family and common ownership of his share of his father's land, as the opportunity for enlarged family farming operations is reduced and the new farm is separated physically from the family home. In the second place, if there are three sons in the family when the marriage of the eldest takes place, then the division is done on the basis of one third of the lands each. But it has happened that after the first or even second son has married, the father's second wife has produced a younger generation who have equal claims over the estate. Thus the remaining estate is subject to further division amongst the rest of the family.

In many, but not all, of the cases of Tripolitania, land inherited by daughter is farmed as an integral part of the family estate until she is married and bears a son. After the birth of a son, the land may become his property. Thus if a female marries outside the tribe the land will then constitute a parcel belonging to a man whose main lands lie in a different area, perhaps many miles away. Where this system operates it adds to the greater dispersion of land property.

The continuing practice of nomadism in Tripolitania may be accounted for by more practical reasons than social egalitarianism and custom. To understand the factors which underlie the presence of the nomadism process in the modern land ownership pattern, it is necessary to take notice of the environmental characteristics of the Tripolitanian coast and hill lands and the kind of agriculture which prevailed there in the period following sedentarisation of the tribes, that is, pre-1911.

The climate of the northern coastal and hill lands of Tripolitania is characteristically Mediterranean in type. The area has a mild winter when the greater part of the rainfall is experienced. Spring

10 — Census of Libya 1954, Department of Census and Statistics, Tripoli.

a narrow and drier, and is followed by an intensely hot and dry summer. The arid features of the climate are mitigated to some degree by the availability of sub-surface water supplies at shallow depth which are present throughout the year. In this environment, small areas of land under irrigation can be made to produce a large variety of crops and fruits. The nomadic herding groups have taken advantage of this situation as they gained interest in sedentary cultivation.

Mixed farming in the northern littoral of Tripolitania has been a natural response of a subsistence-level community to the possibilities offered by the land resources.

Here it is here again that the problem of fragmentation enters directly into the argument, since movement allows the division of different types of land so that the broadly-based activity of the self-sufficient nomadic unit may profit from the special value of each land use area. Grazing land is utilized for meat and dairy production, dry land for cereals, irrigated land for vegetables and orchard crops and oasis dryland for palms and olives. Mixed farming organization creates pressure upon land in a unique way that is highly localized and discriminatory between varying land types. Small differences in local environmental conditions, such as the case where transition from sandy loam to heavy clay and to exposed hard pan formations brings about declining soil fertility. The situation of wells, the courses of wadis and roads, and the incidence of palms all tend to accentuate these distinctions.

It is most important to bear in mind that the opportunities for employment outside subsistence were limited in the period before 1945. Seasonal and contract work for Arabs with the Italian administration rarely involved change of place or residence or long periods of residence outside the tribal area. Thus in this period very few of the sedentary peoples of the northern coast and hill lands gave up their farms and moved to the towns.

The area of fertile, well-watered land in Libya is extremely limited, with only 0.02 per cent of the total land utilized for arable and orchard cultivation. (11) In these circumstances, rural peoples

11 — Johnson et al., page 41.

held to their lands. As long as the farmer had no scope for employment outside tribal society, and as long as he had to be content with his low standard of living, land work and low returns were accepted.

It has been shown that there were sound environmental reasons for the continuance of the nomadic process after the sedentarisation of nomadic groups. Where subsistence farming is practised in Tripolitania, it may be expected that fragmentation of landed property will continue on the pattern outlined. There is a tendency amongst present-day administrators to treat the fragmentation problem as one arising from rural conservatism to be cured by legislation. Certainly, experience at Wadi Caam Settlement has shown that it is far from simple to introduce a system of land holding which varies radically from traditional practices. The Arab farmer has exhibited an attachment to land in his ownership and has often preferred the burden of cultivating a number of dismembered fragments of private land than farm a compact area on a tenancy. Even where the advantages of farming single blocks can be demonstrated, as at Wadi Caam, the Arab cultivator has proved slow to adapt to the new situation. Initiative by the administration in legislation and rural education could do much to mitigate the problems arising from fragmentation. But the underlying causes of fragmentation will not be removed until the self-sufficient farm unit has ceased to exist for economic reasons.

Since 1948, and particularly since 1951, there has been an increasing rate of social and economic change in Tripolitania, and increasing commercial and social contact with areas outside Libya. Closely allied with this impact of new ideas, the pattern of rural life has changed greatly in recent years. Exploitation of oil resources has opened a large number of employment opportunities in the towns since 1961 and the urban market for agricultural goods has grown correspondingly greater.

---

15 — Mikesell, R.F. "The Wadi Caam Project — its social and economic aspects", in "Land Reform in Libya", edited Wilkinson and Clarke. Reserch Papers Series No. 4 (1962) University of Durham.

The rate of rural population in the towns has been marked over 1951. As this trend accelerates under planned economic development, it may be expected from experience in comparable areas to increase pressure on land resources should decline.(13) (14)

The release of pressure upon land in terms of persons per square kilometre of agricultural land does not in itself imply a change in the strength of subsistence multifunctional organisation. The major force being exerted in Trigonia upon the self-sufficient unit is urban demand for agricultural products. The rural, peasant community is not adjusted to appreciate the scope and variety of demand from the towns, but the urban merchants are in a position to do so, and many of them are sufficiently acquainted with the rural scene to influence production. Commercial production undertaken by the peasant removes the economic raison d'etre for the self-sufficient basis of the Trigonian minifundia. ial. The spread of commercial farming and the drift to the towns has permitted the more money-minded and intelligent to consolidate farm holdings, a move which has been followed by many farmers in areas adjacent to towns and main lines of communication. Under these conditions, the consolidation process becomes less expensive and, after some time it is apparent that legal action would introduce land reform to support the trend in the immediate environs of medium and large towns. However, use of small plots for house construction has had an important reverse effect.(15)

The major effects of consolidation of farm holdings into a number of non-contiguous plots in terms of physical effort, is that every farm operation is multiplied by the number of plots held by the farmer. From the figures in the following table, it is clear that exploitation is the minimum multiplication of farm operations effected most farms.

---

13 — Bailey, K.V. "The Peasant and Society in Malta", C.A.S.S., Durham 1938

14 — Warriner, D. "Land reform and development in the Middle East", 1957

15 — Atkins, J.A. Comments on the location of field areas on the preparation and compilation of field sheets for the land survey and on the land use patterns which emerge. Paper presented to Library Association, Durham, Faculty of Arts Congress, February, 1958.

Number of parcels in oasis gardens in Zuwia, Homs & Sahel (16-17)

Number of parcels	Percent of farms		Average size of parcels in hectares	
	Homs & Sahel	Zuwia Oasis	Homs & Sahel	Zuwia Oasis
1	30	3	2.00	2.16
2	10	21	2.00	1.68
3	30	20	1.25	1.24
4	20	19	1.21	0.28
5	10	13	1.00	0.16
6 or more	10	21	0.83	0.24

Only twenty per cent of the farmers at Homs and Sahel and five per cent of the farmers interviewed at Zuwia worked only one oasis plot. The figures tend to hide the fact that in Homs and Sahel the number of parcels ranged from one to eight and in Zuwia from one to thirteen. The task of moving labour, implements and draught animals from plot to plot is formidable, especially when farming operations have to be carried through within a short space of time. During the former rains of autumn the sowing of cereals and other dry-land and semi-irrigated crops must be accomplished rapidly to make optimum use of light rainfalls. At these times, the multiplication of operations arising from fragmented holdings is an important obstacle to efficient practice.

In the oasis gardens, the distance between plots of land owned by one particular farmer may not be great. In the Oasis of Zuwia, the distance between plots varies from contiguity to half a kilometre.(15) Experience in other areas of Tripolitania is rather different. Dispersion of plots is greatest in Misurata, for example, where one farmer in the District of Homs also owns land in a

---

15 — Dandoy, op. cit. (Sample of 50 farms).

17 — McLachlan, (Sample of 50 farms) quoted in a geographical study of the coastal area between Zuara and Misurata, Tripolitania, a geography of resource growth, Durham University, 1961.

18 — Dandoy, op. cit.

...ing district with some five kilometres separating the two areas under cultivation. Considerable distances between plots of land constituting one holding obviously aggravate the problems outlined previously.

The recent spread of commercial agriculture in Tripolitania has been associated with the use of modern systems of water lifting and reticulation for semi-irrigated winter and irrigated summer cropping. The dispersion of landed holdings has proved the greatest obstacle to the use of these modern systems, and in some areas of extreme fragmentation has precluded their use. In areas of consolidated holdings, irrigation is watchful and expensive, since the well owned by a farmer is rarely situated centrally to his parcels of land. In practice, most commercial farmers faced with this problem use that well on their lands which is best suited to continuous extraction of water by means of motor pumps. From the well-head, water must be led to each of the irrigable plots of land by means of roughly constructed channels which often pass over pathways, cross sandy palmeries and skirt other farmers' fields. Quite apart from the cost of constructing and maintaining water channels, the system is physically inefficient. Losses of water through evaporation, seepage and theft along the courses of the channels lead to an average water loss of about 50 per cent of the water leaving the well-head. Thus the arguments for consolidation of holdings are gaining general currency amongst commercial farmers, most of whom face these problems.

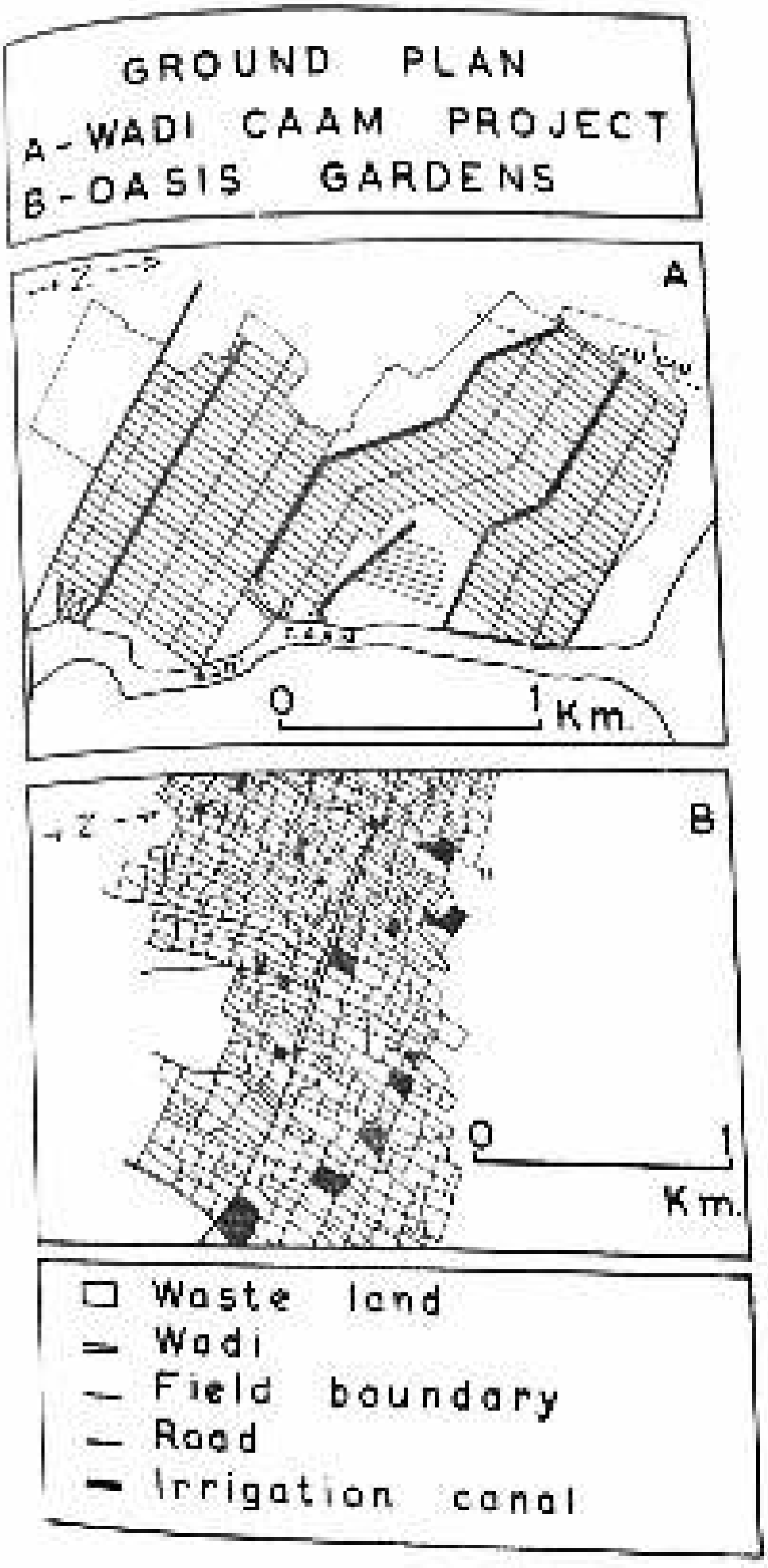
A distinct field pattern has evolved in association with the practice of parcellement in Tripolitania. The attempt to share parcels of land on a basis of equal surface area and quality has led to a haphazard field shape emerging in the rural landscape. The present pattern of field boundaries in the Sahel el-Ahamed illustrates the range of shapes which have resulted from the parcellement process (see Figure 1).

One problem arising from the pattern of field boundaries is that access has to be provided to each separate plot of land. In many areas of northern Tripolitania, a large proportion of valuable land is given over to paths and tracks. Further problems are the

extended lines of irrigation channels which become necessary to transfer water from well-head to non-adjacent fields along all intervening boundary walls. All in all, narrow and irregular strips of land tend to aggravate the problems already noted concerning fragmentation and the maintenance of old techniques.

It will be apparent from this discussion that the agricultural landscape is undergoing a gradual change in terms of field size, field shape and the configuration of farm holdings. In the course of the last fifty years, land holding has moved from the communal to the individual owner. In this process, steppe mores and the character of the physical environment served to produce a self-sufficient farming economy based on a highly developed sense of differences in land quality, expressed through the practice of remembrement.

Knowledge of modern agricultural methods has spread amongst the Arab farmers since 1952. Field extension work by government and other organizations such as the Food and Agricultural Organization has augmented the impact of commercial, urban pressure on the agrarian economy. Furthermore, opportunities for employment outside the agricultural sector have become more numerous since the beginning of intensive development of oil resources. The spread of commercial agriculture and increasing opportunities for urban employment have had an impact upon the nature of land holdings in Tripolitania, and it seems likely that the worst features of remembrement will disappear in the future. Nonetheless, the dispersion of land holdings and the established effects of the remembrement process represent an obstacle against which the introduction of modern techniques of production will have to bear heavily.


GROUND PLAN
A - WADI CAAM PROJECT
B - OASIS GARDENS
A
0
1 Km.
B
0
1
Km.
Waste land
Wadi
Field boundary
Road
Irrigation canal

NEWS OF ACADEMIC ACTIVITY

CONFERENCE :

'Libya in History'

From 15th March 1968, for eight days until 23rd March, the first conference of the Faculty of Arts of this University was held in Benghazi: its theme was 'Libya in History'.

As the centre of historical studies and research in the country, the Faculty was the natural choice for such a conference. Libya has been the witness of so many eras of civilization, which enjoyed a brilliant history and left behind a large cultural and archaeological heritage, that the subject for the Faculty's first conference was self-evident. Occupying a unique geographical position linking East and West, with a long Mediterranean coastline, and extending into the African interior, Libya has played a significant and leading role in the history of the area.

It was consequently expected with confidence that a conference of the leading scholars specialising in Libyan studies, contributing the fruits of their most recent research, could not fail to throw new light on the country's long historical record. The results which will be published in two volumes in the near future have in every way justified the hopes of the University and the Faculty.

Programme of the Conference

SATURDAY, 10th MARCH 1968

Inauguration

HE Mustafa Abdulla Bayan: Minister of Education
HE Abd-al Mawla Dughman : Rector, the University of Libya.
Dr. Muktar Mostafa Bazu: Dean of the Faculty.

First Session

1. C.B.M. McBurney, University of Cambridge :

Libya's Place in Pre-History

2. Written Contributions :

A. Fabiali: Mod. Rome :

Prehistoric Rock-Paintings in Fezzan

B. Tahr. Hajir, Department of Antiquities, Tripoli

Libyan Cultural Relationships in Pre-History

Second Session

1. P.F. Cadellick, University of Libya :

Problems of pre-Herodotus sources in Libyan History

2. M.K. Benamr, Ministry of Education, Libya :

Mutual cultural exchange between Libya, Egypt and Greece

SUNDAY, 10th MARCH, 1968

Third Session

1. F. Chamoux, La Sorbonne, Paris:

The Epigraph of Euesperos

2. L. Nielsy, University of Libya :

Arbedings III

Written Contribution :

J. Boardman, The Ashmolean Museum, University of Oxford :
Reflexions on the Greek Pottery Trade with Tocra.

Fourth Session :

1. J.B. Ward-Perkins, The British School at Rome :
Pre-Roman Elements in the Architecture of Roman Tripolitania

2. M. Abd-el-Alim, University of Ain-Shams, Cairo:
Libyans and Greeks in Ptolemaic Papyri

3. A. Sadiqwya, Department of Antiquities, Cyrenaica :
The Greek Settlement in Cyrenaica, with notes on Pottery discovered there

MONDAY, 16th MARCH, 1968

Fifth Session :

1. Lady Olwen Brogan, University of Cambridge:
First and Second Century Settlement in the Tripolitanian Pre-Desert.

2. P. Romanelli, Accademia Nazionale dei Lincei, Rome:
Libya in the setting of North-African Archaeology.

3. M.P. Squarciapino, Department of Antiquities, Rome:
Reflexions on the Sculptures of Lepcis Magna.

Written Contributions :

A. R. Goodchild, University of London :
Roman Roads of Libya and their Milestones

B. A.D. Fiz, University of Perugia :
(i) The Emporia of Tripolitania
(ii) The Mausolea of Sabratha.

Sixth Session :

J. J. Reynolds, University of Cambridge :

Inscriptions of Cyrenaica : Progress Report

2. S. Stucchi, University of Rome :

Outline of the History of Cyrenaican Architecture in the Greek Era

Written Contributions :

A.R. Quitis, Department of Antiquities, Tripolitania :

Libya in Severan Times

D.F. Abu-Hamid, Department of Antiquities, Tripolitania :

The Phoenicians in Libya

TUESDAY, 6th MARCH, 1962

Seventh Session :

1. L. Thompson, University of Ibadan, Nigeria

Roman and Native in the Tripolitanian Cities in the Early Empire

2. L.P. Kirwan, British Institute of History & Archaeology in East Africa :

Roman Expeditions to the Upper Nile and the Third-Nubian Region

3. C.M. Daniels, University of Newcastle upon Tyne :

The Garamantes of Fezzan

Written Contributions :

A. R. Graziosi, Paleolithological Institute, Florence

Fezzanese Rock Paintings

B. M.S. Ayoub, Department of Antiquities, Fezzan

Jerma at its prime : III-4th A.D.

C.M.S. Ayoub :

The Campaign of Cornelius Balbus

Ninth Session :

1. A.H.M. Jones, University of Cambridge :
   Frontier Defence in Byzantine Libya

2. D.J. Smith, University of Newcastle upon Tyne :
   The Continents of Tripolitania and their Antecedents

WEDNESDAY, 20th MARCH, 1968

Ninth Session :

1. M. Ziadeh, American University of Beirut :
   The Libya of Al Hassan al-Wazzani and Marmol

2. A. Hamdani, American University in Cairo :
   Libya in Fatimid Times

3. P. Ville, Royal University of Malta :
   The Relations between the Order of Malta and Tripoli

Written Contribution :

Ajaj Sedawys, Department of Antiquities, Cyrenaica :
   Condition of Libya as described by Haj Abu Sadim al Abdali.

Tenth Session :

1. M. Elliot, Ministry of Education :
   Some Aspects of Libyan History in the 19th Century.

2. O. Ismail, University of Libya :
   Conditions that led Ali al-Beseiri to occupy Tripoli.

THURSDAY, 21st MARCH, 1968

Eleventh Session :

Sir Duncan Cumming, London :

The Senusiya in the First World War

Written Contributions :

G. Z. Qasim, Ain Shams University, Cairo :

The Role of Egypt in the Libyan-Italian War.

Final Session :

Saturday and Friday, 22nd and 23rd March, 1968

Archaeological Tour in the Green Mountain

JOINT LIBYAN UNIVERSITY —

LONDON UNIVERSITY RESEARCH PROJECT

The Geography Department in the Faculty of Arts, University of Libya and the School of Oriental and African Studies in the University of London agreed to carry out a joint research project to study development in Libya from the points of view of geography, economics, sociology and anthropology, particularly the development following the discovery of oil.

Implementation of the project is to follow the guide lines shown below, and work on the land use survey has already begun.

1. The survey covers Eastern, Western and Southern provinces of Libya (Cyrenaica, Tripolitania and the Fezzan). In particular, the survey includes samples of areas under the following heads:

   (i) ex ENTA and ERTS settlements ;

   (ii) new agricultural states established by the National Agricultural Settlement Authority ;

   (iii) small-scale private units ;

   (iv) private large-scale units.

2. Farm Questionnaires are undertaken in association with the land-use survey and aimed at providing information relevant to :

   1) farm budgetary

2) domestic budgetary

3) financial conditions

4) land ownership conditions

5) social and economic problems of farmers in the categories outlined above

5. Other Field Research. This includes study of relevant factors of economic and social change in sectors other than the agricultural sector. In particular examination is made of demographic industrial labour migration and other topics which are deemed necessary for the purpose of the survey.

6. Organisation of the Survey.

Areas covered by the field work are:

1. Jebel Akhdar and areas immediately adjacent
2. Benghazi Plain and Sirtican zone
3. Misurata-Homs area.
4. Jebel Nefusa (Melita to Tunisian frontier).
5. Jefara East (Tripoli — Zuara)
6. Jefara West (Tripoli — Ghar Jbilat)
7. Oases of Fezzan.

Groups are constituted by representatives from :

— Staff of the University of Libya

Students of the University of Libya

— Staff of the University of London

Post-Graduate students of the University of London

— Research Associates of the University of London

The survey is receiving financial and material support from :

— University of Libya

— School of Oriental and African Studies University of London

— British Petroleum Company.

The work is in co-operation with:—

— Libyan National Agricultural Settlement Authority

— Ministry of Agriculture, Libya

— Food and agricultural Organisation of the United Nations.

The Libyan side of the project is directed by Dr. Mukhtar M. Buru and the London side by Dr. Keith McLachlan and Professor Edith Penrose of the School of Oriental and African Studies Studies is Supervisor of the project.

Field work began in February 1967. The second stage of the field work was carried out in summer 1967 and the third in February 1968. The final stage of the field work will be in the summer of 1968. The data collected will be processed by computer in London University, and the first report of the project will be produced at the end of 1968.

A BRIEF NOTE ON THE JOINT RESEARCH-PROJECT:

"WASTAGE IN EDUCATION"

The Ministry of Education and the University of Libya have always felt the need for a careful study of the educational situation in Libya. There are nearly 300,000 students in Libyan primary and secondary schools and institutions of higher education, and large amounts of money are being increasingly invested in education as a vehicle for social and economic development. The immediate aim of this paper is to give a brief survey of the development of education in Libya since independence and to give an outline of a research project being undertaken jointly by the Ministry of Education and the Faculty of Arts.

When Libya achieved sovereignty in December, 1951, its economic position was not one to inspire confidence in her future. Within the field of economic development Libya was, as B. Higgins wrote, (1) "a special case from almost any point of view". A quotation from A. Lockwood's "Libya — building a desert Economy", sums up quite succinctly the educational situation in Libya prior to independence: "Not only had formal education been practically non-existent but any training at all had been unusual, the Italians having brought even their domestic servants from Italy." (2)

In view of the first UNESCO mission to Libya, "Libya (had) only one major untapped resource: the latent skills of its people". (3) In this context the role of education and training became very clear. Education was seen as, "the core of both economic and social development in Libya. It is in the increase in efficiency through education and training that one must look for much of the initial increase in Libyan productivity."

The Libyan Government, too, was well aware of the importance of education as the first speech from the throne to the first session of the new Parliament had shown. In his speech from the throne, His Majesty King Idris I stated: "Our Government fully realises that education is the only factor apt to make the nation an effective force keeping abreast with the procession of dignified life and modern civilization; it is the beacon which guides the people and enables them to realize their ideals and grasp the effective means of progress towards perfection."

The newly-established Libyan state pledged itself fully to provide free, universal, and compulsory education for all the children of Libya, and articles 38, 39 and 50 of the Constitution called for the expansion of educational facilities.

---

(1) B. Higgins, "Underdeveloped Libya" (Report — Conference [illegible], Nov. 1954).

(2) A. Lockwood, "Libya — building a desert Economy".

(3) Report of the UNESCO Mission to Libya — 1962

Great strides have been taken culminating in the establishment by a Royal Decree of the University of Libya in 1955. The purpose of this joint research project is to take stock of our educational achievements since independence especially in view of the changing economic and social situation. It proposes to do this by trying to assess and indicate the rate and volume of wastage in education, starting with the primary level.

The joint-research committee was set up following a ministerial order that was issued on the 21st February 1978. The Committee includes representatives of the Ministry of Education and the Faculty of Arts under the chairmanship of the Dean of the Faculty of Arts.

The Committee has had a few meetings and made several visits to primary schools in the Tripoli and Benghazi areas. The Committee has also established a working relationship with the Educational and Psychological Research Center of the University of Baghdad where a similar research project is being undertaken.

Public Lectures

1) Dr Abdel rahman BADAWI: Reflections on Arab culture.
2) Dr. Jamil Saliba : Some views concerning the nature of creativity in artistic and scientific works.
3) Dr. Mustapha Hilmi: Moslim mysticism: evolution, recognition of truth and type of conduct.
4) Dr. Mohammed Ali al-Kyar : Why do we work?
5) Dr. Galal Khayat : The professional code.
6) J. Weaver : English contributions to arabic studies.

Visiting Lectures

7) Gen. Mohammed Al-Fadil Ibn Ashour: Religious Method in comparative studies of Religion.
8) Amin Bilbisi, Dean of the faculty of Arts in Ankara University: The Political, Social, and Administrative Situation in Ancient in the first centuries.
9) Ilhami Ekdem, Professor of the History of Islamic art in Ankara University: Developments in Anatolia.
10) Ascel Aziz Al Ayon: Educational planning and economic development.

Abstracts

-1-

THUCYDIDES

by

Professor I. Nicolay

Thucydides, the Athenian, was the first historian to write a contemporary history, and to apply the scientific method to history. Endowed with the sophistic culture of Periclean Athens and equipped with the new spirit of enlightenment, Thucydides took upon himself to write the history of the Peloponnesian War (432-404 B.C.) in which he served as a general for a short time before he was banished in 424 by his countrymen and remained in exile for about twenty years, returning to Athens after the end of the war. His exile enabled him to collect material for his work, obtain the points of view of both sides of the belligerents, and scrutinize his information at leisure.

Thucydides did not think highly of his predecessors, because of their lack of the sense of discrimination, their readiness to accept ancient traditions and their propensity to 'please the ear rather than to state the truth'. His ideals of history are different. They are accuracy, veracity and impartiality. He tells us: "I thought it proper to record the facts of the war, neither from chance information nor from my own impression, but in accordance with the most accurate investigation possible of each part-

rate, not only on the situation of which I heard from others, but also in those at which I was present myself."

In contradistinction to Herodotus, Thucydides makes no allowance for the interference of Divine Providence in shaping the course of events. Men were the cause of the war and its result depended on the ability and integrity of the protagonists' leaders much rather than on their resources.

Thucydides' political insight reveals itself by his discrimination between the immediate and real causes of the Peloponnesian War. Having realized that the growth of Athenian power to such dimensions that frightened Sparta and her allies, Thucydides traces the growth of this power since the Persian Wars, and discussed the problems attending the rise and maintenance of political power. The same political insight governs the description of the war itself, illustrating the effects of the plague, successes and reverses during the course of the war, as well as the atrocities and moral disintegration accompanying civil war, faction strife and injustice of the powerful to the weak.

To portray the psychological aspects of power and the underlying motives of policy, Thucydides included in his history speeches by statesmen, ambassadors and generals, warning the reader that the speeches embodied not only the purport of what had actually been said, but also the arguments he himself had considered most appropriate in each occasion and speaker. Indeed, Thucydides' speeches are his highest literary effort and pregnant with deep reflections and analyses, but however much Thucydides' artistry and political insight are appreciated, there is no gainsaying that his resort to this method is reprehensible, not only because of its pernicious influence on many generations of later historians who imitated him without having his gifts or the ability to attain his

lofty standard in truthfulness and impartiality, but also because it will be for ever impossible to find out what was actually said on each occasion, so as to assess it independently.

If this is unobjectionable, one may forgive Thucydides the very few instances in which he forsook his impartiality, as when he criticised Cleon needlessly, or showed his unbounded admiration for Pericles and Athens. His views on certain topics may be open to question and his method of dating the events of the war is primitive. All this, however, does not detract from the greatness of his achievement, for no history is complete.

If critics are prone to single out as outstanding Thucydides' account of the causes of the Peloponnesian War, the speeches — particularly the funeral oration delivered by Pericles in honour of those who fell during the first year of the war — and his story of the Sicilian expedition, Thucydides' greatness must be judged by his conception of the history of the war as a whole, his critical insight and analyses, his scientific method and humanitarianism, which have earned him the admiration of all generations and placed him on a lofty pedestal by himself, high above all the historians of the ancient world.

— 2 —

Views concerning the Nature of Originality in the Works of Artists and scientists.

By Prof. Moses Jafe

The views of Lombroso, Galton, Kretschmer, Freud, Jung and Poincaré concerning the nature of originality in the scientific and artistic works are briefly stated and critically evaluated in the light of modern physiology of the cerebral mechanisms. Since mental activity is an activity performed by the brain, it is rather directed to the laws of neurodynamics. On the other hand, culture

creates special forms of behavior, modifies the activity of the mental functions and adds new storeys to the development of system of human behavior. This is the basic fact of which we are persuaded by every page of psychology of primitive man which studies cultural — psychological development in its pure, isolated form. In the process of historical development social man changes the ways and means of his behavior, transforms natural instincts and inclinations, elaborates and creates new forms of behavior — specifically cultured forms.

The behavior of a modern cultured adult is the result of two different processes of mental development: the process of biological evolution of animal species which gave rise to the species of homo sapiens and the process of historical development which has transformed primitive man into cultured man.

When Newton was once asked how he had managed to discover the law of gravitation he said, "Because I kept thinking about it all the time." Cuvier, the great French naturalist, defined originality, on the basis of Newton foregoing words, as incessant attention.

When Newton thought of his theory of gravitation, the constructive aspect of his thought was not banal in its materials. They were familiar. His originality lay in the use to which those familiar suppositions were put by introducing an unfamiliar subject.

The formation of new ways implies the acquisition by the individual of the forms of activity worked out by mankind in the course of its sociohistorical development. Thus man's creativity depends not only on the activity of his brain, but above all level of historical development attained by mankind. Consequently,

creative work in art and science are the results of a process in which all aspects of mental life of man take part and also the skills which are required to realize a creative design and is acquired by training and social practice.

The educational conclusion is that all thinking is original in proportion as considerations which have not been previously apprehended. The child of six who finds out what he can make by putting five books and five books together is really a discoverer, even though everybody else in the world knows it. How one person's abilities are compared in quantity with those of another is none of the teacher's business. It is irrelevant to his work. What is required is that every individual shall have opportunities to employ his own powers in activities that have meaning

BULLETIN OF THE FACULTY OF ARTS

Bulletin of the Faculty of Arts

Issued annually

Deals with academic studies in the field of humanities. All correspondence and subscriptions should be addressed to :

Dean of the Faculty of Arts

Libya University
Benghazi-Libya

Price of each copy : 80 piastres = 10 shillings = $2.50 All rights of publication reserved by the Faculty of Arts, University of Libya, Benghazi.

Reproduction of any article is subject to the written permission of the Faculty of Arts.

The Faculty of Arts wishes to make it clear that opinions expressed in articles published in this Bulletin are the personal views of their authors.

UNIVERSITY OF LIBYA

BULLETIN OF THE FACULTY OF ARTS

Associate editor
Dr 'Abdunahmān Badawi

Editor :
A. Mukhtar Buru

Vol. II. 1968

TABLE OF CONTENTS

Articles in Languages other than Arabic

Editorial By Dr. Mukhtar Buru 7

1. Dr. Gerald H. Blake : The form and function of Misratah's commercial centre 9

2. Dr. Mukhtar Buru : Soil analysis and its relation to land use in al-Marj plain, Cyrenaica 41

3. Prof. Francesco Gabrieli : Ricerche sugli Ibaditi di alcune moschee in Italia 71

4. Dr. K. McCracken : Landed property and economic change in Tripolitania 85

News of Academic Activity : Conference: "Libya in History" 105

— Joint Libyan University - London University Research Project 108

— A brief note on the joint research project: "Heritage in Education" 111

— Public lectures 113

Abstracts 114

Articles in Arabic

1. Dr Ibrahim Noshi : Thucydides ٩
2. Dr. Hassan Awad : Urban centres in the oases of the Sahara: a study of a type of urban growth in arid zones. ٢٥
3. Dr Abdurrahman Badawi: Cynicism philosophy in arabic sources. ٩٩
4. Abdallah Gannun : Sheikh Ahmed Zarruq a mystic buried in Misrata. ١٢٩
5. Ulianen al-Kash: Libyan culture: Translations and Publications ١٦٥
6. Dr. Nuri Gaddur: Some views concerning the nature of creativity in artistic and scientific works ١٩٣
7. Dr. Abdurrasman BAHAWI : Book review ٢٢٩

EDITORIAL

The Faculty of Arts has great pleasure in introducing to research workers and scientists interested in the humanities the second volume of the Bulletin of the Faculty of Arts. A long period has elapsed since the publication of the first volume, but we would like to stress that this delay was for reasons beyond the control of the Faculty.

We believe that a University should not only be a place where lectures are delivered, but also an institution which contributes to research and academic studies. This is particularly true now that improved communications and technological advance are bringing all parts of the World into closer contact with each other, and facilitating the exchange of knowledge and ideas.

Libya today is witnessing rapid social and economic growth, and parallel to this is the development in the spheres of education. This fact has inspired the Faculty to contribute in this sphere by opening the way for the publication of sound scientific research in an attempt to make available the work of scientists who devote most of their time to the study of Libya, by means of both publications and conferences.

The Faculty has begun to carry out many research projects, on both a national and an international scale, and this research deals with various aspects of Libyan environment, so that the social and economic development of the country may be built on a sound scientific basis. Therefore, I hope that this Bulletin will be a focal point for the study of Libyan affairs in particular.

and Islamic affairs in general. The Bulletin is issued annually at present, but we hope that in time it will be possible to issue more than one volume in a year.

We hope also that the Bulletin will be a cornerstone in the building of scientific research in the humanities, and will thus contribute to the continuation of the cultural advance in Libya which has been inspired by H.M. King Idris I and which has continued throughout his reign. We hope that the publication of the Bulletin will be a regular event, in order that it may fulfil its duty in the diffusion and encouragement of scientific research.

Mukhtar Buru

Dean of the Faculty

of Arts

UNIVERSITY OF LIBYA

BULLETIN OF THE FACULTY OF ARTS

Vol. II. 1968